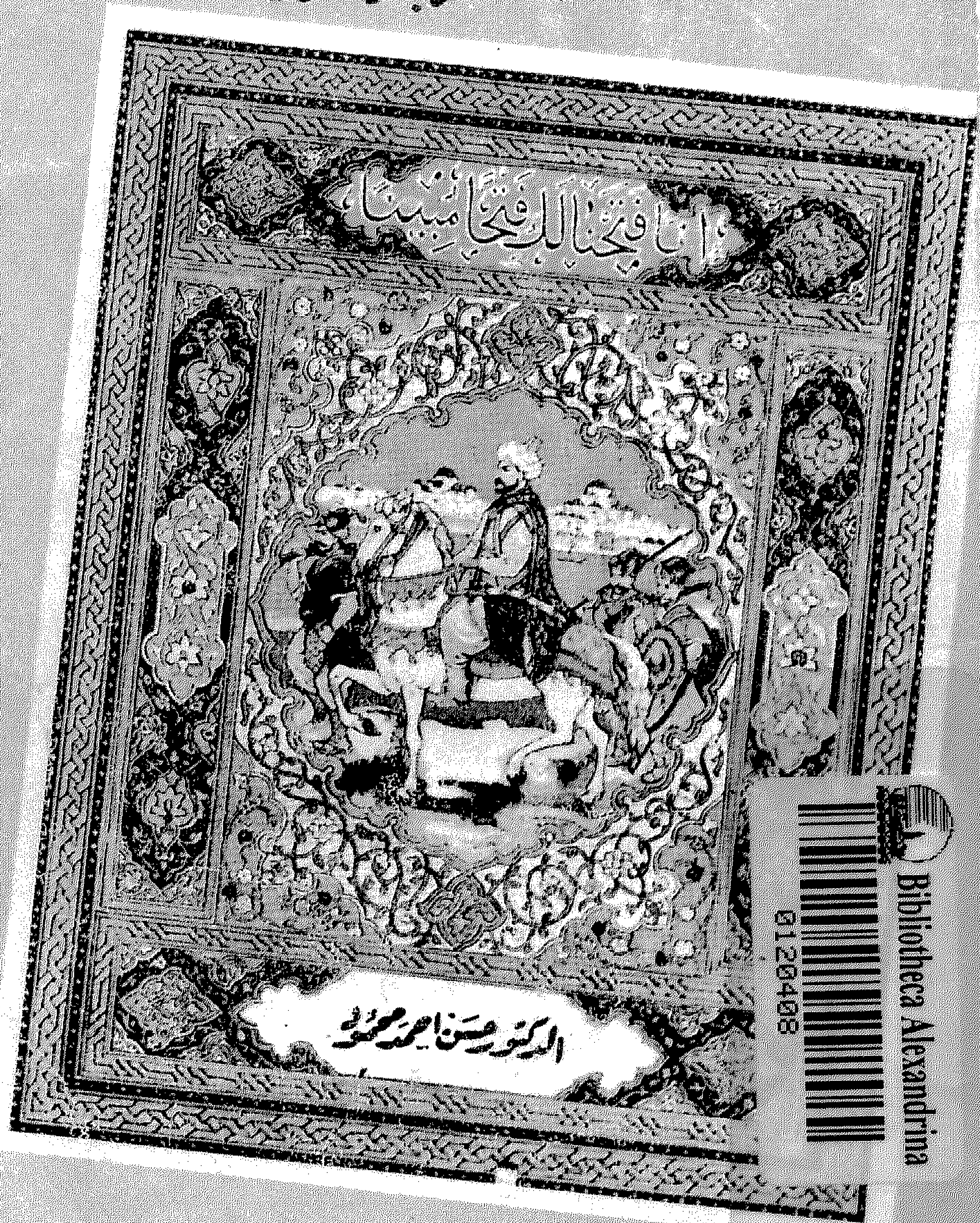
الإسلام والحضارة العربية
في
آسيا الوسطى
بين الفتحين العربي والتركي



دار الفكر العربي

الإسلام والحضارة العربية
فى
آسيا الوسطى
بين الفتحين العربي والتركى
٢١ - ٤٤٧ هـ

الدكتور حسن أحمد محمود
أستاذ التاريخ الإسلامى
كلية الآداب — جامعة القاهرة

دار الفكر العربى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

موضوع انتشار الإسلام موضوع غامض، لم ينل حظه من الدراسة الشاملة، حتى بعد المحاولة الكبيرة التي قام بها السير توماس أرنولد في كتابه الشهير « الدعوة إلى الإسلام ».

والحق أن وثائقه إما نادرة أو متفرقة، كما أن أغلب من أرخوا للإسلام عنوا بالأحداث السياسية وأغرقوا في الحديث عن الغزوات والوقائع والحروب والانتصارات، كما كتب كثيرون في الثقافة الإسلامية فأكثروا من التفاصيل، أو كتبوا في نظم الحكم، أو عرضوا لحياة المسلمين الاقتصادية أو الاجتماعية.

لذلك آثرت أن استهدى بدراسة السير توماس أرنولد وأكتب في موضوع انتشار الإسلام، موضحاً بعض ما شابه من غموض مثيراً الإحساس بأهميته، مستنهضاً همة المشتغلين بالتاريخ الإسلامي للإسهام في الكتابة فيه، حتى يكتمل تاريخ الدعوة إلى الإسلام منذ مشرقه الأول حتى اليوم.

وهذه الدراسة تفرض علينا منهجاً معيناً، يقضي بألا تكون الدراسة إغراقاً في ذكر الأحداث السياسية، مع عدم إهمال هذه الأحداث لنستخرج منها العبرة، ونستق منها ما يوضح غوامض الدعوة الإسلامية. فالدراسة إذاً ليست دراسة سياسية مفصلة.

كذلك لابد من أن نعرض للظروف التي مكنت الإسلام من النجاح ونتائج دخول الجماهير في الإسلام، بحيث لا تكون الدراسة من الضيق بحيث تشمل الناحية العقيدية فقط، إذ لابد أن تكون النظرة أرحب، فنعرض للمفهوم الحضري الواسع مع العناية بالآثار الاقتصادية والاجتماعية والفكرية.

وبعبارة أخرى يمكن أن نلخص هـــذا المنهاج فى الكلمات القليلة الآتية : أن اتصال البلاد ـ التى سنعرض لها بالدراسة ـ بالإسلام جاء عن طريق الفتوح العربية ، وأن ظروف تلك البلاد قبيل الفتح مكنت الفتح من أن يحقق نجاحا سريعاً . ولابد إذن من دراسة ظاهرة الفتوح وأسلوب الدولة فى نشر الإسلام ، ومعاملة الشعوب الخاضعة لها ، وأهم أسباب نجاح الإسلام فى دعوته ، مع التأريخ لحركات الدخول فى الإسلام ، وما كان للدخول فيه من نتائج منوعة .

وقد اخترت آسيا الوسطى ميدانا لهذه الدراسة . ولم أقتصر على آسيا الوسطى كمفهوم جغرافى ، لأن الإسلام فى تركستان وفد إليها من إيران ؛ كما أن الإسلام فى الهند وفد عن طريق إيران أول الأمر ثم عن طريق تركستان وغزنة بعد ذلك . إذن المفهوم الإسلامى لآسيا الوسطى يتسع كثيراً عن المفهوم الجغرافى ليشمل إيران وكيف دخلت فى الإسلام وتأثرت به وانطبعت الحياة الإسلامية فيها بتراثها القديم .

وعن طريق إيران دخل الإسلام تركستان . وكانت مدارس إيران الإسلامية إشعاعا فكريا امتد إلى ما وراء النهر وتركستان الشرقية . والحركة الإسلامية فى تركستان تأثرت بالحركة الإسلامية فى إيران ، والإحياء الفارسى نبع من خراسان وما وراء النهر وغلب على تركستان ، وعن طريق إيران دخل العرب إقليم السند . والأتراك الذين غلبوا على غزنة اندفعوا إلى شمال الهند لينشروا الإسلام ، وحملوا معهم مقوماتهم السياسية والعقيدية والفكرية . ودخلت حركة الإحياء الفارسى الهند مع الغزنويين ، وإذا بإيران وتركستان وشمال الهند تكاد أن تكون عالما إسلاميا قائما بذاته يدين بالإسلام ويتذوق الأدب الفارسى الجديد .

وقد اخترت من تاريخ الإسلام فى هذه البلاد عصراً واضحاً يبدأ بالفتح العربى وينتهى فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، وهو العصر الذى غلب فيه الأتراك السلاجقة على إيران والعراق ، وغلب فيه الأتراك الغزنويين على شمال الهند .

وحددت موضوع الكتاب على هذا النحو « **الاسلام فى اسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى** »

وقد عرضت لكل قطر على حدة ، فبدأت بإيران ثم تركستان ثم الهند ؛ وأفردت لكل إقليم بابا خاصا ، وجعلت الدراسة فى كل باب تسير على النهج التالى : أحوال البلاد قبيل الفتوح ـ الفتوح ـ انتشار الإسلام وأسباب نجاحه ـ نتائج الدخول فى الإسلام .

وقد حاولت بقدر الطاقة أن أوضح معالم انتشار الإسلام بين الفتحين العربى والتركى . ولست أدعى أنى وفيت الموضوع حقه ، إنما حسبى أنى أشرت إلى أهميته وأثرت بعض الجوانب المظلمة منه ، وفتحت الباب لمزيد من الدراسات التى أرجو أن تكون أكثر توفيقاً .

والخير أردت ، وما توفيقى إلا بالله : عليه توكلت وإليه أنيب ؟

الخرطوم ، فى يناير ١٩٦٨

حسن احمد محمود

الباب الأول
انتشار الإسلام في إيران

الفصل الأول
إيران قبل الفتح العربي

شهد الشرق الأدنى فى مستهل القرن السابع الميلادى تطوراً هاماً فى تاريخ العرب . ذلك أن الهجرات العربية القديمة التى كانت تخرج خروجا موسميا من شبه الجزيرة وتمضى إلى بادية العراق وتصل إلى أقليم الجزيرة ثم تنحسر انحساراً تلقائيا ، هذه الهجرات قدر لها أن تنهج نهجاً جديداً ، إذ حمل العرب رسالة نشر الإسلام والثقافة العربية فى إيران وما وراءها من أقاليم آسيا الوسطى .

وكان نجاح العرب فى حمل هذه الأمانة وأداء هـــذه الرسالة يتوقف على عاملين :

العامل الأول هو أن يتحد العرب فى دولة عربية واحدة تجمع شملهم وتوجه حركاتهم . وأن يتحد هؤلاء العرب ليس من أجل توسع مادى قد تنقضى أسبابه إنما من أجل رسالة سامية ، هى نشر الإسلام. والعامل الثانى هو أن تضعف الدولة الساسانية ، التى كانت سدا منيعا يقف فى وجه الحركات العربيـة ويردها على أعقابها ، لأن إيران تحتل موضعا جغرافيا هاما ، فهى حلقة اتصال بين آسيا الوسطى بشعوبهـا ولغاتها وبين عالم البحر الأبيض المتوسط بشعوبه ولغـاته ومقوماته . وكانت بحكم هذا الموقع تتحكم فى مقدرات الشرق وتياراته السياسية والفكرية . وكان واضحا أن نجاح التوسع العربى يتوقف على إزالة الساسانيين وسقوطهم .

العامل الأول نعرف عنه الكثير ، ويكفى أن نذكر أن الدولة الإسلامية بعد أبى بكر خلصت من متاعبها الداخلية وبدأت الجيوش العربية تتجه نحو العراق وإيران .

لكن يعنينا فى المقام الأول أن نعرض للعامل الثانى ، أى لأحوال الدولة الساسانية فى السنوات القليلة التى مضت من القرن السابع الميلادى ، السابقة على

أحداث الفتح العربى . لنتعرف على مواطن الضعف فى الحياة الإيرانية ونلتمس لتوفيقات الفتح تعليلا مقبولا .

كانت إيران فى تلك الفترة تحكمها الأسرة الساسانية ، هذه الأسرة التى تحتل من تاريخ إيران القومى مكانا عظيما بسبب التطورات التى صحبت ظهورها ، خصوصا بعد الثورة التى أعلنها أردشير مؤسس هذه الأسرة سنة ٢١٢م(١) .

ويبدو أن هذه الثورة حققت للساسانيين أغراضهم فى الحكم والسلطان ، غير أنها حققت لإيران مكاسب قومية . حققت لها الوحدة الإقليمية وحمتها إلى حد كبير من عدوان البيزنطيين والأتراك ، وبعثت تراثها القومى بإحيائها الديانة المجوسية القديمة . كما ساعدت الساسانيين على أن تنتشر الحضارة الإيرانية فى آسيا الوسطى ، حتى استطاعت أن تحل محل الحضارة الهندية (٢) .

وقد استطاع الساسانيون أن يحققوا للأمة الإيرانية مكاسب اقتصادية بإفادتهم من الطرق الدولية وتجارة العبور ، وما درّته من أرباح وفيرة .

ولكننا نستطيع أن نقول فى طمأنينة : إن الظروف التى فرضت الساسانيين فرضت عليهم أن ينهجوا نهجاً أدى إلى ضعفهم واضمحلالهم .

ولتوضيح ذلك الرأى نقول : إن إيران الساسانية كانت ضحية لوضعها الجغرافى قبل كل شىء . ذلك أن السياسة الإيرانية كان من أهدافها تحقيق الطمأنينة للوطن الإيرانى وحمايته من ثلاثة أعداء : البيزنطيين والترك والقبائل العربية التى كانت لا تكف عن الإغارة على بادية العراق .

وبذلك حارب الساسانيون فى ثلاث جبهات فى وقت واحد . حاربوا البيزنطيين فى أرمينيا وآسيا الصغرى ، والعرب فى بادية العراق وإقليم الجزيرة ، كما واجهوا الخطر التركى الذى كان قد بدأ يطل من وطن الأتراك ويغير على الحدود الإيرانية . هذه الجبهات الثلاث قدر لها أن تستنفد دم الساسانيين وأن تقضى على ما بقى فيهم من رمق المقاومة .

---

(١) كريستنسن — إيران فى عهد الساسانيين ، ص ٧٤

(٢) Barthold : Histoire des Turco d'Asia Centrale p.33

لحروبهم مع الإغريق والرومان والبيزنطيين ظهرت منذ فجر الدولة الأولى، وبدأت الدولة الساسانية تدخل هذه المعركة حماية لإيران فى عهد ملكها سابور الأول سنة ٢٦٠م . ذلك أن هذا الإمبراطور استطاع أن يوغل فى أرمينية وأن يأسر الإمبراطور الرومانى فاليريان (١) عند الرها وأن ينشر النفوذ الساسانى على أطراف العراق .

وقد اتخذ هذا الصراع صورة عنيفة ابتداء من القرن الرابع الميلادى، وعلى الأخص فى عهد الإمبراطور قسطنطين بعد امتداد حركة التبشير بالمسيحية إلى إيران ذاتها (٢) ووجد الإيرانيون قوماً منهم يدخلون فى المسيحية ويكون ولاؤهم للكنيسة البيزنطية عبر الحدود . وبدا واضحا أن النزاع بين الساسانيين والبيزنطيين أصبح نزاعا بين المسيحية وبين الديانات الشرقية ، وقد تبنى العرب بعد فتحهم إيران السياسية الإيرانية القـــديمة ، سياسة النضال مع الهللينية أو المسيحية الشرقية .

واستطاع الإيرانيون من بعد قسطنطين أن يحققوا انتصارات عدة. ففى عهد الملك بهرام الخامس (٤٢١ - ٤٢٨) (٣) استطاعوا أن يستولوا على أرمينية مرة أخرى . وأن يدخلوا بلاد الشام ، ويقال أن آثار التخريب التى تركوها فى بلاد الشام ظلت باقية بعد انسحابهم بنحو مائة سنة . ولم يقف البيزنطيون مكتوفى الأيدى فى هذا الصراع من أجل البقاء . فقد عملوا على محاولة تطويق إيران ومد نفوذهم إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى . وتحريض الأحباش على احتلال اليمن وتحريضهم على غزو مكة وإقامتهم إمارة الغساسنة (٤) .

على أن السياسة الساسانية فى محاربة البيزنطيين مضت إلى أبعد من هذا فى عهد كسرى الثانى ، الذى استطاع أن يستولى على الرها وأنطاكيـة ودمشق وأن يدخل بيت المقدس وأن يستولى على مصر . بل توغل النفوذ الساسانى فى آسيا

---

(١) كريستنسن ص ٢١ المصير الذى انتهى إليه فاليريان مجهول والمحقق أنه مات أسيرا ولعله لقى حتفه فى جند يسابور ، أسعد رستم الروم ج ١ ص ٤٧

(٢) انظر الفصل الممتع عن النصارى فى إيران الذى كتبه كريستنسن ص ٢٤٥ - ٣٠٠

(٣) إيران فى عهد الساسانيين ص ٢٦٣ ، أسد رستم ج ١ ص ١١٨

(٤) إيران فى عهد الساسانيين ص ٢٥٨

الصغرى ووصل إلى البسفور(١). واضطر البيزنطيون أن يقوموا بحملتهم المشهورة فى عهد هرقل سنة ٦٢٢ م(٢)، واستطاعوا أن يستردوا مصر وبلاد الشام، وتحالفوا مع الأتراك والخذريين فى القوقاز. وانتهت الدولة الساسانية فى عهد آخر ملوكها يزدجرد إلى حالة كبيرة من الضعف، بعد أن استنزف هذا الصراع مع البيزنطيين ما كان قد بقى فيها من رمق المقاومة.

وفى نفس الوقت تقريباً شهدت إيران ظهور خطر جديد على حدودها الشمالية الشرقية، ونعنى به الخطر التركى. والأتراك كانوا يغيرون من وطنهم القديم إغارات غير منظمة على الحدود الإيرانية ولكن هذه الغارات بدأت تشتد على خراسان منـــذ القرن الرابع الميلادى، وأصبحت هذه الغارات خطراً عظيما يتهدد هذه المنطقة الهامة التى كانت قلب الحضارة الإيرانية(٣).

وكان الساسانيون يسترضون الأتراك حيناً ليتفرغوا للبيزنطيين، ويسترضون البيزنطيين حيناً ليتفرغوا الأتراك. غير أن العصر الساسانى شهد خطرا تركيا فادحا فى مناسبتين: الأولى سنة ٥٧٩ والثانية سنة ٥٩٠ (١)، وفى هاتين المناسبتين كاد الخطر التركى يخترق قلب إيران. وكان البيزنطيون فى حربهم مع الساسانيين يمدون أيديهم الأتراك فى أكثر من مناسبة ليشترك الطرفان فى جهد مشترك للقضاء على الساسانيين.

وفى نفس الوقت كانت الدولة الساسانيـــة تصارع العرب. وقد أقام

---

(١) أسد رستم ج ١ ص ٢٢٣ — ٢٢٩، كريستنسن ص ٤٢٠ — ٤٢١.
Legacy of Persia p,40

(٢) كريستنسن ص ٣٥٨.

(٣) أسد رستم ج ١ ص ٢٢٦.

(٤) استغل الأتراك فرصة الحرب الفارسية البيزنطية بين موريقيوس وكسرى أنو شروان فطالبوا بزيادة الأتاوة السنوية التى كان الفرس يدفعونها لهم، وقد غضب الإمبراطور الإيرانى ورفض دفع الأتاوة المطلوبة فقام خاقان الترك من وخ عاصمته بمشاته وجموعه وقصد ايران غازيا فبعث الفرس جيشا كبيراً لصدهم فهزمهم وفشل الخاقان فى المعركة كما أسر ابنه فى معركة أخرى ودخل الفرس عاصمة الترك.
انظر: أسد رستم ج ١ ص ٢٠١.

الساسانيون دولة المناذرة كامارة عازلة تدفع عنهم خطر البدو وتحمى أطراف الدولة من ناحية العراق(١). غير أن الدولة الساسانية قضت على هذه الإمارة قضاء تاما فى مستهل القرن السابع الميلادى ، فأدى ذلك إلى إفساح المجال أمام الغزوات العربية لتتوغل فيما بعد فى منطقة العراق .

الخلاصة أن إيران فى عصر الساسانيين أصبحت ضحية لوضعها الجغرافى. وبعض المؤرخين يشبه الأمة الإيرانية التى قدر لها أن تصارع هذه القوى بالأمة الألمانية التى سقطت فريسة الصراع مع القوة الصقلبية فى الشرق والقوة اللاتينية فى الجنوب . أو بعبارة أخرى بدأت الدولة الساسانية سنة ٦٢٨ م كأنها جثة لاحراك بها ينهشها الأعداء من كل طرف : البيزنطيون من الغرب والعرب من الجنوب والأتراك من الشمال الشرقى .

وهنالك حقيقة أخرى نحب أن نشير إليها لكى نكشف القناع عن خفايا الأوضاع الداخلية فى إيران ، وهى من صنع الساسانيين ومن نتائج ثورتهم : وهى أن الثورة التى أعلنها أردشير مؤسس الدولة الساسانية قامت على دعوة دينية ، بإحياء الدين المجوسى القديم ، دين زردشت ، وهو الدين الذى كان قد ضعف منذ أيام المقدونيين وغزواتهم (٢).

كان هذا البعث الدينى من أهم الأسباب التى ساعدت على نجاح الحركة الساسانية . غير أن هذا الإحياء كانت له نتائجه السيئة ، فقد أدى إلى تسلل الزردشت إلى حياة الشعب كلها . تحكموا فيها وسيطروا على جميع مظاهر النشاط البشرى فى إيران . فمثلا تسللوا إلى الحياة الاقتصادية فمنحوا الإقطاعات العظيمة وأصبحوا طبقة من كبار الملاك ، وتمتعوا بالإعفاء من الضرائب بل أباحت الدولة لهم أن يفرضوا الضرائب إذا شاءوا . يقول كريستنسين « ولا يستند تأثير رجال الدين إلى سلطانهم الروحى وإلى حق القضاء الذى خولتهم الدولة وإلى سلطانهم فى إثبات شهادات الميلاد وعقود الزواج وغيرها ، وإلى قيامهم

(١) كريستنسن ص ٣٥٨ .

(٢) نفس المصدر ص٣٥٨ .

بالتطهر ورعاية القرابين فحسب . ولكن تأثيرهم يستند أيضاً إلى أراضيهم التى يملكونها، ومن ناحية أخرى كانوا يتمتعون باستقلال بعيد المدى ، وأنهم كانوا يكونون بالتقريب دولة داخل الدولة »(١) .

ومعنى هذا أن أيديهم أطلقت فى الشئون الاقتصادية وفى الوقت نفسه امتد سلطانهم إلى النواحى الإدارية وشاركوا الملك فى شئون الحكم . وبهذا أضافوا إلى السيطرة الاقتصادية سيطرة إدارية . وكانت المتاعب التى سببوها قد مهدت الطريق أمام بعض المذاهب الأخرى كى تتسلل إلى حياة الإيرانيين . وفى العصر الساسانى انتشرت مذاهب أخرى لقيت قبولا من الشعب الإيرانى الذى ضاق بالمجوس وباستبدادهم وتحكمهم . من هذه المذاهب « الديانة المانوية » وتنسب إلى مصلح يسمى مانى ظهر فى المدائن أيام سابور الأول وكانت دعوته تجمع بين تعاليم المسيحية واليهودية والمجوسية وتكاد أن تتجه اتجاها روحيا صرفا(٢) . ثم المزدكية نسبة إلى رجل إيرانى ظهر فى إقليم خراسان يسمى مزدك وكانت تعاليمه تجنح إلى شيوعية الثروة والأسرة ، هذا إلى بعض المظاهر الاشتراكية الأخرى . وقد لقيت هذا المذاهب قبولا من الجماهير التى عانت من ظلم الطبقات الممتازة وتفشت بينهم ودفعت بهم إلى الثورة السافرة التى هدت كيان الدولة وأضعفت من سلطانها(٣) .

ولا يعنينا هذا التسرب ، إنما الذى يعنينا أن الزردشت استغلوا أوضاعهم الاقتصادية والإدارية فى توريط الدولة فى حركة اضطهاد دينى كبرى .

ويذكر المؤرخون أن الساسانيين خرجوا عن تقاليدهم الموروثة التى تقوم على الحرية الدينية إلى أبعد الحدود وسايروا المجوس فى هذه الحركة الاضطهادية الكبيرة . فكانت جماهير المضطهدين عدة العرب فى فتحهم وهم الذين رجحوا كفة العرب فى الصراع الذى شهدته أرض إيران .

---

(١) كريستنسن ص ١٠٥ .

(٢) عن المانوية بالتفصيل . انظر كريستنسن ص ١٦٩ — ١٨٤ .

(٣) كريستنسن ص ٣٢٥ — ٣٢٧ .

ويمكننا أن نضيف إلى ما سبق ذكره بعض التطورات الاجتماعية التى أسهمت فى زلزلة الكيان الإيرانى . ذلك أن الحياة الاجتماعية عند الإيرانيين كانت تقوم على أساس الطبقية الجامدة إلى أبعد الحدود ، وهى من هذه الوجهة تشبه إلى حد كبير الحياة الاجتماعية عند الهنود(١) . ويخيل إلينا أن سبب هذا الجمود فى الحياة الاجتماعية يرجع إلى أن نظام الطبقات هذا كان نظاماً له قداسته وردت إشارات إليه فى الكتاب المقدس عند الإيرانيين المسمى بكتاب الأوستا ، وهو الكتاب الذى كان ينظم إليه الحياة الطبقية ويخلع عليها صفة القداسة .

وقد قسم هذا الكتاب المجتمع الإيرانى إلى أربع طبقات ، منها ثلاث ممتازة هى(٢) :

طبقة رجال الدين ، وطبقة العظماء وتشمل الملك والإقطاعيين وقواد الجيش ورجال الحرب ، ثم طبقة الزراع .

أما الطبقة الرابعة فهى طبقة أصحاب الحرف من العمال والصناع . وأفرادها يكلفون بخدمة الطبقات الثلاث الممتازة ؛ وقد ورد ذكر هذه الطبقات فى الكتب العربية والفارسية فأشار إليها الطبرى والمسعودى والدينورى كما ذكرها الفردوسى فى الشاهنامة . قيل إن جمشيد هـو أول ملك إيرانى قسم الإيرانيين إلى أربع طبقات .

وكانت طبقة الزراع تشكل الغالبية العظمى من الإيرانيين ، فلما اضطهدت سياسياً واقتصادياً بسبب فساد النظام الإقطاعى الذى كان متحكما صارت مستعدة للثورة على الاضطهاد .

وقد اتحدت هذه الطبقة فى أواخر عصر الساسانيين مع طبقة أصحاب الحرف فى طبقة واحدة سميت طبقة العمال المدنيين وأخذت تحس بوجودها وتطالب بحقها فى حياة أفضل . ولكن طبقة العظماء أنكرت هذا الحق وأصرت على منع

---

(١) كريستنسن ص ٣٠٢ ، ٣٠٥ .
(٢) المصدر السابق . إيران فى عهد الساسانيين ص ٧٥-٨٧ .

أفراد طبقة العمال المدنيين من مزاولة نشاطهم الاجتماعى والسياسى مما جعلهم يرحبون بالفتح العربى .

ويمكننا أيضاً أن نضيف إلى هذا أن إيران كانت فى الحقيقة مقسمة إلى إقليمين مختلفين فى الاتجاه الحضارى والفكرى ، لأنهما كانا مختلفين فى عناصر السكان والتوجيه الجغرافى والحياة الاجتماعية : فقد كانت مقسمة إلى إقليم العراق العجمى وهذا الإقليم ثقافته سامية منذ القدم وحياته زراعية وكانت عاصمته المدائن .

أما الإقليم الآخر فهو إيران الخالصة التى اكتسبت صبغة إيرانية صحيحة ومثلت الحياة فى عصر النهضة الإيرانية ، وكانت عاصمتها مدينة اصطخر . وقد ظهر هذا الانقسام بين الإقليمين بوضوح فى حوادث الفتح العربى فبينما استسلم العراق السامى للفتح العربى تركزت المقاومة الفعلية للعنصر الإيرانى وللثقافة الإيرانية فى هذا الإقليم الإيرانى الخالص .

هذه هى الظروف التى أحاطت بالحياة الإيرانية والتى تفسر لنا الكثير من أحداث الفترة الهامة التى بدأت فى تاريخ الشرق الأوسط منذ سنة ٦٣٤م (٢١هـ) فصاعداً وهى سنة البداية الأولى الحقيقية للفتح العربى لبلاد العراق وإيران .

٭ ٭ ٭

الفصل الثانى

الفتح العربى للعراق وإيران (1)

كان الفتح العربى للعراق وإيران فى الحقيقة أهم الأحداث فى تاريخ الشرق الأوسط لما ترتب عليه من نتائج بعيدة الأثر فى تاريخ هذا الشرق وحضارته، فقد اختفت الدولة الساسانية التى كانت تلعب الدور الرئيسى منذ القرن الثالث الميلادى وكان وجود الدولة الساسانية يعد أهم ملامح تاريخ الشرق الأوسط .

ومن الغريب أن هذه الأحداث على أهميتها غامضة إلى أبعد الحدود ، فهى ما زالت فى حاجة إلى مزيد من البحث ، ولعل السبب فى هذا أن المصادر البيزنطية المعاصرة للفتح العربى لإيران لم تعن بتدوين أخبار هذا الفتح بسبب انشغال الدولة البيزنطية بأحداث الفتح العربى لأراضيها ، على حين نجد الكتب الفارسية قد ضاع أكثرها بعد انتهاء المقاومة . فلم يبق إلا أن ندرس هذه الأحداث من المصادر العربية ، علما بأن العرب دونوا هـــذه الأخبار بعد حوادث الفتح بفترة طويلة .

وأحداث فتح العراق وإيران تشبه من وجوه كثيرة أحداث الفتح العربى لبلاد الأندلس من حيث ارتباط الفتحين بطبيعة الإقليمين الجغرافية وأثر هذه الطبيعة فى أحداث الفتح واتجاهاته كما أن وجه الشبه يظهر أيضاً فى طول الفترة التى وقعت فيها الأحداث والتى تم فيها الفتح . فالمعروف أن الإمبراطورية الإيرانية كانت تتألف من أقاليم جغرافية ثلاثة : العراق العربى والعراق العجمى ـ الذى يقع بين دجلة والفرات ويمتد شرقا حتى سلسلة الجبال الإيرانية ـ والإقليم الثالث وهو الهضبة الإيرانية الصميمة التى تمتد من سلسلة جبال إيران حتى هضاب آسيا الوسطى .

---

(1) لدراسة الفتح العربى للعراق وإيران بالتفصيل .

انظر : البلاذرى . فتوح البلدان ص ٢٥٠ ـ ٤١٠ وشكرى فيصل : حركة الفتح الإسلامى ص ٣٢ ـ ٧٦ .

كل إقليم من هذه الأقاليم يمثل مرحلة من مراحل الفتح قائمة بذاتها لها اتجاهاتها ومقوماتها ، كما أن كل مرحلة منها ترتبط بمعركة شهيرة قررت مصير الإقليم ومكنت العرب والثقافة العربية فى التغلب والانتشار . ونضرب لذلك مثلا فنقول : إن إقليم العراق العربى تقرر مصيره بعد معركة الحيرة وإقليم العراق العجمى تقرر مصيره بعد القادسية والإقليم الأخير تقرر مصيره بعد معركة نهاوند . وسنحاول أن نعرض لأحداث الفتح فى كل مرحلة من هذه المراحل .

بدأت المرحلة الأولى بداية تختلف عن بداية الفتوح عادة ، ذلك أن بعض القبائل العربية المقيمة بأطراف العراق والتى كانت قد أحرزت نصراً على الفرس فى بعض المناوشات المحلية التى حدثت قبيل ظهور الإسلام . كانت ترقب الأحداث الكبيرة التى جرت فى شبه جزيرة العرب ، فكانت ترقب حركة الردة وتوفيق المسلمين فى القضاء عليها ، وكانت تعجب لمسلك الدولة الجديدة من هذه الأحداث وتعجب بصفة خاصة بالانتصارات التى أحرزها خالد بن الوليد فى محاربة المرتدين .

ولهذا نرى هذه القبائل تكتب إلى الخليفة وتطلب الإذن ببداية الفتوح . وربما كان طلبها ذلك رغبة منها فى أن تنساق مع الحركة الدافقة وأن تستفيد منها ، أو ربما رغبة منها فى تأكيد اعتناقها الإسلام بالمشاركة فى الجهاد .

لهذا كتب المثنى بن حارثة الشيبانى إلى الخليفة أبى بكر يطلب أن يأذن له بفتح العراق(١) ، فأذن له وانضم إليه خالد بن الوليد فكانت البداية الأولى للفتوح العربية للعراق .

ومن غريب الأمر أن الدولة الساسانية لم تكن تعلم بأهمية هذه التطورات التى جرت على حدودها الغربية والتى كان مسرحها بلاد العرب . الدليل على ذلك

---

(١) انظر رواية البلاذرى عن المثنى بن حارثة ، قال :

« قدم المثنى على أبى بكر فقال له يا خليفة رسول الله استعملنى على من أسلم من قومى أقاتل هذه الأعاجم من أهل فارس فكتب له أبو بكر فى ذلك عهداً ، وكان مذعور بن عدى العجلى قد كتب إلى أبى بكر أيضاً يعلمه حاله وحال قومه ويسأله توليته قتال الفرس ، وكذلك فعل سويد بن قطبة الذهلى من بكر بن وائل ومعه جماعة من قومه » الفتوح ص ٢٥٠ — ٢٥١

أنها واجهت التقدم العربي بنفس الأسلوب القديم الذي كانت تواجه به الغزاة العرب قبل الإسلام . إذ عهدت إلى الحاميات المحلية وبعض العرب المرتزقة بدفع هذا الغزو . وانتهى الأمر بأن دخل العرب مدينة الحيرة . وكان نصر العرب عند الحيرة هو الذي قرر مصير العراق العربي . والسبب أن فتح الحيرة تم بعد معاهدة معروفة تسمى معاهدة الحيرة(١) ، وهي تشبه المعاهدات المألوفة من حيث ضمانها لحرية العقيدة وحرمة النفس والمال ، وتنظيمها لوضع أهل الذمة ، فكانت هذه المعاهدة ذات أثر عظيم في نفوس الطبقات الفقيرة من سكان العراق العربي والعراق العجمي . بل كان فتح الحيرة نموذجا للفتوح العربية التي شهدتها إيران فيما بعد . وأصبحت الحيرة بعد فتحها قاعدة عربية كبرى تتركز فيها الإمدادات والقوات لإتمام المراحل الأخرى (٢)

أما المرحلة الثانية وهي فتح العراق العجمي فتتمثل فيها المقاومة الحقيقية للإمبراطورية الإيرانية مستخدمة أسلحتها كلها، إذ يبدو أن الإيرانيين - خصوصاً بعد فتح الحيرة - اعتقدوا أن الفتح العربي ليس غارات تغير ثم تعود إنما هي أهداف تريد أن تنطلق . وكان على الدولة اعتماداً على تراثها القديم أن تركز الجهود لتلقين العرب درساً ، فكان أن قامت بحشد قواتها كلها وإلقاء هذه القوات في معركة فاصلة(٣). وكانت الدولة الساسانية قد نعمت ببعض الاستقرار الداخلي الذي تمثل في تولي يزدجرد والتفاف الناس حوله وتباري الرؤساء في طاعته ومعونته.

---

(١) لخص البلاذري بعض نصوصها على هذا النحو .

« فصالحوا (خالداً) على مائة ألف درهم ويقال على ثمانين ألف درهم في كل عام وعلى أن يكونوا عيونا للمسلمين على أهل فارس وأن لا يهدم لهم بيعة ولا قصراً وأن لا يبنوا المسلمين غائله . . . فكان الذي أخذ منهم أول مال حمل إلى المدينة من العراق »

انظر . البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٥٢

(٢) شكري فيصل ، حركة الفتح الاسلامي في القرن الأول ص ٤٤ و٦٣

(٣) يتمثل عنف المقاومة الفارسية في حملة أبي عبيد بن عمرو الثقفي في مستهل خلافة عمر في معركة الجسر وقتل فيها أبو عبيد ثم قتل أخوه الحكم واستشهد كثيرون من المسلمين . وبلغ من كثرة الخسائر أن الخليفة عمر مكث سنة لا يذكر العراق ، وأنه كان يدعو الناس إلى العراق فيتحامونه ويتثاقلون عنه حتى هم أن يغزو بنفسه .

كما عمدت الدولة إلى التجنيد العام الشامل ووزعت الفرق فى كل أنحاء الأرض التى احتلها العرب . وفى نفس الوقت أثاروا السكان وألبوهم على المسلمين حتى نقضوا العهود والمواثيق(١).

ويبدو أن العرب من ناحيتهم لم يكونوا أقل إدراكا لقيمة هذا الصراع وأثره فى تقرير مصير الإســـلام . وكان عمر فى ذلك الوقت قد تولى الخلافة ، واتخذ المسلمون خطوات بعيدة الأثر .

ويتمثل موقف المسلمين فى كتاب عمر إلى سعد وفى وصية المثنى لسعد بن أبى وقاص . ويستفاد من كتاب عمر من ناحية ومن وصية المثنى من ناحية أخرى أن المسلمين واجهوا الخطة الفارسية بالإجراءات الآتية :

الانسحاب وخروج المثنى والقواد الآخرين بحامياتهم من الأرض التى احتلوها ، ثم التراجع والتفرق فى المياه التى تلى الأعاجم على حدود الأرض العربية والأرض الفارسية . فنزل المثنى فى ذى قار ونزل الناس الطف . ومقابلة تجنيد الفرس العام بتجنيد عربى عام فالمثنى استنفر الناس وكتب عمر إلى عماله على الكور والقبائل أن لا يدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبوه ووجهوه إلى المدينة(٢).

فكانت المعركة الشهيرة معركة القادسية التى تمثل الصراع الحقيقى بين الدولة الساسانية وبين المسلمين ، ويتمثل فيها عنف المقاومة من ناحية الفرس ثم عمق الإيمان من ناحية العرب ، واستمرت ثلاثة أيام انتهت بنصر حاسم كان أشبه بالمعجزات(٣).

والمعارك الحاسمة فى تاريخ البشرية يتريث المؤرخون عندها قليلا ليبينوا آثرها فى سير الأحداث . وممن درس آثار القادسية فى تاريخ الشرق الأوسط المؤرخ الفرنسى Grousset إذ يقول « إن هذه المعركة أثبتت أن الدولة الساسانية

---

(١) شكرى فيصل حركة الفكر الإسلامى ص ٥٦ .

(٢) شكرى فيصل ٥٦ — ٥٧ .

(٣) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٦٤ — ٢٧١ كريستنسن ص ٤٨٣

كانت قد فسدت أمورها وتعفنت نظمها بدليل أنها جمعت أسلحتها كلها لخوض معركة فاصلة . ولم يكن للعرب من سلاح غير الإيمان . وفى هذه المعركة الفاصلة سقط علم أردشير فى يد الفاتحين العرب وانتصرت الجمهـــورية الفتية على الإمبراطورية العتيقة » .

وكما قررت الحيرة وما تلاهـا من وقائع مصير العراق العربى فإن موقعة القادسية قررت مصير العراق العجمى ، إذ أن الفرس كفوا من المقاومة فى هذه المنطقة وأسلموها غنيمة للعرب الذين انفتحت أمامهم سهول العراق ؛ بدليل أن العرب دخلوا العاصمة المدائن دون مقاومة . والبلاذرى(١) يعطينا صورة طريفة عن اللقاء الأول بين العرب البدو ، وبين حضارة مترفة حين دخلوا قصور آل ساسان ورأوا ما فيها من تحف ، وما فيها من فن . على كل حال استطاع العرب أن يسيطروا على هذا الإقليم كله .

والمرحلة الثالثة وهى فتح إيران تتمثل فيها المقاومة الحقيقية للفتح العربى فقد تم فيها اللقاء الحقيقى بين العنصر العربى والعنصر الإيرانى ، بين الثقافة العربية والثقافة الإيرانية . وتمكن العرب من مهاجمة قلب الأمة الإيرانية ومهاجمة إيران نفسها ، لأن العراق بقسميه كان ولاية خاضعة للنفوذ الفارسى . وهنا نجد وجهاً للاختلاف بين التقاء العرب فى هذه المرحلة الإيرانية وبين التقائهم بالبيزنطيين ، فالعرب لم يفلحوا فى اختراق قلب المقاومة البيزنطية فبقيت آسيـــا الصغرى صامدة حتى مجىء السلاجقة .

وفى هذه المرحلة أيضاً تم التقاء العرب بالطبيعة الإيرانية الخاصة ـ الطبيعة الجبلية والهضبية ـ واضطر العرب إلى القتال فى أجواء تختلف عما ألفوه . وبدا واضحاً أن الدولة الساسانية حاولت الإفادة من هذه الطبيعة بقدر المستطاع . فقد تحسنت المقاومة الساسانية عند سفح الهضبة أو عند سفح الجبال فى معركة جلولاء . وكان الأعاجم «قد تحصنوا وخندقوا وجعلوا عمالهم وثقلهم بخانقين ، وتعاهدوا ألا يفروا وجعلت الإمداد تقدم عليهم من حلوان والجبال . . . فاقتتلوا قتالا

---

(١) البلاذرى ص ٢٧٢ — ٢٧٣

شديداً لم يقتتلوا مثله، رمياً بالنبل وطعناً بالرماح، حتى تقصفت وتجالدوا بالسيوف حتى انثنت ... »(١)

وكان انتصار العرب فى هذه المعركة يحمل أكثر من معنى ، إذ أن معناه أن الفتح العربى لن يعبأ بطبيعة جغرافية ، إنما هو مد يريد أن ينطلق مهما تكن النتائج . ومعناه صدق ما ذكرنا من سوء الأحوال فى الدولة وأن قليلا من المقاومة الناجحة كان كفيلا باستخدام الطبيعة فى صد الفتح العربى .

ثم مضى العرب فى نصرهم، ومضى الساسانيون فى هزائمهم، حتى كانت معركة نهاوند التى استطاع العرب فيها أن يقضوا على المقاومة الساسانية قضاء تاما وأن يوغلوا فى صميم الوطن الإيرانى وقلب الهضبة الإيرانية .

وقد كان الزحف العربى من الحيرة حتى نهاوند زحفاً غير منظم حقق نصراً للعرب ، تعقبوا بعده العدو المهزوم الذى ولى الأدبار . وكان واضحاً أن نجاح الفتح العربى كان يتوقف على أن يتحول العرب من هذا الفتح الاندفاعى إلى الفتح المنظم الذى يعتمد على خطة مرسومة وعلى ملاءمة حقيقية بين الفتح وبين الطبيعة الجغرافية . وفعلا بدأ الفتح العربى بعد هذه المعركة الفاصلة يسير وفقاً للخطط المدروسة ، ويمتاز بطابع التنظيم والملاءمة بين التوسع وبين الحقائق الجغرافية . وكان تنظيم الفتح على هذا النحو من أهم الأسباب التى عملت على نجاح التوغل العربى فى الوطن الإيرانى كله .

ويمكننا أن نقول أن من أساليب هذا التنظيم الجديد إنشاء البصرة (٢) والكوفة(٣) واتخاذهما معسكرين الغرض منهما أن تحشد فيهما القوات العربية وتخرج منها لتنفيذ أهداف مرسومة واضحة .

وإذا تأملنا فى تطور الزحف العربى بعد إنشاء البصرة والكوفة نستطيع أن نقول أن هذا الفتح كان على شكل (كماشة كبرى) يمضى الجزء الشمالى منها

---

(١) البلاذرى ص ٢٧٣
(٢) البلاذرى ص ٣٠٤
(٣) البلاذرى ص ٣٨٤

يخترق شمال إيران . وفعلا استطاع العرب أن يستولوا على منطقة خراسان بل وصل الزحف العربي إلى حدود أفغانستان فى عهد عثمان بن عفان . والطرف الجنوبي من حركة الزحف كان يخترق إيران الجنوبية ويتجه نحو الشرق ووصل هذا الزحف فعلا حتى حدود السند .

وقد حاولت بقايا الأسرة الساسانية أن تعتصم ببلاد الصين وأن تعتمد على الصين فى استعادة الأراضى التى فتحها العرب ، لكن هذه الحركة لم تحقق الأغراض المرجوة منها ، واستسلم الإيرانيون للفتح .

إتمام فتح إيران كلها : الرى — طبرستان — قزوين — أذربيجان

كانت الكوفة والبصرة هما القاعدتان العربيتان للتوسع الكبير فى إيران وإنهاء المقاومة الفارسية . وبدأت القوات العربية المنحدرة من هاتين القاعدتين تجرؤ على التوغل فى المناطق الجبلية الشمالية . وأول من اضطلع بهذه المهمة الشاقة من قواد عصر الفتح عروة بن زيد الطائى (١) الذى فتح مدينتى الرى وقوس ، واحتك للمرة الأولى فى تاريخ الإسلام بجموع الديلم ، هؤلاء الديلم الذين سيطفون على سطح الحياة الإسلامية فى عهد بنى بويه .

وقد قاوم الديلم العرب مقاومة باسلة وكبدوهم خسائر كبيرة ولكنهم أذعنوا للحكم العربي آخر الأمر .

وتوالت البعوث العربية من القواعد العربية إلى هذه الجهات حتى صالحت على الجزية « ولا يهدم لهم بيت نار » . ويبدو أن الديلم الذين نعموا بالاستقلال طوال الحكم الساسانى ، لم يسلس قيادهم للعرب مرة واحدة فقد أعلنوا الثورة المرة فى إثر الأخرى سنة ٢٥ ﻫ وأخضعوا من جديد ثم عاودوا الثورة فى عهد معاوية حتى استقام أمرهم للإسلام نهائياً .

وحركة الفتح العربي لم تقف عند هذا الفتح ، فقد امتدت إلى منطقة بحر قزوين ذاتها . وكان فتح منطقة قزوين من قاعدة الكوفة أيضاً . ذلك أن

---

(١) البلاذرى ص ٣٢٥

المغيرة بن شعبة عهد إلى البراء بن عازب (١) بإتمام هـذه المهمة الشاقة فاستولوا على حصن أبهر ثم هاجم قزوين .

ومن الغريب أن الديلم وقفوا من هذه المعركة العنيفة وقفة المتفرج ، وقفوا على الحياد دون أن ينحازوا إلى أى الطرفين (٢) . ويبدو أن وقوف الديلم على الحياد فى هذه المعركة الحاسمة كان سبباً فى انتصار العرب . وقد قدر العرب للديلم هذا الصنيع فعوملوا معاملة المسلمين ، أظهروا الإسلام ونزلوا على كل ما نزل عليه أساورة البصرة من الإسلام (٣) . وتحولت أرضهم من أرض خراجية إلى أرض عشرية (٤) .

وقد تابع العرب التقدم فاستولوا على جيلان وزنجان . بل امتـد الزحف العربى إلى أذربيجان باستيلائهم على مدينة أردبيل . ويبدو أن أهل اذربيجان عاهدوا العرب وصالحوهم . « ثم إن المرزبان صالح حذيفة بن اليمان عن جميع أهل أذربيجان على ثمانية آلاف درهم على أن لا يقتل منهم أحداً ولا يسبيه ولا يهدم بيت نار » . وتولى هـذه المنطقة الوعرة ولاة من العرب نذكر منهم حذيفة بن اليمان وعقبة بن فرقد السلمى (٥) .

وقد عاود أهل أذربيجان الثورة فى عهد الخليفة عثمان فحاربهم العرب مرة أخرى (٦) . واستقاموا على الطاعة طوال أيام عثمان . وفى خلافة على بن أبى طالب ولى هذه البلاد سعيد بن سارية الخزاعى حيناً والأشعث بن قيس الكندى حيناً آخر (٧) .

وكان الفتح العربى مقدمة لهجرات عربية إلى هـــذه البلاد البعيدة . فقد

---

(١) البلاذرى ص ٣٢٦ ، ٣٢٩
(٢) البلاذرى ص ٣٢٩
(٣) البلاذرى ص ٣٢٩
(٤) البلاذرى ص ٣٣٤
(٥) البلاذرى ص ٣٣٤
(٦) البلاذرى ص ٣٣٥
(٧) نفس المصدر والصفحة

هاجرت قبائل عربية إلى أذربيجان وأقامت بها وشاركت مشاركة فعلية فى الدعوة إلى الإسلام (١) . ويبدو أن الحركة الإسلامية فى أذربيجان كانت قد قطعت شوطاً بعيداً فى أيام على بن أبى طالب، إذ يستفاد من رواية البلاذرى أن أكثرهم أسلموا وقرأوا القرآن . وأن الخليفة أنزل أردبيل جماعة من أهل العطاء والديوان من العرب ومصرها وبنى مسجدها (٢) .

وفى أذربيجان اتصل العرب بجماعات الأكراد كما اتصلوا بالخزريين والديلم فى قزوين . وقد اتجه العرب إلى فتح جميع معاقل الأكراد فى منطقة أذربيجان وأرمينية وأذعنت قبائل الأكراد جميعها (٣).

ومما ساعد على تثبيت هذا النصر العربى تمصير مدينة الموصل(٤) إذ مصرها هرثمة بن عرفجة البارق ، والتمصير هنا معناه اختطاط الخطط وإسكان القبائل وإنشاء المسجد الجامع ودار الإمارة (٥) . وأصبحت مدينة الموصل منذ ذلك الوقت قلعة عربية تسيطر على مواطن الأكراد وتضمن استمرار ولائهم للدولة العربية .

ويبدو أن العرب فى العصر الأموى جعلوا منطقة أذربيجان وأرمينية والموصل والجزيرة ولاية واحدة، تولاها أحياناً محمد بن مروان بن الحكم وأحياناً أخرى سعيد بن عبد الملك بن مروان (٦).

والعرب فى هجومهم على إيران لم يتخذوا البر وحده سبيلا إليها إذ يكشف

---

(١) البلاذرى ص ٣٣٧

(٢) البلاذرى ص ٣٣٧

(٣) البلاذرى ص ٣٣٩

(٤) قال البلاذرى (ص ٣٣٩) .

« وحدثنى العباس بن هشام الكلبى عن أبيه عن جده قال . أول من اختط الموصل وأسكنها العرب ومصرها هرثمة بن عرفجة البارق »

(٥) البلاذرى ص ٣٤١

(٦) البلاذرى ص ٣٤٠

البلاذرى عن محاولة جريئة فى تاريخ الفتح العربى، وذلك بغزو إيران عن طريق البحر. وقد تكللت هذه الجهود بالنجاح فى عهد عمر بن الخطاب ، ذلك أن العلاء ابن الحضرمى عامل عمر على البحرين وعمان استطاع أن يتم سيطرة العرب على الخليج ، وقام بإعداد حملة بحرية قادها الحكم بن أبى العاص وشحنت السفن بالمقاتلة من قبائل عبد القيس والأزد وتميم ، وقد تم لهم الاستيلاء على ساحل إيران الجنوبى وبذلك طوقت إيران من البر والبحر فى وقت واحد (١)

بهذه الحملات المتتابعة أتم العرب فتح إيران وأخضعوا جميع شعوبها من الفرس والديلم والأكراد والأرمن والخزر .

وإذا كان الفتح العربى نجح فى إخضاع إيران على هذا النحو فإن تثبيت هذا الفتح والمحافظة عليه كان أبلغ أثراً من حوادث الفتح نفسها . ونستطيع أن نقول أن الأمويين هم الذين نجحوا فى المحافظة على هذه المكاسب وتثبيت النفوذ العربى فى إيران .

ذلك أنه بعد الفتنة التى أعقبت مقتل عثمان وضح أن العرب قد يفقدون ما فتحوه . فقد انتشرت الفتن بين القبائل العربية التى دخلت البلاد بعد الفتح مباشرة . كما أن أهل الذمة من الإيرانيين انتهزوا الفرصة لنقض المعاهدات التى عقدها العرب معهم ، هذه المعاهدات التى أتاحت لهم الحماية ومنحتهم الحريات الدينية والمدنية لقاء دفع الجزية .

وقد سادت إيران فى عصر الفتنة ظاهرة خروج أهل الذمة على النفوذ

---

(١) انظر البلاذرى ص ٣٩٣ — ٣٩٥

ولأهمية النص نلخصه كما يلى : كان العلاء بن الحضرمى عامل عمر بن الخطاب على البحرين وقد وجه هرثمة بن عرفجة البارق من الأزد ففتح جزيرة فى البحر مما يلى فارس . ثم كتب عمر إلى العلاء أن يمد به عقبة بن فرقد السلمى . ثم ولى عمر عثمان ابن أبى العاص الثقفى البحرين وعمان فدوخهما واتسقت له طاعة أهلهما . ووجه أخاه الحكم بن أبى العاص فى البحر إلى فارس فى جيش عظيم . ونزل توج وفتحها . ولما أحس الفرس بهذا التهديد البحرى اشتبكوا مع المسلمين عند رامشهر (حزمشهر) فهزم الفرس وثبتت أقدام العرب فى جنوب فارس . والبلاذرى يشبه هذا النصر البحرى بنصر القادسية .

العربى والتى تسمى «ظاهرة كسر الخراج» أو الخروج على السيادة العربية. كما بدأ الأمراء الترك فيما وراء النهر يستعيدون نفوذهم مرة أخرى.

وكان ظهور الأمويين من أهم الأسباب التى عملت على المحافظة على الوحدة الإسلامية والإبقاء على الفتوح العربية، وهم أصحاب الفضل فى «التنظيم الثغرى»، إذ استطاعوا أن ينظموا الحدود تنظيما ثغريا. والتنظيم الثغرى متأثر إلى حد كبير بالنظام البيزنطى فى حماية الحدود، وأساسه أن تنشأ سلسلة من الحصون على الحدود، يركز فيها المقاتلة والجنود والمجاهدون والمرابطون وتحشد المؤن والذخائر، وتقوم الحصون الثغرية بسلسلة من الغارات الموسمية إما فى الشتاء وإما فى الصيف. وهذه الغارات الغرض منها قبل كل شىء تثبيت خط الحدود والدفاع عنه. وكانت هذه السياسة الثغرية تتضمن أيضاً توطين العرب المهاجرين فى مناطق الحدود وجعل هؤلاء المستوطنين أساساً للسياسة الدفاعية.

وكان هذا التنظيم الثغرى يساعد فى وقت الضعف على حماية الحدود من إغارات العدو. كما أنه كان فى وقت القوة مركزاً للوثوب أو قاعدة للهجوم إلى ما وراء الحدود. وقد استطاع الأمويون خاصة فى عهد زياد بن أبى سفيان وفى عهد المهلب أن يجعلوا منطقة خراسان ثغراً إسلامياً. كما جعلوا منطقة أذربيجان ثغراً إسلامياً، وكذلك منطقة كرمان. وبذلك استطاع الأمويون أن يتخذوا القواعد الثغرية أماكن للتوسع فى الجهات المحيطة بإيران.

بذلك تمكن العرب فى عهد الراشدين من فتح إيران وتمكن الأمويون من تثبيت هذا الفتح والمحافظة عليه.

ونعتقد أن الفتح وتثبيته كان من أهم الأحداث فى تاريخ الشرق إذ ذاك وليس السبب فى ذلك أن العرب استطاعوا أن يزيحوا الساسانيين من عالم الشرق الأوسط وأن يخلصوا المنطقة من النزاع التقليدى بين الإيرانيين والبيزنطيين، أو أن هذا الفتح وصل آسيا الوسطى بالبحر الأبيض المتوسط بصلة لم تنفصم طوال العصور الوسطى، إنما سبب هذه الأهمية أن هذا الفتح كان مقدمة لانتشار الإسلام فى إيران. ويرى نولدكه أن الفتح العربى أهم من الفتح المقدونى لأن

الهللينية لم تترك فى حياة إيران إلا آثاراً سرعان ما زالت، أما الفتح الإسلامى فإنه ترك فى البلاد آثاراً باقية . فللمرة الأولى منذ عهد الإسكندر الأكبر تتحد إيران وتركستان والسند فى ظل دولة واحدة هى الدولة الإسلامية . بل أتاح الفتح العربى للثقافة الإيرانية الإسلامية — كما سنرى — فرصا أوسع فى الانتشار ربما لم تتح لها من قبل ، فقد هاجر الإيرانيون إلى تركستان والسند ؛ كما هاجر العرب ونشروا لغتهم (١) .

(١) Barthold: Hist. des Turco d'Asia Centrale PP. 31—35.

الفصل الثالث

انتشار الإسلام في إيران

لكى نعرض لهذه الظاهرة - ظاهرة انتشار الإسلام - يجب أن يكون واضحاً أن هذا الانتشار ليس انتشاراً للعقيدة الإسلامية فحسب ، وليس مجرد صراع بين الإسلام وبين الديانات الإيرانية ، إنما هو انتشار ثقافى قبل كل شىء ، انتشار اللغة العربية وثقافتها ذات الطابع الدينى المعروف ، ثم هو تنظيم سياسى معين لأن الدخول فى الإسلام كان يعطى حق المواطنة ، فى الدولة الإسلامية ، ويتيح للمسلمين الإيرانيين أن يشتركوا فى النشاط السياسى للأمة . ثم هو أيضاً يمثل نشاطاً اقتصادياً ، لأن العرب جلبوا معهم نظريتهم فى الضرائب والملكية وسبل الإنتاج الزراعى وغيره من وجوه الإنتاج ، ثم هو فى الوقت عينـــه تطور اجتماعي ، فهو تغير فى نظام الأسرة وفى حياة المدينة وفى التركيب الطبقى .

وهذا الوجه من تاريخنا الإسلامى لم يدرس بعد الدراسة الكافية ، فالمؤرخون المحدثون كانت عنايتهم أشد بالأحداث السياسية أو بمعالم النهضة الفكرية أكثر من العناية بالكشف عن جذور هذا التطور العميق . وكل ما نعرفه هو أن هذا التطور وصل إلى نتيجة واضحة منذ القرن الثانى الهجرى فصاعداً : حينما صار وجه إيران إسلامياً خالصاً . ثم تتابعت انتصارات الفرس السياسية حتى أصبح لهم التوجيه الأكبر فى الحياة الإسلامية كلها فى عهد بنى بويه ، كما وضحت آثار الحضارة الساسانية فى الحضارة الإسلامية : فى العقائد والثقافة والنظم والفن .

ودراسة انتشار الإسلام فى إيران تتطلب توضيح النواحى الآتية :

١ — العوامل التى مكنت الإسلام من النجاح والانتشار .

٢ ـ تطورات الحركة الإسلاميـــة أو بمعنى آخر تتبع حركات دخول الإيرانيين فى الإسلام .

* * *

١ ـ العوامل التى مكنت الاسلام من الانتشار

نعتقد أن أهم هذه العوامل هو ما يمكن أن نسميه بالسياسة العامة للدولة الإسلامية فى إيران . هذه السياسة التى وضعت أصولها زمن الفتح أو بعده بقليل .

وكانت هذه السياسة تتألف من أركان كثيرة ، أهمها معاملة أهل الذمة ، لأن هذه المعاملة كانت من أهم الأسباب التى هيأت الذميين نفسياً لتقبل الدعوة إلى الإسلام والإقبال على الحضارة العربية .

والمعروف أن سياسة الدولة العربية كانت تنبع من المعاهدات وعقود الصلح التى عقدت مع المدن المفتوحة . ولأهمية هذه المعاهدات رأيت أن أجمع نصوصها على النحو التالى :

١ ـ معاهدة الحيرة(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عاهدعليه خالدبن الوليدعديا وعمرا ابنىعدى ،وعمرو بنعبدالمسيح، وإياس بن قبيصة ، وحيرى بن أكاو . ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به :

عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم تقبل فى كل سنة جزاء عن أيديهم فى الدنيا ،رهبانهم وقسيسهم، إلا من كان منهم علىغير ذى يد حبيساعنالدنيا تاركا لها ـــ وعلى المنعة . فإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم . وإن غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة . وكتب فى ربيع الأول من سنة اثنى عشرة .

---

(١) البلاذرى ص ٢٥٢ ، محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٩٠

٢ ـ معاهدة خالد مع أهل بانقيا وباروسما وأليس[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

من خالد بن الوليد لابن صلوبا السوادى : إنك آمن بأمان الله إذ حقن دمه بإعطاء الجزية . وقد أعطيت عن نفسك وعن أهل جزيرتك . ومن كان فى قريتك بانقيا وباروسما ألف درهم فقبلتها منك . ورضى من معى من المسلمين بها منك . ولك ذمة الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم وذمة المسلمين عن ذلك . وشهد هشام بن الوليد .

٣ ـ كتاب خالد لبلاد عانات[2]

مر خالد ببلاد عانات فخرج إليه بطريقها فطلب الصلح فصلحه وأعطاه ما أراد :

على أن لا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة وعلى أن يضربوا نواقيسهم فى أى ساعة شاءوا من ليل أو نهار إلا فى أوقات الصلوات وعلى أن يخرجوا الصلبان فى أيام عيدهم .

٤ ـ معاهدة خالد مع أهل البهقباذ[3]

بسم الله الرحمن الرحيم .

هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاد بن بهيش وصلوبا ابن نسطونا :

إن لكم الذمة وعليكم الجزية ، وأنت ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل البهقباذ الأسفل والأوسط ، على ألفى ألف تقبل فى كل سنة ، ثم كل ذى يد، سوى ما على بانقيا وبسما . وإنكم قد أرضيتمونى والمسلمين. وإنا قد أرضيناكم وأهل البهقباذ الأوسط على أموالكم ، ليس فيها ما كان لآل كسرى ومن مال ميلهم .

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية (وثيقة ٢٩٢)

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٢ وثيقة ٢٩٧

(٣) مجموعة الوثائق السياسية (وثيقة ٢٠١) ص ٢٩٩ — ٣٠٠

شهد هشام بن الوليد ، والقعقاع بن عمرو وجرير بن عبد الله الحميرى ، وبشير بن عبيد الله بن الخصاصية وحنظلة بن الربيع (وكتب سنة اثنى عشرة فى صفر) .

٥ — معاهدة النعمان مع أهل ماء بهراذان (١)

أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأراضيهم . لا يغيرون عن ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ، ولهم المنعة ماأدوا الجزية فى كل سنة إلى من واليهم . على كل حالم فى ماله ونفسه ، على قدر طاقته ؛ وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وقروا جنود المسلمين ممن مربهم فآوى إليهم يوما وليلة ووفوا ونصحوا . فإن غشوا وبدلوا فذمتنا منهم بريئة .

شهد عبد الله بن ذى السهمين والقعقاع بن عمرو وجرير بن عبد الله (وكتب فى المحرم سنة ١٩ هـ) .

٦ — معاهدة حذيفة بن اليمان مع أهل ماه دينار(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى حذيفة بن اليمان أهل ماه دينار ، أعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وأراضيهم ، لا يغيرون عن ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم . ولهم المنعة ما أدوا الجزية فى كل سنة إلى من واليهم من المسلمين . على كل حالم فى ماله ونفسه على قدر طاقته ، وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وقروا جنود المسلمين من مر بهم فآوى إليهم يوما وليلة ونصحوا . فإن غشوا وبدلوا فذمتنا منهم بريئة .

شهد القعقاع بن عمرو ونعيم بن مقرن وسويد بن مقرن وكتب فى المحرم .

---

(١) مجموعة الوثائق « وثيقة ٣٣١ » ص ٣٢١ — ٣٢٢

(٢) مجموعة الوثائق السياسية « وثيقة ٣٣٢ » ص ٣٢٢

٧ – معاهدة اصفيان (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب من عبد الله للفاذ وحسفان وأهل أصبهان وحواليها : أنكم آمنون ما أديتم الجزية بقدر طاقتكم فى كل سنة تؤدونها إلى الذى ولى بلادكم عن كل حالم، ودلالة المسلم وإصلاح طريقه وقراه يوما وليلة وحملان الراجل إلى مرحلة لا تسلطوا على مسلم . وللمسلمين نصحكم وأداء ما عليكم . ولكم الأمان ما فعلتم فإذا غيرتم شيئاً أو غيره مغير منكم ولم تسلموه فلا أمان لكم . ومن سب مسلما بلغ منه فإن ضربه قتلناه ، وكتب وشهد عبد الله بن قيس وعبد الله بن ورقاء وعصمة بن عبد الله .

٨– معاهدة مع أهل الرى (٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى نعيم بن مقرن الزينبي بن قوله : أعطاه الأمان على أهل الرى ومن كان معهم من غيرهم على الجزاء ، وطاقة كل حالم فى كل سنة ، وعلى أن ينصحوا ويدلوا ولا يغلوا ولا يسلوا ، وعلى أن يقروا المسلمين يوما وليلة ، وعلى أن يفخموا المسلمين فمن سب مسلما أو استخف به نهك عقوبة . من ضربه قتل . ومن بدل منهم فلم يسلم برمته فقد غير جماعتكم .

٩ ـ معاهدة مع أهل دبناوند وغيرها(٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب نعيم بن مقرن لمروان شاه مصمغان دبناوند وأهل دبناوند والخوز واللارز والشرز :

---

(١) الوثائق السياسية « و ٣٣٣ » ص ٣٢٣

(٢) مجموعة الوثائق السياسية « وثيقة ٣٣٤ » ص ٣٧٤

(٣) الوثائق السياسية « وثيقة ٣٣٦ » ص ٣٢٤

إنك آمن ومن دخل معك على الكف ، أن تكف أهل أرضك وتتق من ولى الفرج بمائتى ألف درهم وزن سبعة فى كل سنة . لا يغار عليك ولا يدخل عليك إلا بإذن ، ما أقمت على ذلك حتى تغير . ومن غير فلا عهد له ولا لمن لم يسلمه .

١٠ ـ معاهدة أهل قومس [1]

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذا ما أعطى سويد بن مقرن أهل قومس ومن حشوا من الأمان على أنفسهم ومللهم وأموالهم ، على أن يؤدوا الجزية عن يد عن كل حالم بقدر طاقته وعلى أن ينصحوا ولا يغشوا . وعلى أن يدلوا . وعليهم نزل من نزل بهم من المسلمين يوما وليلة من أواسط طعامهم . وإن بدلوا واستخفوا بعهدهم فالذمة منهم بريئة .

١١ ـ معاهدة مع أهل جرجان [2]

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من سويد من مقرن لرزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان :

إن لكم الذمة وعلينا النعمة على أن عليكم من الجزاء من كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم . ومن استعنا به منكم فله جزاؤه فى معونته عوضا من جزائه . ولهم الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم . ولا يغير شيء من ذلك هو إليهم ما أدوا وإن شدوا ابن السبيل ، ونعموا ، وقروا المسلمين ولم يبد منهم سل ولا غل . ومن أقام فيهم فله مثل مالهم ، ومن خرج فهو آمن حتى يبلغ مأمنه . وعلى أن من سب مسلماً بلغ جهده . ومن ضربه حل دمه .

---

(١) المصدر السابق « وثيقة ٣٣٦ » ص ٣٢٥

(٢) مجموعة الوثائق السياسية « وثيقة ٣٣٧ » ص ٣٢٦

شهد سواد بن قطبة وهنــــد بن عمر وسماك بن مغرمة وعتيبة بن النهاس وكتب فى سنة ثمانى عشرة .

١٢ – معاهدة مع أهل طبرستان وجيلجيلان(١)

بسم الله الرحمن الرحيم :

هـذا كتاب من سويد بن مقرن للعزخان أصبهبذ خراسان على طبرستان وجيل جيلان من أهل العدو .

إنك آمن بأمان الله عز وجل على أن تكف اصوتك وأهل حواشى أرضك ولا تؤدى لنا بغية . وتتقى من ولى فرج أرضك بخمسماية ألف درهم من دراهم أرضك . فإذا فعلت ذلك فليس لأحد منا أن يغير عليك ولا يتطرق أرضك ولا يدخل عليك إلا بإذنك . سبيلنا عليكم بالإذن آمنة وكذلك سبيلكم . ولا تؤون لنا بغية ولا تسلون لنا إلى عدو ولا تغلون . فإن فعلتم فلا عهد بيننا وبينكم .

شهد سواد بن قطبة التميمى وهند بن عمر المرادى وسماك بن مخرمة الأسدى وسماك بن عبيد العبسى وعتيبة بن النهاس البكرى .

وكتب سنة ثمانى عشرة

١٣ – معاهدة مع أهل أرذبيجان(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

هـــذا ما أعطى عتبة بن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان . سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم ، الأمان على أنفسهم وأموالهم ومللهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم . ليس على صبى ولا امرأة ولا زمن ليس فى يديه من الدنيا شىء . لهم ذلك ولمن سكن منهم . وعليهم قرى المسلم من جنود المسلمين يوما وليلة ودلالته . ومن حشر

---

(١) الوثائق السياسية (وثيقة ٣٣٨) ص ٣٢٦ — ٣٢٧

(٢) مجموعة الوثائق السياسية (و ٣٣٩٠) ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨

منهم فى سنة وضع عنه جزاء تلك السنة . ومن أقام فله مثل مالمن أقام من ذلك. ومن خرج فله الأمان حتى يلجأ إلى حرزه . وكتب جندب وشـــهد بكير بن عبد الله الليثى وسماك بن خرشة الأنصارى ، وكتب فى ثمانى عشرة .

١٤ — معاهدة مع عظيم هراة (فى افغانستان)(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هــــذا ما أمر به عبد الله بن عامر عظيم هراة وبوشنج وباد غيس : أمره بتقوى ومناصحة المسلمين وإصلاح ما تحت يديه من الأرضين وصالحه عن هراة سهلها وجبلها على أن يؤدى الجزية ما صالحه عليه وأن يقسم ذلك على الأرضين عدلا بينهم فمن منع ما عليه فلا عهد له ولا ذمة .

وكتب ربيع بن نهشل وختم ابن عامر .

١٥ — كتاب الأحنف بن قيس الى مرزبان مرو الروذ(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

من صخر بن قيس أمير الجيوش إلى باذان مرزبان مروروذ ومن معه من الأساور والأعاجم :

سلام على من اتبع الهدى وآمن واتقى :

أما بعد ، فإن ابن أخيك ماهك قدم على فنصح لك جهده وأبلغ عنك . وقد عرضت ذلك على من معى من المسلمين ، وأنا وهم فيما عليك سواء . وقد أجبناك إلى ما سألت وعرضت على أن تؤدى من أكرتك وفلاحيك والأرضين ستين ألف درهم إلى ، وإلى الوالى من بعدى من أمراء المسلمين ، إلا ما كان من الأرضين التى ذكرت أن كسرى الظالم لنفسه أقطع جد أبيك لما كان من قتله الحية التى أفسدت الأرض وقطعت السبل . والأرض لله ولرسوله يورثها من يشاء من عبـاده .

---

(١) المصدر السابق « و ٣٤٣٠ » ص ٣٣١

(٢) مجموعة الوثائق السياسية و ٣٤٥ صفحات ٣٣٢-٣٣٣

وإن عليك نصرة المسلمين وقتال عدوهم بمن معك من الأساورة ، إن أحب المسلمون ذلك وأرادوه . وأن لك على ذلك نصرة المسلمين على من يقاتل من وراثك من أهل ملتك جار لك بذلك منى كتاب يكون لك بعدى . ولا خراج عليك ولا على أحد من أهل بيتك من ذوى الأرحام. وإن أنت أسلمت واتبعت الرسول كان لك من المسلمين العطاء والمنزلة والرزق وأنت أخوهم ولك بذلك ذمتى وذمة أبى وذمم المسلمين وذمم آبائهم .

شهد على ما فى هذا الكتاب جزء بن معاوية السعدى وحمزة بن الهرماس وحميد بن الخيار المازنيان وعياض بن ورقاء الأسيدى وكتب كيسان مولى بنى ثعلبة يوم الأحد من شهر المحرم .

١٦ ـ معاهدة مع أهل دبيل (فى أرمينيا)(١)

بسم الله الرحمن الرحيم .

من حبيب بن مسلمة لنصارى أهل دبيل ومجوسها ويهودها وشاهدهم وغائبهم :

إنى أمنتكم على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم فأنتم آمنون وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وفيتم وأديتم الجزية والخراج .

١٧ ـ كتاب أهل طفليس(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

من حبيب بن مسلمة إلى أهل طفليس :

سلم أنتم : فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد :

فإن رسولكم تغلى قدم على وعلى الذين آمنوا معى فذكر عنكم أنا كنا أمة ابتعثنا الله وكرمنا . وكذلك فعل الله بنا بعد ذلة وقلة وجاهلية جهلاء . فالحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم والسلام على رسوله وصلواته كما به هدينا . وذكر

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية (و . ٣٤٦) ص ٣٣٤ .

(٢) المصدر السابق (و ٠ ٣٤٧) ص ٣٣٤

عنكم تغلى أن قذف فى قلوب عدونا منا الرعب فلا حول بنا ولا قوة إلا بالله . وذكر أنكم أجبتم سلمنا فما كرهت ولا الذين آمنو معى ذلك من أمركم . وقدم على تغلى بهديتكم فقومتها والذين آمنوا معى عرضها ونقدها مائة دينار غير راتبة عليكم . ولكن على أهل كل بيت دينار واف جزية ولافدية . وكتبت لكم عند ملأ من المؤمنين كتاب شرطتكم وأمانكم . وبعثت به إليكم مع عبد الرحمن بن جزء السلمى وهو علمنا من أهل الرأى والعلم بأمر الله وكتابه . فإن أقررتم بما فيه دفعه إليكم وإن توليتم آذنكم بحرب من الله ورسوله والذين آمنوا على سواء . أن الله لا يحب الخائنين والسلام على من اتبع الهدى .

١٨ ـ نص المعاهدة مع أهل طفليس(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل طفليس — من أرض الهرمز — بالأمان لكم ولأولادكم ولأهاليكم وصوامعكم وبيعكم ودينكم وصلواتكم على إقرار بصغار بالجزية على أهل كل بيت نار واف . ليس لكم أن تجمعوا بين متفرق من الأهلات استصغاراً منكم للجزية . ولا لنا أن نفرق بين مجتمع استكثاراً منا للجزية .

ولنا نصيحتكم وضلعكم على عدو الله ورسوله والذين آمنوا فيما استطعتم وإقراء المسلم المجتاز ليلة بالمعروف من حلال الطعام أهل الكتاب وحلال شرابهم وإرشاد الطريق على غير ما يضربكم فيه . وإن قطع بأحد من المؤمنين عندكم فعليكم أداؤه إلى أدنى فئة من المؤمنين والمسلمين إلا أن يحال دونهم فإن تبتم وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة فإخواننا فى الدين ومن تولى عن الإيمان والإسلام والجزية فعدو لله ورسوله والذين آمنوا ، والله المستعان عليه . فإن عرض للمؤمنين شغل وقهركم عدوكم فغير مأخوذين بذلك ولا ناقض ذلك عهدكم بعد أن تفيئوا إلى المؤمنين والمسلمين . هذا عليكم وهذا لكم .

شهد الله وملائكته ورسله والذين آمنوا وكفى بالله شهيداً .

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية (و ٠ ٣٤٨) ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧

١٩ ـ معاهدة مع أهل موقان (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى بكير بن عبد الله أهـــل موقان من جبال القبج الأمان على أموالهم وأنفسهم وملتهم وشرائعهم على الجزاء دينار عن كل حالم أو قيمتـه والنصح ودلالة المسلم ونزله يومه وليلته . فلهم الأمان ما اقروا ونصحوا وعلينا الوفاء ، والله المستعان .

فإن تركوا ذلك واستبان عنهم غش ، فلا أمان لهم إلا أن يسلموا الغششة برمتهم ، وإلا فهم متمالئون .

شهد الشماخ بن ضرار والرسارس بن جنادب وحملة بن جويه وكتب سنة إحدى وعشرين .

٢٠ ـ معاهدة مع شهر باز وأهل أرمينيا (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى سراقة بن عمرو عامل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شهر براز وسكان أرمينية والأرمن من الأمان : أعطاهم أمانا لأنفسهم وأموالهم وملتهم ألا يضاروا ولا ينتقضوا وعلى أهل أرمينية والأبواب الطراء منهم والثناء ومن حولهم فدخل معهم أن ينفروا لـكل غارة وينفذوا لـكل أمر ناب أو لم ينب رآه الوالى صلاحا . على أن يوضع الجزاء عمن أجاب إلى ذلك إلا الحشر، والحشر عوض من جزائهم . ومن استغنى عنه منهم وتعدفعليه مثل ما على أهل آذربيجان من الجزاء . والدلالة والنزل يوما كاملا . فإن حشروا وضع ذلك عنهم وإن تركوا أخذوا به .

شهد عبد الرحمن بن ربيعة وسلمان بن ربيعة وبكير بن عبد الله وكتب مرضى ابن مقرن وشهد .

* * *

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية « و. ٣٥٠ » ص ٣٣٩

(٢) المصدر السابق (و. ٣٥١)ص ٣٣٩ـ٣٤٠

هذه المعاهدات التى ذكرت كلها تتجه اتجاها واحدا تقريبا وتنبع من مصدر واحد ، فقد تضمنت جميعها منح أهل الذمة من الإيرانيين حرياتهم الدينية ذلك أن المجوس عدوا من أهل الذمة ، فكانوا على قدم المساواة مع الديانات الأخرى(١) . وفوق هذا نالوا الحريات المدنية وتكفل المسلمون بحمايتهم وتوفير أسباب الطمأنينة لهم وذلك مقابل دفع الجزية التى كانت تتراوح كثرة وقلة حسب الغنى والفقر وكانت تعفى منها طبقات كبيرة من الناس .

كما منحت تلك العقود أهل الذمة حقوقا لم تكن متوفرة لهم من قبل وفضلا عن هذا تضمنت هذه السياسة استخدام الإيرانيين غير المسلمين فى وظائف الدولة خصوصاً الوظائف المالية لأن إيران كانت بها طبقة الدهاقين التى عرفت بمهارتها المالية ونبوغها فى أعمال الخراج ومعرفتها بالأسرار الإدارية والسياسية. وقد استخدم أفراد هذه الطبقة فى عهد الراشدين وكثر استخدامهم فى عهد بنى أمية، كما أبقى العرب على التنظيمات الإدارية فظلت سجلات الضرائب فى إيران تكتب بالفارسية ما يقرب من خمسين سنة(٢) . وظلت فى خراسان تكتب بالفارسية بعد الفتح بنحو مائة سنة . كما استخدم العرب العملة الفارسية نفسها ، فبقى الدرهم الفارسى بصوره القديمة أساساً للمعاملات المالية .

تلك هى روح السياسة العربية واتجاهاتها . وقد طبقت هذه السياسة نصاً وروحا فى عصر الخلفاء الراشدين (٣) . فقد كان عهد الراشدين هو عهد المثالية

---

(١) أخذت الجزية من مجوس هجر فى عهد الرسول ، قال البلاذرى « كتب رسول الله صلى الله عليه سلم إلى مجوس هجر يدعوهم إلى الإسلام ، فان أسلموا فلهم مالنا وعليهم ماعلينا . ومن أبى فعليه الجزية فى غير أكل لذبائحهم ولا نكاح لنسائهم » كما أشار إلى حديث عمر بعد نصر جلولاء إذ قال « ما أدرى كيف أصنع بالمجوس فوثب عبد الرحمن بن عوف فقال أشهد على رسول الله عليه وسلم أنه قال سنوا بهم سنة أهل الكتاب » .

البلاذرى ص ٨٧ ، ٧٦ . انظر كريستنسن ص ١٣٢

(٢) انظر ما ذكره البلاذرى عن نقل ديوان الفارسية صفحات ٣٠٨ — ٣٠٩ .

Legacy of Persia P. 64

(٣) شكرى فيصل ، المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول .

صفحات ٧٦ ، ٨١ ، ٩٩ ، ١١٤

الإسلامية وعهد الدعوة إلى الإسلام . بل هنالك من الشواهد ما يجعلنا نقرر أن العصر الأموى لم يحد كثيراً عن هذه المبادىء . وظل التسامح الدينى فى عهدهم وقتا طويلا وبقيت عقود الصلح دون أن تتغير . بل توسع الأمويون فى استخدام أهل الذمـــة فى وظائف الدولة . وكل ما يؤخذ عليهم اتجاههم إلى مضاعفة بعض الضرائب لاعتبارات تطلبتها ظروف عصرهم ومشاكله . وعهد عمر بن عبد العزيز كان عهداً إسلامياً مثالياً وكان له شأنه فى تطور الدعوة إلى الإسلام وقد حافظ العباسيون على هذه الروح بادئ بدئهم وكان العصر العباسى هو عصر النفوذ الفارسى على نطاق واسع .

وقد كان هذا التسامح الإسلامى ذا أثر كبير فى تهيئة أهل إيران نفسيا لاعتناق الإسلام ، فقد ترك العرب للإسلام الفرصة أن يلتقى التقاء سلميا ، بالديانات الأخرى ، وأتاح لهذه الديانات فرصة مقارنة ما فيها بما جاء به الإسلام / ولذلك نرى من الحق أن نقرر أن أغلب الفرس الذين استجابوا لنداء الإسلام كانت استجابتهم عن إيمان واعتقاد . والدليل على هذا أن طبقات المسلمين من أهل إيران هم الذين تولوا الدفاع عن الإسلام بعد أن تسلموا زمامه ، وقد دافعوا عنه كما دافع عنه العرب بحرارة وإخلاص (١)

كذلك كان الاعفاء من الجزية الذى قررته التقاليد الإسلامية أثر عظيم ، لأن الجزية فى إيران كان لها مفهوم غير مفهوم الجزية فى البلاد الأخرى ، فكانت الجزية فى مصر البيزنطية يفرضها شعب غالب على شعب مغلوب ، أما الجزية فى إيران فقد كانت نظاما يفرض على الساسانيين أنفسهم ، فكانت فرصة الإعفاء تجعل جماعات كثيرة من الفقراء تستجيب للحركة الإسلامية (٢) .

ونلاحظ مثلا فى عهد عبد الملك بن مروان وعامله الحجاج بن يوسف سخطا

---

(١) يذكر ليفى أن جماهير الشعب استمسكت بالإسلام وتعصبت له وأخلصت له كل الإخلاص وأن الردة إنما كانت قاصرة على طوائف من الأرستوقراطية الإيرانية القديمة .
Legacy of Persia P. 80

(٢) شكرى فيصل . المجتمعات الإسلامية ص ٧٦ ، ٨١

عظيما من المسلمين على محاولات الدولة الأموية إبقاء الجزية على من أسلم وشارك فى هذا السخط العرب ورجال الدين ، وانتهى الأمر بأن أعفوا من الجزية فى عهد عمر بن عبد العزيز . على كل حال كان عامل الجزية هذا من العوامل ذات الأثر الكبير فى تقرير موقف الفلاحين والعمال من الحكم الإسلامى .

ويمكننا أن نضيف إلى هذا كله موقف الدولة الإسلامية من موضوع الخراج وملكية الأرض ، فقد كان موقف الدولة فى هذه الناحية يمثل فى نظر الإيرانيين تطوراً بعيد المدى لأنه تضمن القضاء على الإقطاع الذى ساد فى العصر الساسانى وتحرير الملايين من الناس الذين كانوا يعيشون عبيداً للأرض وليس لهم شىء فيها إلا العمل الشاق المتواصل .

وقد قررت الحكومة الإسلامية مبدأ الحيازة والملكية لكافة الفلاحين الذين كانوا محرومين منها فكان هذا تطوراً بعيد المدى . وقد صحب ذلك فرض ضريبة الخراج التى كانت بالقياس إلى الضرائب القديمة خفيفة العبء(١) . وبديهى أن هذه الحقوق كانت تتضاعف بالدخول فى الإسلام ، فإذا أسلم الإيرانى استبدل بنظام الحيازة حق الملكية واستطاع أن يملك الأرض ويتصرف فيها بالبيع والشراء مقابل دفع ضريبة العشر .

وإلى جانب الخراج وملكية الأرض هنالك العطاء من بيت المال . فقد كان من المفروض أن من حق الإيرانيين إذا أسلموا أن يشتركوا فى الجيش وأن يفرض لهم العطاء ، وقد فرض للمسلمين منهم العطاء من بيت المال . وكان هذا العطاء فى عهد معاوية خمسة عشر درهما للفرد فى الشهر إلى جانب النفقات الأخرى . وكان هذا العطاء يتضاعف بمضى الوقت . وكان الاشتراك فى الجيش وفرض العطاء من أهم العوامل التى ساعدت على انتشار الإسلام .

ويجب أن نضيف إلى ما تقدم ما كان من المحافظة على النظم الإدارية والإبقاء

---

(١) إليك بعض التفاصيل التى وردت فى كتاب فتوح البلدان للبلاذرى «ص ٢٧٧ - ٢٨٠» وضع عمر على كل جريب عامر أو غامر يبلغه الماء درهما وقفيزا وعلى جريب الرطبة خمسة دراهم وعشرة أقفزة وعلى جريب الكرم عشرة دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم وعلى جريب البر أربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين وعلى جريب القطن خمسة دراهم .

على الموظفين من أهل البلاد . وقد تأثرت طبقة الموظفين بهـــذه السياسة فلما وجدت أنها تستطيع أن تحتفظ بوظائفها مع احتفاظها بدينها القديم ، أيقنت أن دخولها فى الإسلام سيضاعف من حقوقها ، وقد حدث هذا فعلا(١) . فكان إسلام هذه الطبقة يضاعف من حقوقها ويزيد من تمكنها من الناحية الإدارية .

ولم يكتف هؤلاء الناس بالدخول فى الإسلام إنما اتخذوا أسماء وألقابا عربية للمحافظة على أوضاعهم وزيادة حقوقهم . وقد ظنوا أن استعرابهم على هذا النحو قد يزيدهم اتصالا بالحكومة العربية فتزداد امتيازاتهم . ومن المؤكد أن هذه السياسة تسللت إلى نفوس الطبقة العليا من المجتمع فأسلم الكثيرون من أفراد الطبقة الأرستوقراطية واتخذوا أسماء عربية .

أما العامل الثانى فهو على ما نعتقد الفرق الواضح بين التشريع الإيرانى الرسمى الذى يتمثل فى الزردشتية التى لم تكن دينا فحسب إنما كانت تنظيما للحياة الاجتماعية والاقتصادية ، والتشريع الإسلامى وهو بدوره لم يكن تشريعا دينيا فحسب إنما كان تشريعا اجتماعيا واقتصاديا .

كانت الحياة الإيرانية تقوم على دعامتين : النسب والملكية ، فكان النبلاء تفصلهم عن عامة الشعب حدود محكمة لا يمكن تخطيها . كانوا يمتازون فى كل شىء « فى المركب والملبس والمسكن والبستان والخدم »(٢). وفى داخل الطبقة الواحدة تجد درجات اجتماعية متفاوتة ولكل فرد فيها مرتبته ومكانه المحدود . وقضت السياسة الإيرانية ألا يطمع أحد فى مرتبة أعلى من المرتبة التى يخولها له مولده . وكانت الشريعة تحفظ شرف النسب فى الأسرات كما تحفظ أملاك الأشراف . وكانت الأسرة المالكة يباح لأفرادها أن يصهروا إلى جميع الملوك الأجانب ولكنهم لا يزوجون بناتهم من غير أفراد أسرتهم . وكانت الأسرات الكبيرة يحفظ لها سجل خاص وكانت الدولة تعنى بحياتهم وتحول بين أفراد الشعب وبين شراء أملاكهم . حتى طبقات العامة كان هناك تمييز واضح بينها . وحرم على

---

(١) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٧٤

(٢) كريستنسن ص ٣٠٣

أفرادها أن يشتغلوا بغير الصناعة التي خلقوا لها(١) . أما الفلاحون فقد كانوا أسوأ حالا ، مرتبطين بالأرض يسخرون في فلاحتها ويساقون إلى الخدمة العسكرية . وكانوا أقرب إلى العبيد منهم إلى الأحرار لم توفر لهم القوانين الحماية التي وفرتها لبقية الطبقات .

وكانت أوضاع الجماعة الساسانية ينظمها قانون مدني واضح المعالم يقوم على الأوستا والزند(٢) . ومن هذه المصادر يتبين أن الأسرة عرفت تعدد الزوجات . وكانت الزوجة الرئيسية أرفع من الزوجة التي تليها مرتبة . وكانت هنالك الزوجات الخادمات من الرقيق أو السبايا . والمرأة الممتازة الحق في أن يكفلها زوجها مدى الحياة في حين أن الزوجة الخادمة لا يلحق من أبنائها بنسب الأسرة إلا الذكور . وقد ذكرت الكتب الفارسية الحديثة ستة أنواع من الزواج ، لهذا كان النصارى يأخذون على الزردشت سهولة الزواج ويسر الطلاق(٣) .

وقد أجاز القانون المدني الزواج بين المحارم : بين الأب والبنت والأم والابن والأخ والأخت . وقد أشار البطريق ماربها الذي عاصر كسرى الأول إلى هذه العادة الذميمة بقوله « إن العدالة العجيبة عند عباد أورمزد تقضي بأن يكون الرجل صلات شهوانية مع أمه وبنته وإخوته »(٤) .

والطفل يعهد بتربيته إلى أمه أو عند الضرورة إلى العمة أو الابنة البالغة وإذا لم يكن الولد باراً بأبيه انتقل ميراث الأب إلى أمه إذا ثبتت أهليتها (٥) . والأم تعلم ابنتها ، ولوالدها أن يزوجها لمن شاء ، فلم تكن تملك اختيار زوجها . ولم يأنف هذا القانون من أن يحمي الأطفال غير الشرعيين ، فقد أوجب أن تكون نفقتهم على جدهم لأمهم ، كما قضى أن تكون نفقة الأم على أبيها وأن

---

(١) كريستنسن ص ٣٠٦
(٢) « ص ٣٠٨
(٣) « ص ٣٠٩
(٤) « ص ٣٠٩
(٥) « ص ٣١٣

لا يضيع حقها فى الميراث(١) . بل أباحت الشريعة للزوج أن يتنازل عن زوجته أو إحدى زوجاته لرجل آخر أصابته الفاقة ليتكسب بعملها . أما الأطفال ثمرة هذا الزواج المؤقت فينسبون للزوج الأول ويعتبرون من أبنائه(٢) . فكأن المرأة قد أفقدها هذا القانون حريتها وأنزلها منزلة الرقيق . كما أباح هذا القانون زواج الأبدال . فإذا مات الرجل دون عقب زوجوا امرأته من أقرب عصبه بإسمه(٣) . وكان للتبنى أهمية خاصة عند الزردشت فإذا مات الرجل عن ثروة قام عليه ابنه بالتبنى . وقد اشترط القانون فى من يتخذ ابنا بالتبنى أن يكون بالغا زردشتيا ذكيا(٤) .

كما عرض القانون للميراث فأباح للزوجة الممتازة وأولادها أن يرثوا بالتساوى كما حرم الإرث على الزوجة الخادمة وأبنائها(٥) .

وقد ظلت هذه الشريعة متماسكة حتى آخر القرن الخامس حين زلزلتها المزدكية من أساسها . فلم تعد أمام الإسلام وشريعته تستطيع المقاومة أو الصمود . وأين ذلك كله من نزعة الإسلام نحو المساواة والقضاء على الطبقية وهى نزعة كانت أشد وضوحا زمن الفتح وزمن الراشدين . فلا غرابة إذا كان اتجاه التشريع الإسلامى هذا قد ترك أثراً نفسيا بعيد المدى فى طبقة العمال المدنيين وطبقة الفلاحين فكانوا أسرع الطبقات دخولا فى الإسلام . هذا إلى أن التشريع الإسلامى يعطى الأسرة مكانا واضحا فى الحياة الاجتماعية، ويعطى المرأة حقها الكامل فى النواحى المدنية والاجتماعية . ولا يعترف بالأبوة إلا على أساس النسب والدم ، وينظم الأسرة على أساس من الفضيلة والخلق القويم . وإذا كان التنظيم الاقتصادى فى التشريع الإيرانى قام على نظرية الاحتكار وإعطاء الحقوق الاقتصادية لطبقات معينة من المجتمع وحرمان غالبية الناس من حقها الطبيعى فى الحياة الاقتصادية،

---

(١) كريستنسن ص ٣١٤
(٢) « ص ٣١٥
(٣) « ص ٣١٦
(٤) « ص ٣١٧
(٥) « ص ٣١٨

فإن التشريع الإسلامي قوامه التكامل الاجتماعي والاقتصادي والمساواة بين كافة الطبقات دون تمييز طبقة على أخرى .

ــ ومن العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام الهجرات العربية إلى إيران واستقرار العرب في هذا الوطن الجديد . فقد كان أغلب هؤلاء المهاجرين من أهل العطاء والديوان وكانوا يؤمرون بدعوة الناس إلى الإسلام(١). وكانت القوات التي دخلت العراق في عهد أبي بكر وعمر وخاضت المعارك الكبرى حتى قضت على ملك الساسانيين واستقرت في البصرة والكوفة هي طليعة المهاجرين الأول الذين انساحوا في سهول إيران واستقربهم المقام في ريفها وحضرها على حد سواء وقد أمكننا مما رواه البلاذري والطبري أن نستخلص الحقائق الآتية :

كانت طلائع القوات التي دخلت العراق هي جيش خالد بن الوليد الذي كان يضم صفوة المسلمين والذي حارب المرتدين ثم انطلق من اليمامة متجها إلى العراق وكان صفوة المهاجرين والأنصار .

كانت تلك هي النواة الأولى لجيش العراق وقد أصابها بعض التغيير فقد أذن خالد بالعودة لمن أراد ،فعاد أهل المدينة وماحولها واضطر خالد أن يطلب المدد من أبي بكر، وكتب إلى الأمراء الأربعة : حرملة وسلمى والمثنى ومذعور باللحاق به فكانوا في ثمانية آلاف من ربيعة ومضر . وكان هو في ألفين معه فبلغ الجيش عشرة آلاف . ودعا عمر الناس للقتال مع المثنى وبدأت طبقات جديدة من المقاتلة تنضم إلى جيش العراق . كان البعث الأول من أهل المدينة وما حولها ألف رجل بقيادة أبي عبيد بن مسعود . وكان البعث الثاني من أهل الردة .

وبعد الجسر بذل عمر جهداً كبيراً في استنفار القبائل للقتال فخرجت الإمدادات الآتية : جرير بن عبد الله البجلي في قوم من بني بجيلة . عصمة بن

---

(١) كرستنسن ص ٣١٨ ، البلاذري ص ٣٣٦

عبد الله فيمن تبعه من بنى ضبة . نفر من أهل الردة . كنانة والأزد فى سبعماية . هلال بن علقة التيمى فيمن اجتمع إليه من الرباب . ابن المثنى الجشمى ومعه قوم من بنى سعد . عبد الله بن ذى السهمين فى قوم من خثعم . ربعى وابنه شبث فى أناس من بنى حنظلة . وربعى بن عامر بن خالد المعنود فى بنى عمرو . ابن الهوبر والمنذر بن حسان فى بنى ضبة . قرظ بن جماح فى عبد القيس . أنس بن هلال النمرى فى أناس من النمر . ابن مردى التغلبى فى بنى تغلب ، وبهذه الإمدادات تحقق نصر البويب .

أما بعوث القادسية فكان فيها سعد بن أبى وقاص على صدقات هوازن وألف من قيس عيلان عليهم بشر بن عبد الله وثلاثة آلاف ممن قدم عليه من اليمن والسراة . كما أمد عمر سعداً بعد خروجه بألف يمانى وألفى نجدى من غطفان وقيس . وانتخب سعد من بنى تميم والرباب أربعة آلاف . وكان المثنى فى ثمانية آلاف من ربيعة . كما قدم سعد الأشعث بن قيس فى ألف وسبعماية من اليمن . وقد بلغ جيش القادسية بضعة وثلاثين ألفاً .

وتوالت الإمدادات بعد القادسية فقـــدم هاشم بن عتبة ومعه قيس بن المكشوح المرادى فى سبعماية ، ثم تتابع أهل العراق من أصحاب الأيام مدداً لأهل القادسية .

تلك هى الطلائع الأولى التى انتشرت فى جميع أنحاء إيران وكانت النواة الأولى للمهاجرة الذين استقروا فيها بعد أن تحقق لهم النجاح العظيم .

وقد استمرت الهجرة العربية بعد عمر بن الخطاب ووضحت فى عهد عثمان . ويكفى أن نذكر أن الثورة التى أطاحت بعثمان جاءت من طبقة المقاتلة أو طبقة المهاجرين التى زادت زيادة كبرى فى عهد عثمان واستمر تيار الهجرة طوال العصر الأموى .

ففى عهد معاوية مثلا تمت هجرة الأزد الذين استقروا بخراسان واصبحوا عاملا هاما فى الحياة السياسية والاجتماعية هناك . وفى خراسان وحدها تجمع نحواً من مائتى ألف أسرة عربية . ولما فتح العرب أذربيجان وطنوا فيها فريقا

من العرب من أهل العطاء والديوان ، وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام[1] .
على كل حال اتجه الأمويون اتجاها واضحا إلى توطين العنصر العربى فى مختلف أنحاء إيران . ووضحت هـذه السياسة على الخصوص فى عهد ولاية الحجاج بن يوسف الثقفى ، وما كاد القرن الأول الهجرى ينتهى حتى انتشر العنصر العربى فى إيران كلها من الشرق إلى أقصى الغرب .

على أن الذى يعنينا من انتشار العنصر العربى هو التقارب التدريجى الذى حدث بين العنصرين : العربى والإيرانى . ومن الحق أن نقرر أن العرب فى عصر الخلفاء الراشدين كانوا منصرفين إلى الحرب والجهاد ، غير أن خطوات اتخذت لإيجاد تقارب العنصرين طوال العصر الأموى . ونستطيع أن نحدد ملامح هذا التقارب ووسائله والنتائج التى انتهى إليها ، فقد تم هذا التقارب فى المدينة والريف على حد سواء . ففى المدن القديمة مثل الرى وأصفهان مثلا كان العرب الوافدون ينزلون فى المواقع الاستراتيجية ويتعاونون مع أهل البلاد ويختلطون بهم بمضى الزمن .

أما فى المدن الجديدة التى أنشأها العرب فى العراق وإيران فرغم أن سكانها كانوا من العرب فإنها شهدت ظهور أحياء جديدة هاجر إليها المسلمون من الفرس ليعملوا فى خدمة الطبقة العربية ، خصوصا فى الأعمال اليدوية والمشروعات الصناعية . وكان عدد المهاجرين إلى المدن الجديدة يزداد باستمرار . وكان موضوع الهجرة هـذا من أهم المشاكل الاجتماعية التى عمل الأمويون على حلها .

وإلى جانب هذه المدن الجديدة والقديمة تم الاختلاط بين العرب والإيرانيين فى الإقطاعات الكبرى المنتشرة فى المناطق الريفية . وكانت وسيلة هذا الاختلاط بين طبقة العرب من ناحية وأهل البلاد هى الزواج ، فقد راجت ظاهرة الزواج بالكتابيات ثم ما لبثت الطبقة العربية الواحدة أن قلدت مظاهر الحياة الاجتماعية . فالقبائل التى استقرت بخراسان مثلا سرعان ما اتخذت السراويل لباساً لها

---

(١) البلاذرى ص ٣٣٦

واحتفلت بالأعياد الفارسية . وتعلمت بعض الألفاظ الفارسية ، ولم يقطعوا صلاتهم بأعراقهم فى البصرة أو الكوفة . ولم يكن من المستغرب أن تسمع اللغة الفارسية بين العرب الوافدين حتى إذا كانت الثورة العباسية كان عرب خراسان يتكلمون الفارسية بنفس الطلاقة التى يتكلمون بها العربية(١).

وفى معرض الحديث عن عوامل الاختلاط بين العنصرين العربى والإيرانى يجب أن نضيف أن طبيعة النضال بين العرب والفرس تولدت عنها نتائج هامة ساعدت على الامتزاج بين العنصرين . فقد كانت طبقة المقاتلة تحوز سبياً عظيماً بعد المعارك الكبرى . وقد نقل أغلب هذا السبى إلى الجزيرة وتقاسمته الأسر العربية الكبيرة لأن صغار الجند كانوا ينزلون عن نصيبهم من الأسرى لحاجتهم إلى المال . وهذا السيل من السبى لم يتدفق على المراكز العربية فى شبه الجزيرة فحسب بل امتد إلى المستقرات العربية فى الشام والعراق ولم يترك بيتاً إلا ودخل فيه .

ولعل مما يجعل هذا السبى عاملا من عوامل الاختلاط بين العرب والإيرانيين كثرة عدده فقد كان يفوق أعداد المقاتلة العرب فى الجيوش والمعسكرات وأنهم خالطوا العرب مخالطة عميقة عن طريق الزواج والولاء والتبنى والتسرى . وقد وجدوا فى الإسلام ما يمكنهم من التحرر وما يفتح أمامهم سبل الظهور .

ومن نتائج هذه الهجرات التى استقرت على النحو الذى بيناه وهذا السبى العظيم أن نشأت طبقة جديدة من المولدين آباؤهم عرب وأمهاتهم أعجميات . وقد ازداد عدد أفراد المولدين حتى أصبحوا عماد الحركة الإسلامية فى إيران .

٢ ـ تطور الحركة الاسلامية فى إيران

بعد أن عرضنا لعوامل انتشار الإسلام نريد أن نتتبع الحركة الإسلامية وتطوراتها المختلفة . والحقيقة أن موضوع تطور الحركة الإسلامية من أشد الموضوعات غموضا فى التاريخ الإسلامى بوجه عام وفى تاريخ إيران بخاصة نظراً لقلة المراجع التى تعرضت لهذا الموضوع .

---

(١) Legacy of Persia p 74

على كل حال نستطيع أن نقول أن من مظاهر هذه الحركة الإسلامية زيادة أعداد المسلمين وبداية اشتراكهم فى الحياة الإسلاميــــة ، ففى عصر الخلفاء الراشدين استجاب بعض عامة الفرس من هؤلاء الذين يسمون بالحمراء الإسلام كما استجاب فريق من طبقة الأساورة (الفرسان) ، فقد كتب سعد إلى عبدالله ابن المعتم وكان على الموصل يطلب إليه أن يستخلف على الموصل مسلماً ابن عبد الله الذى كان قد أسر يوم القادسية وأسلم عمن اسلم من الأساورة . بل استجاب قوم من أبناء البيوتات(١).

وبدأت الدولة تعتبر هؤلاء المسلمين الجدد مواطنين فى الدولة الإسلامية تمنحهم الثقة وتوليهم الوظائف . فقد كتب عمر إلى القعقاع بن عمرو أن خلف على الناس بجلولاء قباذ « فيمن تبعكم إلى من كان معه من الحمراء » . كما ولى مسلم ابن عبدالله على الموصل كما أسلفنا فضلا عما أبيح لهم من حق الملكية وما فرض لهم من عطاء وما أفرد لهم من خطط فى المدن الجديدة(٢) .

---

(١) أسلم جميل بن بصبهرى دهقان الفلاليج والنهرين وبسطام بن نرسى دهقـــان بابل وخطرنية والرفيل دهقان العال ، وفيروز دهقان نهـــر الملك وكوثى وغيرهم من الدهاقين فلم يعرض لهم عمر . ولم يخرج الأرض من أيديهم وأزال الجزية عن رقابهم . وكان مع رستم يوم القادسية أربعة آلاف يسمون جندشها نشاه فاستأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبوا ويحالفوا من أحبوا ويفرض لهم فى العطاء فأعطوا الذى سألوه وحالفوا زهـرة . وفرض لهم فى ألف ألف . وكان لهم نقيب منهم يقال له ديلم فقيل حمراء ديلم ، وكان سياه الأسوارى على مقدمة يزد جرد عبد الأهواز، فلما رأى ظهور الإسلام وعز أهله أرسل إلى أبى موسى الأشعرى يقول إنا قد أحببنا الدخول معكم فى دينكم على أن نقاتل عدوكم . . . على أن ننزل بحيث شئنا من البلدان ونكون ضمن شئنا منكم وعلى أن نلحق بشرف العطاء ويعقد لنا بذلك الأمير الذى بشكم . . فكتب أبو موسى بذلك إلى عمر فكتب إليه أن أعطهم جميع ما سألوا . وسار أبو موسى الى جند يسابور فطلب أهلها الأمان فصالحهم على أن لا يقتـــل منهم أحداً ولا يسبيه ولا يعرض لأموالهم سوى السلاح ،

انظر البلاذرى صفحات ٢٧٤ ، ٢٨٨ ، ٣١٤ ، ٣٨٠ ، ٣٨٩
وشكرى فيصل ص ١١٤ .

(٢) البلاذرى صفحات ٢٧١ ، ٢٩٨ ، ٢٨٠ ، ٣٨٩ وشكرى فيصـــل المجتمعات الإسلامية ص٩٩
Legacy of Persia ; Persia and the Arabs, p 61

وما كاد العصر الأموى يبدأ حتى كانت الحركة الإسلامية فى إيران قد قطعت شوطا واضحا نحو الظهور . ففى مدينة الكوفة قام الموالى المسلمون بأول ثورة سنة ٤٣ هـ فى عهد المغيرة بن شعبة(١)، واضطر معاوية إلى مواجهة هذه الظاهرة الجديدة فعمل على تهجير طبقات من الموالى وحملهم على الإقامة ببلاد الشام . وفى هـذا العصر نفسه وضحت الحركة الإسلامية فى ناحية أخرى هى اشتراك الموالى المسلمين فى الجيش فى عهد زياد بن أبى سفيان الذى كون فرقة من الفرس المسلمين بلغت نحواً من عشرين ألف مقاتل .

ومضت الحركة الإسلامية قدما بعد معاوية وزادت وضوحا فى عهد يزيد وبعد وفاة يزيد بقليل . والدليل على هذا مستمد من حوادث المجتمع الإيرانى فى عهد يزيد وخلفائه . ذلك أن المسلمين من الإيرانيين زادت أعدادهم زيادة واضحة وساءهم ما رأوه من تزايد امتيازات العرب فى جميع النواحى العسكرية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية فبدأوا يشتركون فى الثورات التى قامت فى وجه الأمويين وأضحوا قوة مرجحة يحسب لها كل حساب ، وكان نجاح هذه الثورات يتوقف على أعداد الإيرانيين المؤيدين لها . وكانت هذه الثورات تزداد شدة كلما وجدت سندا شعبيا إيرانيا قويا . واتجاه الرأى العام الإيرانى يظهر بوضوح من دراسة ثورة الزبيريين وثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى . ونـكاد نلمح من مصادر العصر شعور الإيرانيين الحقيقى ووزنهم فى ترجيح كفة الطرفين المتنازعين ، ذلك أن الإيرانيين المسلمين بعثوا إلى عبد الله بن الزبير يطلبون الدخول فى دعوته معتقدين أن الدخول فى هذه الدعوة قد يعطيهم بعض الحقوق التى لم يستطيعوا الحصول عليها فى ظل الحكم الأموى . ولم يستطع عبد الله بن الزبير وأعوانه أن يقدروا قيمة هذا التيار الإيرانى الصاعد ولم يستطيعوا الإفادة من هذه القوة الإسلامية النامية التى بدأت تظهر على مسرح الأحداث فى إيران . ونعتقد أن تخلف الزبيريين عن الإفادة من هذه العناصر سبب فى ما أصابهم من إخفاق، وتمكن الأمويون من القضاء على حركتهم .

ثم ظهرت هذه القوة الإسلامية النامية ظهوراً واضحاً فى ثورة المختار بن

---

(١) ولهاوزن : الدولة العربية ص ٤٧٢

أبي عبيد الثقفي . فقد كانت ثورته تطالب بثأر الحسين فكانت ثورة شيعية وبدأت تلقى تأييداً قوياً من الموالي . وكان هذا التأييد بداية التحالف المعروف بين الفرس والشيعة ، هـذا التحالف الذي سينتهي بنجاح الثورة العباسية وقيام الخلافة العباسية .

واستطاع المختار أن يفيد من هذه القوة النامية وأن يعتمد عليها وقد اشترك في ثورته نحو من ثلاثين ألف من الفرس المسلمين(١) . ورغم أن هذه الثورة لم تحقق أغراض الإيرانيين كاملة إلا أنها كانت بمثابة التعبير الأول عن أهدافهم ورغباتهم المتزايدة في التحرر ونيل حقهم المشروع من المساواة . وإنا نجد شبها بين هذه الثورة الإيرانية الأولى وبين ثورة أبي مسلم فيما بعد وكلتاهما تعبير عن وجهة نظر إيرانية واضحة .

ويبدو أن الحركة الإسلامية قطعت شوطا أبعد وظهرت ظهوراً أوضح في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وعامله الحجاج بن يوسف وستتخذ من دولة عهد عبد الملك مقياسا لهذا التطور الاسلامي الكبير .

والأمويون في هذا العهد بدأوا فعلا يواجهون حركة إسلامية كبيرة وتياراً إسلاميا دافقا . والدليل مستمد من السياسة الأموية في عهد عبد الملك خاصة السياسة الاقتصادية التي بدأ الحجاج يطبقها في إيران ، إذ يبدو أن الحركة الإسلامية النامية هددت الاقتصاد الأموي تهديداً كبيراً ، فأخذ القدر المتحصل من الجزية يتناقص بالتدريج ، بل بدأت تختفي كمورد هام من موارد بيت المال . ولعل هذا هو الذي دفع الحجاج إلى إبقاء الجزية على من أسلم لمواجهة هذا التناقص المتزايد في متحصلات الجزية(٢) . وبدأت الحركة الإسلامية النامية تهدد الموارد الاقتصادية الأخرى . لأن الدخول في الاسلام كان معناه أن الأرض الخراجية التي كان يزرعها أهل الذمة مقابل الخراج ستتحول إلى أرض عشرية يتملكها المسلمون ومعنى هذا يتناقص الخراج كما تناقصت الجزية .

---

(١) الطبري جـ ٧ ص ١٥٩

(٢) الطبري جـ ٨ ص ٣٥

وبدأت الدولة الأموية تتدارك هذا الخطر بإبقاء الخراج على ما كان عليه(١) كما بدأ المسلمون الجدد يهجرون الريف إلى المدينة ويقيمون فى المدن الكبيرة بغية الحصول على العطاء والإفادة من التطورات الاقتصادية الجديدة . وإذا بتيار الهجرة يهدد بتقويض الحياة الزراعية وتجد الدولة الأموية نفسها مضطرة إلى مقاومة هجرات جماعات المسلمين .

وكان موقف الشعب الإيرانى المسلم من هذه السياسة يدل فى وضوح على تزايد التيار الاسلامى ، فالرأى العام فى إيران لم يرض عن هذه السياسة وتجلى سخطه فى ثورات أو حركات سياسة أشد وضوحا وقوة من الحركات السابقة كالثورة التى تزعمها عبد الرحمن بن الأشعث كانت ثورة إيرانية حقة تتناسب مع زيادة جماهير المسلمين(٢) . فقد اشترك فى هذه الثورة عشرون ألفا من المقاتلة الإيرانية وانضم إليهم الحريصون على مبادىء الإسلام من العرب خصوصا الفقهاء(٣) وطبقة الحفاظ الذين شاركوا فى هذه الثورة مع أهـــل البلاد جنبا لجنب .

وازدادت الحركة الإسلامية وضوحا وشدة بعد عبد الملك والوليد. والأدلة مستمدة من أحداث العصر الأموى بعد الوليد بن عبد الملك ، فقد تميزت السياسة الأموية فى إيران بظاهرة التراجع عن السياسة السابقة والاعتراف بالأمر الواقع والتمشى مع الحركة الإسلامية النامية . وقد وضح التراجع فى عهد سليمان ابن عبد الملك إذ بدأت الدولة تغير من سياسة الحجاج (٤) محاولة لاسترضاء جماهير المسلمين، فعزل الولاة الذين ولاهم الحجاج وأطلق سراح آلاف الإيرانيين من السجون فى البصرة والكوفة وأشرك الإيرانيون المسلمون فى الجيش بصورة أوفر ، وضوعف العطاء حتى بلغ نصيب الفرد كل شهر خمسة وعشرين درهما (٥)

---

(١) ابن عبد ربه . العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٦

(٢) اليعقوبى ج ٣ ص ٢٤

(٣) يذكر الدينورى أن ابن الأشعث انضم إليه الشيعة والخطباء والقراء والعباد والمسبحيون بل انضم إليه الأساورة والزط .

(٤) ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ١٠

(٥) ابن عبد ربه العقد الفريد ج ٤ ص ٤٠

وبدأت الدولة فى نفس الوقت تعدل عن مقاومة الهجرة بالأساليب العنيفة كما بدأت تخفف من وطأة السياسة الاقتصادية حتى كان عهد عمر بن عبد العزيز فظهرت سياسة المسالمة أو الترضية . وكانت هذه السياسة مواجهة لتيار إسلامى كبير، إما أن تترضاه الدولة أو تسقط تحت وطأته . فكانت سياسة عمر بن عبد العزيز (١) توفيقاً بين التيار الإسلامى والمصالح الأموية الرئيسية . ويمكن أن نسمى سياسة عمر بن عبد العزيز بسياسة (أنصاف الحلول) فالجزية لا تفرض على المسلم إنما تضاعف على من بقى على دينه والخراج يقل على المسلمين ويضاعف على أهل الذمة . وأغرب من هذا أن يبيح عمر بن عبد العزيز الملكية للمسلمين وفى نفس الوقت يحرم بيع أرض المسلمين . كانت سياسته فى الواقع توفيقا بين الإسلام الصاعد فى إيران وبين المصالح الأموية وإن كان عهده يمتاز بجهود تبشيرية عظيمة لنشر الإسلام من كافة الجهات خاصة فى آسيا الوسطى .

ومضت الحركة الإسلامية فى طريقها بعد عمر بن عبد العزيز وبدأت تتخذ صورة جديدة ممثلة فى التحالف الوثيق بين الحركة الإسلامية والدعوة للرضا من آل محمد ، وما أدى إليه ذلك من نجاح الثورة العباسية . إذ لاشك فى أن الثورة العباسية قامت على أكتاف جماهير المسلمين فى إيران وخراسان وما وراء النهر . وفعلا اعتمد العباسيون على تيار إسلامى قوى غلب على إيران وامتدت آثاره إلى ما وراء النهر فكانت مهارة الدعاة العباسيين أنهم كسبوا هذا التيار الإسلامى إلى جانبهم ، وذلك بتجنبهم جميع الأخطاء التى أدت إلى وأد الحركات الثورية السابقة بالتنظيم العقائدى الذى أعدوه فى فترة التحضير للثورة والذى ينم عن عبقرية فذة فى التنظيم والإعداد . وكان يقوم على السرية المطلقة وعلى إمام مستور لا يعرفه إلا أقرب الدعاة وأصدقهم ولاء والدعوة للرضا من آل محمد ، ليتكتل الهاشميون كلهم من علويين وعباسيين . وكان التنظيم يستند إلى طائفة من الدعاة والنقباء والعمال لهم قدرات عسكرية خلاقة وإخلاص للدعوة

---

(١) عن سياسة عمر بن عبد العزيز أنظر

ابن عبد الحكم . سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٩٩ ، ابن الجوزى : مناقب عمر بن عبد العزيز ص ٥٤ . فلهاوزن . الدولة العربية وسقوطها ص ٢٥٩ — ٣٠٢

وفناء فيها ، وقدرة بارزة على الدبلوماسية والدهاء، ومداراة الأحوال واجتذاب الأنصار ، ومنطق فى المخاطبة فيه أدب وبلاغة وفن مراعاة مقتضى الحـــال . واتخذت هـذه الدعوة شعارات معينة وأعلنت عن نهج فى الإصلاح أريد به اجتذاب الساخطين على بنى أمية ووعد بتخليصهم مما أصابهم فى العصر الأموى الأخير .

فنادوا بالمساواة بين الشعوب وبالإمامة للرضا من آل محمد وإظهار أن بنى أمية وقعوا فى الضلال والفسق ، ووجه الدعاة الطعن إلى ولاة بنى أميـة وسموهم ولاة الجور كما رفع الدعاة شعار الإصلاح والدعوة إلى الحق والعدل .

وقد نجح الدعاة العباسيون بفضل هذا التنظيم الدقيق والشعارات المرفوعة فى أن يكسبوا بزعامة أبي مسلم الخراسانى الرأى العام الإسلامى فى إيران. ويذكر الدينورى (١) أن أبا مسلم جاءته الوفود من مدن خراسان كلها ومن القرى الصغرى ومن أهل الثغور وكرمان وكابل وخوارزم والديلم وأهل ماوراء النهر وطخارستان . بل صـدق الدعوة بعض العرب ودخلت فيها قبائل عربية من خزاعة وطيء وبكر وتغلب .

وكانت الثورة العباسية ثورة إيرانية خالصة انبعثت من خراسان ووجدت صدى ومنطلقا فى مدن إيران وريفها كما تدل على ذلك أحداث الثورة العباسية منذ اندلاعها سنة ١٢٩ ﻫ إلى أن تمت البيعة للخليفة العباسى الأول وقضى على الأمويين سنة ١٣٢ ﻫ .

إعتمدت الثورة فى منطلقها الأول على أبي مسلم الخراسانى وشيعته من الخراسانية المتحمسين . وقد أظهرت أحداث الثورة الأولى القدرات العظيمة التى تجمعت لهذا المولى العباسى ووضحت الدور الكبير الذى اضطلع به والجهود الصادقة التى بذلها وتبين القدرات العظيمة التى تجمعت للخراسانى أبى مسلم والتى جعلته من أعظم الدعاة العباسيين قاطبة قدرة وإخلاصا .

---

(١) الأخبار الطوال ص ٣٦٠

وقد علل المشتغلون بدراسة التاريخ العباسى تألق أبى مسلم وظهوره إلى أمور كثيرة منها : المعرفة بأساليب الحرب الذى يلائم أرض خراسان وإقليم ما وراء النهر وقدرته الخارقة على التنظيم الذى جعلت منه الإدارى الناجح الذى يهزم الأعداء ولا يفرقهم بسوء التدبير ، فجعل من جماعته ـ وهى الفئة القليلة ـ القوة الضاربة فى حزم وإحكام . وسياسة المن على الأعداء ، وموادعة المهزومين كسبا للقلوب وتأكيداً لزعامته بين الناس ، وهو أمر لم يكن مألوفا فى تلك الفترة الدموية من تاريخ الدعوة التى كانت أقرب أن تكون حرب حياة أو موت . ثم المعرفة الصادقة بالقبائل العربية وفهمه الجيد لإحنها وتاراتها وتجمعاتها وتحركاتها . وإفادته من اجتماعها وافتراق كلمتها على حد سواء . فقد بدأ بالتزام الحيدة المطلقة بين الكتل المتصارعة ، ثم أخذ يستعين بفريق على آخر فاستمال ربيعة وقحطان إلى جانبه ولم يقطع صلته بمضر ، فلما استقام له الأمر أخذ العرب المعادين له بالقمع فى شدة وقسوة أخذت على الأئمة الذين دان لهم بالطاعة والولاء .

ولم تتوقف المساندة الإيرانية القوية بمجرد دخول أبى مسلم مرو وتسديده الضربة الأخيرة لقوات نصر بن سيار المتقهقرة إلى نيسابور ومعه أنصاره من العرب الذين هربوا من خراسان وهم قبائل تميم وبكر وقيس . فقد ظلت قيادة الحركة فى أيديهم حتى انتقلت السلطة إلى أبى العباس وإخوته وآل بيته . فكانوا من وراء قحطبة بن شبيب الطائى ذلك القائد العربى الذى اختير لقيادة القوات الإيرانية الخراسانية بعد انتهاء دور أبى مسلم . إذ لم يكن من المعقول أن تقتحم معاقل العروبة فى العراق والشام ومصر بقيادة أعجمية إنما بقيادة عربية خالصة .

واقتحم قحطبة بقواته الإيرانية العراق وهزمت قوات ابن هبيرة وما آل إليه الأمر من استقرار الثورة بالعراق بعد سيطرته على المشرق كله .

كانت القوى الزاحفة من خراسان إلى الكوفة تحت لواء الدعوة الظافرة تسير فى خط مغاير للزحوف العربية التى رأتها إيران فى عهد عمر من القادسية إلى مرو . وكاد هذا طريق الزحف المظفر أمام هذه القوى الجديدة . وسيشهد

هذا الطريق زحف الخراسانية بقيادة المأمون ، وزحف آل بويه وآل سلجوق ثم زحف المغول .

وخاض العباسيون بهذه القوة الجديدة معركة الزاب التى استمرت أحد عشر يوما (حتى جمادى الآخرة سنة ١٣٢هـ) وكانت شبيهة بالقادسية فى شدتها . وكان الظفر للخراسانية على العرب ، واسترد الفرس مكانتهم كمحاربين أشداء . وكان انتصار العباسيين انتصاراً للمسلمين فى إيران وما وراء النهر .

وزاد خلفاء العصر العباسى الأول التيار الإسلامى فى إيران سعة وعمقاً فى العالم الإسلامى كله . وذلك بفضل السياسة الداخلية والخارجية التى اختطوها لأنفسهم .

فقد واجهوا فى إيران بقية من عناصر لم تكن على الاسلام إنما جنحت نحو الثورة والهدم ، ظانة أنها قد تجد فى صفوف العباسيين ثغرة تنفث منها سمومها . وقد ورث العباسيون نفس الثورات القديمة التى كانت مشكلة الساسانيين الزرادشت ، وهى التيارات المانوية والمزدكية . وكل الحركات الهدامة التى ظهرت فى العصر العباسى الأول إذا حللت نجدها تتخذ تعاليمها من الهرطقات الإيرانية القديمة . كانت هذه الحركات سافرة أول الأمر وقد أدى سفورها إلى سرعة فشلها ثم كبتها ، ثم بدأت بعد ذلك تتخذ نزعات توفيقية لنشر تعاليمها ، هى مزيج من المزدكية والشيعة المتطرفة .

هذه الحركات السافرة ظلت مشكلة العصر العباسى الأول حتى وفاة المعتصم . ظهرت فى عصر القوة (١) واستطاع العباسيون أن يقضوا عليها ، كما عاودت الظهور فى عهد المهدى (٢) والرشيد والمعتصم (٣) . على أن هذه الحركات

---

(١) النوبختى : فرق الشيعة ص ٤٢ — ٤٣ ؟ الطبرى جـ ١٠ ص ٢٤٤
Browne, Vol. II p. 323.

(٢) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٤٤ .

(٣) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٦٢ .

الهدامة لم يكن لبوسها ثورات وحركات عسكرية فقط ، إنما اتخذت لبوسا فكريا، ونقصد حركات الزندقة (١) . ولم يعرف عن المنصور إمعانه في اضطهاد الزنادقة وكانت سياسة قمع القوة الظاهرة ، فلما جاء المهدى كان من أبرز الأمور في عهده تنكيلة بالزنادقة (٢) . ونفذ الهادى وصية أبيه واشتد في طلب الزنادقة. ولما آلت الخلافة إلى الرشيد سار في نهج من سبقه من الخلفاء في تعقب الزنادقة (٣). واستمرت الدولة تواجه هذه الفتن بالتحدى والقمع في عهد المأمون. وقد تصدى أهل السنة لمقاومة هؤلاء الناس حتى أن طائفة كبيرة من أدباء هـــذا العصر ومفكريه بذلوا الجهد الواضح في مكافحة الزندقة ، وتصدى علماء الكلام لتسفيه الزندقة والرد عليها (٤) .

على كل حال يرجع إلى العصر العباسى الأول القضاء على هـذه الحركات الهدامة وقد أسلموا الأجيال القادمة حركة إسلامية قوية مبرأة من الشوائب .

أما الغالبية الكبرى من الإيرانيين الذين استمسكوا بالإسلام فقد أفاد العباسيون منهم وفتحوا أمامهم ميدان التقدم السياسى والفكرى .

تقدمت هذه العناصر في ميدان السياسة تقدما عظيما ، كانوا الجند والقادة وأرباب السيوف . وسيطروا على الجهاز الإدارى في حاضرة الخلافة والولايات وغلبوا على جميع دواوين الدولة . وكانت بأيديهم مقاليد السياسة العباسية . وقد أباح لهم العباسيون هذا الظهور السياسى على شريطة ألا ينتقص من هيبة الخلافة أو قدراتها . إنما يكون عمل هؤلاء وفق إرادتها وتحت عليها . وكانت تكبح جماح من يريد منهم أن يخرج عن هذا الخط وترده إلى الطاعة . فكان في ذلك كله التمكين النهائى للإسلام من قلوب غالبية السكان الإيرانيين .

---

(١) عن الزنادقة انظر : الغزالى كتاب فيصل التفرقة ص ٣٢ الأغانى جـ ٣ ص ٧٣ ، ٨٦ Browne, Vol, I p. 159

(٢) الطبرى جـ ١٠ ص ٩ ، ٦ .

(٣) الطبرى جـ ١٠ ص ٤٢ .

(٤) الجاحظ ، الانتصار ص ٨١

ومما أدى إلى تثبيت قواعد الإســـلام فى المشرق فوق ما تقدم السياسة الخارجية التى اختطها العباسيون لأنفسهم بعد أن استقرت لهم الأمور بالداخل وكبتوا كل الفتن والثورات ، وأنشأوا أعظم القوات البرية وأنشأوا الأساطيل فى البحر الأحمر والمحيط الهندى . فقد اهتموا بآسيا الوسطى اهتماماً بالغاً وحموا الإسلام فيما وراء النهر وصدوا عدوان الأتراك الشرقيين وأبعدوا الصين عن التدخل فى شئون غرب آسيا .

* * *

الفصل الرابع
نتائج انتشار الإسلام في إيران

الذى يعنينا هنا أن نتتبع أهم النتائج التى ترتبت على نجاح الدعوة إلى الاسلام وغلبته على الايرانيين وتمكنه من نفوسهم منذ نجاح الثورة العباسية سنة ١٣٢ هـ حتى دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ هـ ، وأن نؤكد حقيقة هامة هى أن إيران لم تفقد مقوماتها فى ظل الاسلام . وقد استمدت هـذه المقومات المقاومة من عناصر حضارية وطبيعية وجغرافية (١).

هـــذه النتائج سارت فى خطين متوازيين : الخط الحضارى والخط السياسى (٢) . وقد قطعت أشواط الخط السياسى والحضارى بصور متقاربة متشابهة تقريباً .

فى الميدان السياسى أفسح العباسيون للإيرانيين فى مجال الظهور السياسى ما شاءت لهم قدراتهم، بشرط ألا يكون عدوان على سلطات الخلافة أو فعالياتها . وأن يتم نوع من التوازن بين القوى الايرانية الصاعدة نحو النفوذ وبين الخلافة المتمسكة بالنمط المركزى أو الفدرالى القادرة على القوة والحركة . وقد استمر هذا الظهور حتى نهاية العصر العباسى الأول . ثم ما لبثت أن انهارت المقومات التى كانت مصدر قوة الخلافة وهيبتها ، وضعفت الخلافة العباسية واجتاحت العالم الإسلامى فى الشرق والغرب الحركات الاستقلالية .

وظهرت الإمارات المستقلة المعترفة بسلطان الخلافة الروحى . وقد عبرت إيران عن نفسها تعبيراً استقلاليا فى نطاق الولاء للخلافة العباسية . وظهرت

---

(١) Legacy of Persia ; Chap, II p, 6().

(٢) Ibid

فى كل إقليم من أقاليمها أمارات مستقلة : فى خراسان وفارس وفى طبرستان وبلاد الديلم . وظلت هذه الإمارات تسيطر على الحياة السياسية فى إيران حتى ظهر البويهيون ودخلوا بغداد ثم نشروا نفوذهم فى إيران كلها تقريباً . وتحكموا فى الخلافة العباسية ، وباسمها ساسوا العالم الاسلامى كله . وظل البويهيون حتى دخل السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ .

ولا نريد أن نسوق هذه الأحداث السياسية بكل تفاصيلها المعروفة إنما نريد أن نتبين من خلالها الشخصية الايرانية وهى تعبر هذه المرحلة فى طريقها إلى السيادة والنفوذ .

* * *

١ — النتائج السياسية

النتائج السياسية لإسلام الإيرانيين مرت بمراحل ثلاثة :

ا ـ تقدموا تحت علم الخلافة بعد نجاح الثورة العباسية واستمر هذا التقدم طوال العصر العباسى الأول .

ب ـ ثم ظهرت إماراتهم الإسلاميـة المستقلة فى كل إقليم من أقاليم إيران فى عصر ضعف الخلافة واضمحلال نفوذها .. وتسمى هذه المرحلة مرحلة التعمير المتجزىء عن الاستقلال .

جـ ـ ثم استطاع الديلم من بنى بويه أن يسيطروا على إيران كلها تقريباً وأن يسيطروا على الخلافة العباسية فى بغداد متخذين لقب شاهنشاه ولقب سلطان وأن يمثلوا الأوج الذى بلغته العناصر الإيرانية فى زحفها نحو التقدم والظهور .. وتسمى هذه المرحلة بالتعبير الشامل عن الاستقلال .

ا ـ التقدم السياسى للعناصر الايرانية تحت علم الخلافة .

تقدمت العناصر الإيرانية فى ميدان السياسة والقيادة تقدماً حثيثاً ، فهى التى أيدت الدعوة فى مراحلها الأولى وهى التى كانت وقود الدولة . كانوا جندها المخلصين المعبرين عن إرادتها والمنفذين لسياستها . كان الخراسانيون فى جيل

أبى مسلم هم الذين حملوا عبء الكفاح وكانوا جند الدولة المخلصين فى زحفها نحو العراق وإطاحتها بالدولة الأموية وتثبيت دعائم الحكم العباسى . وليس أدل على ذلك من تلك الرسالة الهامة التى كتبها ابن المقفع وسماها برسالة الصحابة والتى تعتبر من أهم الوثائق التى تكشف عن سياسة العباسيين وحقيقة أهدافهم. فلهذه الرسالة قيمة كبيرة فى نقد نظام الحكم ورسم وجوه إصلاحه . فقد رفعت إلى أمير المؤمنين، ويظن أنه المنصور لأنه يذكر دولة بنى العباس وقد استقرت(١) ويذكر السفاح ويترحم عليه . وقد أدرك ابن المقفع المكانة الهامة التى احتلها جند خراسان فى السياسة العباسية . ومدحهم بأنه لم ير مثلهم فى الإسلام ، وأنهم يمتازون على غيرهم من الجند بالطاعة والعفاف والكف عن الفساد والتزلل للولاة والتفانى فى خدمة الخليفة (٢).

وكان الخراسانيون عدة المنصور فى القضاء على أهدافه وإطفاء الثورات التى قامت فى الحجاز وتثبيت سلطانه فى مصر والمغرب وعمدته فى جهاده مع الروم . ولم تتخل الدولة العباسية عن عناصر الإيرانيين على الإطلاق ، فقد عاودوا الظهور فى الصراع بين الأمين والمأمون وكانوا جند المأمون فى القضاء على الأمين والتمكين لنفسه من السلطان حتى استعان المعتصم بالترك الغربيين من ما وراء النهر ، وكانوا أقرب إلى العناصر الإيرانيـة من الأتراك الشرقيين . وكان من أثر ذلك أن ضوعف عطاؤهم ، ونالوا من الرعاية حقهم وتولى القيادة فيهم رجال منهم وصلوا إلى أعلى مراتب السلطة والقيادة .

وبدراسة النظام الحربى فى العصر العباسى الأول يتبين كيف كانت القيادة العسكرية فى جميع القطاعات فى أيدى هذه العناصر الجديدة. ولم يصبح الإيرانيون من أرباب السيوف فحسب بل سيطروا على الجهاز الادارى كله فى حاضرة الدولة وفى الولايات ، وغلبوا على جميع دواوين الحكومة ، وتولوا مناصب الولاية على البلدان والوزارة منذ فجر الدولة، وكانت بأيديهم مقاليد السياسة العباسية . وكان الوزراء الظاهرون فى العصر العباسى الأول كلهم من العناصر الايرانية ،

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ١ ص ٢٠٥ .

(٢) الطبرى جـ ٩ ص ١٢٧ .

فأبو سلمة الخلال أول وزير عباسي مولى فارسي ، وأبو أيوب الموريانى وزير المنصور فارسي من موريان قرية من قرى الأهواز ، ويعقوب بن داود وزير المهدى مولى كذلك ، وكذلك كان يحي بن خالد البرمكى . واستوزر الرشيد بنى سهل وكانوا من أولاد ملوك الفرس . وتولى الوزارة الفضل بن سهل والحسن ابن سهل . ومن بعدهم استوزر المأمون أحمد بن يوسف مولى بنى عجل ، ثم ثابت بن يحي بن يسار الرازى . ولو تصفحنا أسماء الوزراء الذين أشار إليهم الجهشيارى(١) ، لتبينا أن أكثر الوزراء فى العصر العباسي الأول كانوا من الفرس .

كما تولوا وظائف الكتابة ، فقد كان للوزراء أعوان من الكتاب وكان لولاة الأقاليم ورجال الدولة كتاب . فكان حماد عجرد كاتبا ليحي بن محمد بن صول بالموصل(٢) . وكان ابن المقفع يكتب لداود بن عمر بن هبيرة والى كرمان . وكان عمرو بن مسعدة يكتب للمأمون والحسن بن عيسى يكتب لعمرو ابن مسعدة وكان يكتب ليحيي بن خالد البرمكى عبد الله بن سوار. وكان أكثر هؤلاء الكتاب فرسا كالوزراء يحذون حذو أجدادهم من الفرس .

بل وصل الصعود فى مجال العمل السياسى بهذه العناصر إلى حد احتكار نوع من السلطة السياسية توارثه الأبناء عن الآباء . أعنى أنه تكونت لهم فى العصر العباسى الأول دويلات وظيفية أو أسرات بيرقراطية . مصداق ذلك النفوذ العظيم الذى وصلت إليه أسرة البرامكة فى العصر العباسى الأول . وقد كانت هذه الأسرة أسرة إيرانية صميمة أصلها من مدينة بلخ ، بدأ ظهور أفرادها فى عهد المنصور ، فظهر منهم خالد بن برمك الذى يرجع إليه الفضل فى تثبيت النفوذ العباسى فى منطقة خراسان وفى إيران كلها . وتتابع نفوذهم فى عهد المهدى وسيطروا على الحياة السياسية فى عصر الرشيد ، فلم يتولوا منصب الوزارة فحسب إنما تولوا جميع المناصب الإدارية والعسكرية .

واستطاع أفراد هذه الأسرة أن يظهروا فى الحياة الاجتماعية وأن يبنوا

---

(١) الوزراء والكتاب ص ٢٤ .

(٢) الوزراء والكتاب ص ٢٤ .

القصور وأن يقلدوا الخلافة العباسية فى جميع مظاهرها الاجتماعية ، بل ظهر نفوذهم فى الحياة الأدبية . كما ينسب إليهم أنهم قاموا بكثير من الإصلاحات الإدارية . وعملوا على إحياء التقاليد الإيرانية .

وعلى الرغم من أن العنصر العربى استطاع أن يظهر نفوذه قبل أن يختفى فى نكبة البرامكة ، وفى ولاية محمد الأمين الخلافة ، وفى عزل المأمون من ولاية العهد فإن النفوذ الإيرانى فى الحياة السياسية بدأ يعود من جديد فى صورة أقوى فى عهد المأمون . ولم يكن النزاع بين الأمين والمأمون إلا نزاعا بين النفوذين العربى والفارسى . والمأمون كان قد اتخذ خراسان مركزاً لنفوذه وكاد يجعل من مرو عاصمة الدولة العباسية ، بل إن مبايعته لعلى الرضا العلوى بولاية العهد كانت استجابة منه لشعور الإيرانيين .

وكان انتصار المأمون تأكيداً للنفوذ الإيرانى . الدليل على هذا ما تولاه الإيرانيون فى عهد المأمون وبعده بقليل ، كالنفوذ الذى تولاه طاهر بن الحسين والذى أسس الدولة الطاهرية . وقد ظهر بنو سهل فى العراق فى عصر المأمون .

وكان العباسيون إزاء هذه العناصر الصاعدة يرسمون لأنفسهم سياسة بعيدة الغور لم يتخلوا عن تطبيقها طوال العصر العباسى الأول . كانت هذه السياسة قائمة على أن يشارك هؤلاء الإيرانيون العباسيين نفوذهم وسلطانهم وينالوا من السلطة ما طاب لهم ، لكن داخل إطار محدود لو تجاوزوه لقادهم ذلك إلى مصارعهم ونهايتهم . كانوا يسمحون لهم بذلك فى حدود الطاعة المطلقة للخلافة والاعتراف بسلطانها حتى إذا سولت لهم أنفسهم أن يخرجوا عن الطاعة كان الكبت والقمع الذى لا هوادة فيه . وكان لهم فى ذلك سياسة مرسومة وهى سياسة ضرب العناصر بعضها ببعض . فقد ضربوا الخراسانية جيل أبى مسلم بالبرامكة الفرس ، وضربوا البرامكة ببقية النفوذ العربى . وضربوا بقية النفوذ العربى بالخراسانية فى جيل بنى طاهر ثم ضربوا هذه الخراسانية بأتراك عهد المعتصم .

إذن يمكننا أن نقول أن سياسة العباسيين حيال هذه العناصر الايرانية المتقدمة فى المجال العسكرى والسياسى قامت على عنصرين : المشاركة والموازنة

فى إطار الطاعة لبنى العباس ، ثم الكبت والقمع إذا كان ثمة خروج على أركان هذه الطاعة ، هذه السياسة تفسر الكثير من أحداث العصر العباسى الأول كمصرع أبى مسلم ونكبة البرامكة والصراع بين الأمين والمأمون والقضاء على بنى سهل .

كانت الخلافة فى العصر العباسى الأول تستفيد من العناصر الايرانية وتطلق لها من السلطان السياسى مالا يخل بمبدأ التوازن ، فإذا أحست بالاختلال بادرت إلى الفتك والتنكيل .

* * *

ثم ضعفت الخلافة العباسية بعد الواثق مباشرة وتناقل المؤرخون أخبار العدوان على أشخاص الخلفاء بالسجن أو التعذيب أو العزل ، أو على سلطانهم بالسلب والتضييق . فكأن الخليفة لم يأمن على نفسه فحسب بل إن منصب الخلافة فقد ما كان له فى نفوس المعاصرين من الهيبة والقداسة . وترد هذه التطورات إلى ضعف الخلفاء حينا أو انصرافهم إلى اللهو أحيانا أخرى . لاننكر أنه ظهر بعض الخلفاء الضعاف الذين استسلموا للواقع ولكن الأمر لم يخل من خلفاء آخرين كانوا على جانب كبير من قوة الإرادة . والحقيقة أن الأمر لم يكن ضعف أشخاص الخلفاء بقدر ما كان ضعف نظام الخلافة نفسه .

كانت الخلافة العباسية تستمد قوتها من مصادر متعددة : من دعوة عباسية منظمة ومن صلات مطردة بين رؤساء التنظيم العقيدى فى بغداد وبين شبكات الدعاة وجماهير الأنصار فى الأقاليم . وتستمد قوتها من بيت من بيوت قريش يتوارث أفراده هذا المنصب ويتحدون جميعا للابقاء على هذا الميراث . ثم عصبية قوية متماسكة تؤمن بأن بقاءها من بقاء الخلافة قوية وأن مصالحها قد ارتبطت بالخلافة بصلات قوية . وإذا كانت تلك هى مصادر القوة فى النظام الخلافى ، فإن افتقاد هذه المصادر يؤدى إلى ضعف الخلافة .

وليس من شك فى أن صلات الخلفاء بشبكات الدعاة فى كافة أرجاء العالم الإسلامى لم تضعف فحسب بل تهاوت تماما بعد الخليفة المتوكل ، فلم نسمع عن ذلك النوع من الرسائل الذى رأيناه فى العصر العباسى الأول . ومعنى هذا أن

الخليفة فقد صفته كرأس لذلك التنظيم الذى سيطر على الحياة الاسلامية فى العصر العباسى الأول ، وأدى هذا بالتالى إلى أنه فقد القداسة والهيبة فى نفوس الناس وتعرض الخلفاء لصور كثيرة من الامتهان .

وضعفت الروابط بين الخليفة وملايين الناس الذين أيدوا الحزب العباسى وانخرطوا فى سلكه . وأغلب الظن أن الخلايا المندسة فى البلاد إما قد انحلت أو انصرفت إلى تأييد الدعاة الشيعة الذين ملأوا الفراغ فى التنظيم العقيدى فى العصر العباسى الثانى . فلم نسمع أن هذه الجماهير كانت تولى الخلافة المضطهدة نفس ذلك التأييد العميق الذى كانت توليه للمنصور أو الرشيد .

وأغلب الظن أن الدعاة قد تضاءل نفوذهم ولم يعد حكام الولايات رؤساء للتنظيمات المحلية كما كان الحال عليه فى العصر العباسى الأول . فقد ضعفت صلتهم بالخلفاء وانصرف الكثيرون منهم إلى تنمية مصالحهم الذاتية والإكثار من المال والجند توطئة للاسهام فى الحركة الاستقلالية التى غلبت الحياة الاسلامية .

ومن أسباب الضعف ذلك الانقسام الذى وضح فى صفوف البيت العباسى الحاكم منذ البداية الأولى . لاحت بوادر هذا الخلاف فى عهد السفاح ثم اشتدت فى عهد المأمون . فالسفاح مثلا ولى أخاه المنصور العهد وأعرض عن عميه عبدالله وسليمان . ولم يرض العمان فثار عبد الله بن على المنصور وإذا بالمنصور يعزل عمه سليمان عن ولاية العهد . ثم درج العباسيون على سياسة تولية العهد لأكثر من واحد ، فالسفاح يولى المنصور ثم عيسى بن موسى . والمنصور يولى المهدى ثم عيسى بن موسى . والمهدى يختار الهادى والرشيد يولى الأمين والمأمون ، وقد وضح الانقسام فى موقف الهادى من هارون وفى موقف الأمين من المأمون . وقد أحس المأمون بما يتهدد البيت العباسى فى خطر فعهد بالخلافة إلى المعتصم فقط .

وقد فقدت الخلافة العباسية العصبية الساندة مصدر النفوذ والسلطة . فالعصبية العربية كانت تضعف ضعفا طبيعيا بسبب تفرق العرب فى الأمصار واختلاط دمائهم . وقد غدرت الخلافة العباسية ـ تطبيقا لسياستها فى التوزان ـ بالخرسانية بعد نجاح الدعوة وقتل زعيمها أبو مسلم . ثم استعانت بالبرامكة ثم نكبتهم

واعتمد الأمين على العرب ، وعاد المأمون إلى الخراسانية. واضطر المعتصم إلى استخدام الترك فى الجيش على نطاق واسع ، فلما ضاق بهم أهل بغداد أنشأ لهم حاضرة جديدة . ونشأت منهم طائفة من المحاربين احترفت الجندية وخدمت المعتصم ونفذت سياسته وتسربوا إلى الجهاز الادارى وأسند إليهم الكثير من المناصب العليا فى الدولة . وبلغ نفوذ الاتراك حداً بعيداً فى التحكم بعد وفاة الواثق وأصبحوا أصحاب السلطان المطلق لفترة امتدت نحو قرن. وتدخل هؤلاء الترك فى تولية الخلفاء وعزلهم وامتد سلطانهم إلى منصب الوزارة ، إذ أثقلوا على الوزراء فطالبوهم بالكثير من المال فإذا عجزوا باتوا عرضة للتنكيل والعزل . ثم تولوا الوزارة فى عهدالمستعين الذى اتخذ أتنامش وزيراًله ،وأصبح تعيين الوزراء يتم عن طريقهم . ففى عهـــد المعتز بالله عزلوا جعفر بن محمود الإسكافى ثم قبضوا على وزير آخر يسمى أحمد بن إسرائيل ، وفى عهد المستعين حاول أبو صالح عبد الله بن محمد بن يزداد أن يضيق عليهم فهددوه بالقتل حتى هرب .

وامتد نفوذهم إلى بعض الأقاليم فكان الولاة يختارون إما من طبقتهم أو من المقربين إليهم .

وقد حاول كل من المتوكل والمعتز والمهتدى أن يدفع هذا الخطر التركى فلم يفلحوا ودفع أغلبهم حياته ثمناً لهذه المحاولة .

ب ــ ظهور الأمارات الايرانيه المستقله (الاستقلال المجزأ)

الإيرانيون المسلمون الذين ظهروا فى الحياة السياسية على النحو الذى رأينا فى العصر العباسى الأول ووجدوا من خلفاء ذلك العصر القوّة التى تلزمهم حدود الطاعة ولا تبيح لهم من السلطات إلا مايحفظ فعاليتها ويبقى على سلطانها وانطلقوا صعوداً بعد أن ضعفت الخلافة العباسية على النحو الذى بيناه ولم تجد من يحد من هذا التطور على نحو مافعل خلفاء العصر العباسى الأول .

وسنعرض بالدراسة لظهور الطاهريين بخراسان والصفاريين بسجستان والزياريين فى طبرستان ، مبينين إلى أى حد كان ظهور هذه الإمارات إحياء للكثير من التقاليد الإيرانية القديمة .

الطاهريون بخراسان (٢٠٥هـ - ٢٥٩هـ)

ينتسب الطاهريون إلى رزيق بن ماهان مولى طلحة بن عبيد الله الخزاعى والى سجستان من قبل مسلم بن زياد (١) . فهم إذن من الموالى الفرس الذين أسلموا فى العصر الأموى الأخير وبرزوا فى خدمة الدولة الأموية التى كانت قد قهرت المقاومة التركية ، وبدأت تستعد لإخضاع ماوراء النهر لسلطانها نهائياً . حتى إذا قامت الدعوة العباسية على خراسان كان بنو رزيق من العناصر الإيرانية التى سارعت تستجيب للدعوة الجديدة .

وقد اتصل مصعب بن رزيق بسليمان بن كثير الداعية العباسى ، فلما نجحت الدعوة وقامت الدولة العباسية عرف العباسيون لهؤلاء الموالىجهدهم الصادق الذى بذلوه فى الدور الخراسانى ، فولوا مصعباً بلدة بوشنج من أعمال مرو سنة ١٥٩هـ كما تولى هراة . وخلفه ابنه الحسين عملا بالسياسة العباسية التى كانت تجنح إلى استقرار الإدارة فى هذه النواحى .

أما طاهر بن الحسين فقد ولد ببوشنج ونشأ فيها والتحق بخدمة العباسيين شأنه شأن أبيه وجده . وذاع صيته فى خراسان خاصة ، وعرف بالبراعة فى القيادة وحسن الإدارة ، حتى كانت الفتنة بين المأمون والأمين واحتاج المأمون إلى سند من العناصر الخراسانية المحاربة . ذلك أن العنصر الخراسانى لم يعد إلى الظل رغم مصرع أبى مسلم ، بل ظل يتحين الفرصة المواتية ليعود إلى الظهور من جديد . ولم يكن من المعقول أن يستطيع العنصر العربى الضعيف أن يملأ الفراغ الذى تركه اختفاء البرامكة . وكان طاهر بن الحسين هو أبو مسلم الجديد . وكان المأمون هو الإمام الذى التف الخراسانية حوله ، كما التف جيل أبى مسلم حول أبى العباس السفاح .

وقد تصدى الخراسانيون بقيادة طاهر بن الحسين لقوات الأمين يقودها على ابن عيسى ، وهو أشبه بالجيش الذى جنده مروان بن محمد بقيادة ابن هبيرة لقتال جيش قحطبة بن شهيب الزاحف على العراق فى فجر الثورة . ثم تصدى

---

(١) Barthold ; Turkestan pp. 208--209.

الخراسانيون لعلى بن عيسى كما تصدوا بالأمس لابن هبيره وما أقرب الشبه بين أبى مسلم وطاهر بن الحسين .

وكانت هزيمة هذا الجيش قاصمة بالنسبة للحزب العربى ، وانتصرت الخراسانية مرة أخرى فى شوال(١) . وانتقلت الحرب من الهجوم على مداخل خراسان إلى الدفاع عن مداخل العراق من ناحية السبيل . وفى سبيل هذا الدفاع بذل الأمين آخر جهد له ، فجند عشرين ألفاً من العرب ومثلهم من الأبناء فهزمت قواته . ثم حاصرت قوات طاهر بن الحسين بغداد حتى دخلتها ، وقتل الأمين فى ٢٥ المحرم سنة ١٩٨ .

كان الخراسانية جند الدولة الذين دخلوا العراق عام ١٣٢ هـ لإنهاء الحكم الأموى، وإذا بهم اليوم جند المأمون الذين دخلوا بغداد ليقتلوا خليفة وليضعوا حداً للنفوذ العربى . فليس عجيبا أن تحقق الخراسانية أطماعها بقيادة طاهر بن الحسين . وإذا كان الفضل بن سهل قد نفس عليه أن ينفرد بتلك الشهرة وحمل المأمون على تنحية طاهر عن العراق وإرساله إلى الجزيرة لحرب نصر بن شيث ، غير أن المأمون لما دخل بغداد بعد موت الفضل أمر طاهراً أن يلقاه فى بغداد لينال ثمرة ما أبلى فى حرب الأمين، فولى الجزيرة، والشرط، وجانبى بغداد ومعاون السواد (٢) .

ثم سادت الفتنة خراسان أثناء اشتغال طاهر بن الحسين بحرب الأمين . ولم يستطع عاملها غسان بن عباد أن يخمد الفتنة التى أثارها عبد الرحمن المطوعى الذى جمع لحرب الحرورية بنيسابور ، فخاف المأمون أن يضطرب ثغر خراسان وأن يهدد نفوذ الدولة العباسية فى ما وراء النهر . ووضحت الحاجة إلى قائد خراسانى قوى الشكيمة يعرف هذا المصر ليعيده إلى الطمأنينة ، فلم يجد المأمون غير ابن خراسان طاهر بن الحسين فولاه خراسان . ولكنه وسع من سلطانه بصورة قلما تحققت لفارسى من قبل . إذ ولاه على المنطقة الممتدة من حلوان إلى حدود الإسلام فى الشرق وسما إلى مرتبة نائب الخليفة على القسم الشرقى من الدولة.

---

(١) الطبرى جـ ١٠ ص ١١٣ .

(٢) Barthold ; Turkestan pp. 208—209.

وقد قضى على الفتن التي ثارت هناك وهدأت أحوال خراسان.ذكر الطيفورى عن يحيى بن أكثم عن المأمون أنه كان يقول « ماحابى طاهر فى جميع ما كان فيه أحداً ولا مالأ أحداً ولا داهن ولا وهن ولا ونى ولا قصر فى شيء . وفعل فى جميع ما ركن إليه ووثق به فيه أكثر مما ظن به وأمله وأنه لا يعرف أحداً من نصحاء الخليفة وكفاتهم فيمن سبق عصره ومن بقى فى أيام دولته مثل طريقته مناصحته وغنائه وإجزائه ...(١) » .

فكان طاهر إذن أول من أسس دولة الطاهريين بخراسان ووضع لها الخط الذى تسير فيه ، وهو أن تكون خراسان مستقراً لنفوذها ومنطلقا لسلطانها ، وأن يبسطوا نفوذهم على ما جاورها من البلاد فى حدود الطاعة للخليفة . وأن لا يتخلوا من المناصب التى تقلدها طاهر فى بغداد ، وأن يكونوا سنداً للخليفة وأن تكون آذانهم فى بغداد تسمع وتعى وتحفظ نفوذ الدولة فى خراسان .

وقد أحرز طاهر نفس الصورة من الاستقلال التى أصبحت تقليداً فيما بعد وهى أن ينفرد بأمر خراسان، وأن يتوارث أولاده السلطة فيها على أن يؤدوا الخراج للدولة وللدولة أن تعين عاملاً بريداً أن ينقل أخبارها إلى الخليفة ليضمن ألا يتنكر أحد الولاء له . ويروى المؤرخون أن طاهرا كان يتمنى أن يخطب على منبر مرو فوليها سنة ٢٠٥ وخطب بها سنة ٢٠٧ وصعد المنبر ونسى أن يدعو للمأمون فكان ذلك مما قاده إلى حتفه .

ورغم أن ما روى عن طاهر بعيد التحقيق ، إذ لم يتنكر الطاهريون للخلافة العباسية على الإطلاق ، بل ثبتوا على الولاء لها حتى انقضى عهدهم ، غير أن هذه الرواية تصور حرص طاهر على مظاهر السلطة فى مقره الجديد. بدليل أن المأمون سرعان ماولى عبد الله خلفاً لأبيه ، واعتمد عليه اعتمادا كبيرا وسيره لحرب نصر بن شبث حتى ألزمه الطاعة، وسيره إلى مصر سنة ٢١٢هـ فأخمد الفتن بها(٢). فزاد المأمون من سلطانه إذ ولاه الجبال وأرمينية وأذربيجان لمحاربة بابك ، كما خلف أباه فى الشرط وأعمال بغداد(٣) .

---

(١) حسن ابراهيم جـ ٣ ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ .
(٢) الخضرى ص ٢٠٤ .
(٣) نفس المصدر ص ١٠٥ .

ولم يتخل الطاهريون عن هذه الوظائف أبداً فكانوا يقيمون فى خراسان ويستخلفون عليها من أفراد بيتهم . فقد استخلف عبد الله بن طاهر عمه إسحق ابن إبراهيم بن مصعب . واتصل الحكم فى بنى طاهر ، فلما مات عبد الله ولى المأمون طلحة بن طاهر بن الحسين واستمر يلى خراسان حتى سنة ٢٣٠ (١) .

ولم تهتز مكانة الطاهريين فى خراسان أو فى بغداد فى عهد المعتصم ، بل ازدادت رسوخاً وصمدت للفتن والمؤامرات ، فقد طمع الأفشين فى ولاية خراسان فأراد أن يوقع بين المعتصم وبين الطاهريين ، فاتصل بأحد دهاقين طبرستان واسمه مازيار بن قارن بن وندا هرمز ، وكان خارجا عن طاعة بنى طاهر ويحمل خراجه إلى المعتصم مباشرة ، ويذكر المؤرخون أن الأفشين كتب إلى مازيار يحرضه على بنى طاهر . فأعلن مازيار الثورة ومنع الخراج وتحصن بجبال طبرستان . ولم تجد حيل الأفشين فقد وقف المعتصم إلى جانب الطاهريين يشد أزرهم . ففى الوقت الذى بعث فيه أمير خراسان عمه الحسن بن الحسين بن مصعب لقتال مازيار ، فإذا بالمعتصم يبعث من قبله جيشاً بقيادة طاهرى آخر يدعى محمد بن إبراهيم بن مصعب ومعه الحسن بن قارن الطبرى . كما وجه منصور بن الحسن صاحب دنباوند إلى مدينة الرى ليدخل عن طريقها إلى طبرستان وهزم مازيار وثبت سلطان الطاهريين(٢).

وظل الطاهريون على سياستهم التى وضعها مؤسس الدولة، يحتفظون بنفوذهم فى خراسان ولاينصرفون عن أمور بغداد ونجدة الخلافة إذا احتاجت إليهم . وظهر دورهم هذا واضحاً فى عهد الخليفة المستعين ، ووضح موقفهم فى ثورة الزيديين بالكوفة وطبرستان ؛ ففى الكوفة ثار يحيى بن عمر بن يحيى الزيدى فتصدى له الفرع الطاهرى فى بغداد ؛ إذ خرج الحسين بن إبراهيم بن مصعب وقضى على جيش يحيى سنة ٢٥٠هـ .

ويبدو أن المستعين أراد أن يكافىء الطاهريين على إبلائهم فى حرب الزيدية

---

(١) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٦٩ ، ٧٠ ، ٧٢ .

(٢) الخضرى ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

(٣) الخضرى ص ٢٧٥ ؛

فى الكوفة فأقطعهم قطائع من صوافى طبرستان فثار الديلم وبايعوا الحسن بن زيد الذى استولى على آمل وجرجان وشمل نفوذه طبرستان كلها . كما استولى على الرى ووضع أساس الدولة الزيدية بطبرستان التى ظلت تحكم البلاد من سنة ٢٥٠ إلى سنة ٣٢٠هـ (١) .

والأمر الذى يؤكد أن الطاهريين لم تصرفهم أمور خراسان عن الاهتمام بما كان يجرى فى بغداد ، ما كان من تدخلهم فى أزمة المستعين وثورة الترك عليه وخروجه من سامرا إلى بغداد سنة ٢٥١ ولجوئه إلى دار محمد بن عبد الله بن طاهر . وأعد الخليفة المنافس المعتز جيشاً لحرب المستعين ، ودارت بين الفريقين معارك طاحنة ، ثم عدل الطاهريون عن نصرة المستعين . ولعب محمد بن عبدالله ابن طاهر دوراً بارزاً فى خلع المستعين وبيعة المعتز وظل محمد بن عبد الله ابن طاهر ممثل الطاهريين فى بغداد يلعب دوراً بارزاً فى عهد المعتز وفى الفتنة التى وقعت ببغداد سنة ٢٥٢ هـ . وكانت شرطة بغداد إرثا فى أسرتهم ، فلما توفى محمد بن عبد الله بن طاهر سنة ٢٥٣ خلفه أخوه عبد الله بن عبد الله بن طاهر .

وكان آخر الطاهريين حكما بخراسان محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر (٢٤٨ - ٢٥٩هـ) . ذلك أن يعقوب بن الليث الصفار فى سنة ٢٥٩ قصد نيسابور فاستسلم بنو طاهر وانتهت دولتهم .

الصفاريون (٢) (٢٥٤-٢٩٠هـ)

كان القرن الثالث الهجرى فترة هامة فى تاريخ هذه العناصر الإيرانية المسلمة المتطلعة إلى مزيد من النفوذ مستفيدة مما كانت الخلافة تعانيه من ضعف ومن سيطرة الأتراك وتدخلهم . وكان النصف الثانى من القرن الثالث فرصة مواتية للمغامرين من كل صنف إذا توافرت فيهم القدرة على الحرب والإفادة من اضطراب أمور الخلافة وسوء حالها .

وكانت الاضطرابات تجتاح منطقة فارس وسجستان فى وقت ضعف فيه

---

(١) الخضرى ص ٢٧٦ .

(٢) Noldeke ; sketches fromEastern History, pp. 176—206.

الطاهريون الأواخر وساء حال الخلافة على النحو الذى بيناه ، وقد نشطت طائفة المطوعة فى هذه الفترة نشاطا عظيما ، وتجمعت لهم قوات تأتمر بأمرهم ، ودخلوا فى حرب مريرة مع الخوارج والشراة(١) . وأحرزوا على الخوارج نصراً عظيما أشعرهم بقوتهم وتفوقهم ، فطمعوا فى السيطرة على سجستان كلها وانتزاعها من الطاهريين لتكون منطلقاً لحركتهم يزحفون منها إلى ماوراءها .

وقد قاد المطوعة فى جهودهم للاستيلاء على سجستان صالح بن النضر الكنانى ، لكن طاهر بن عبد الله بن طاهر هزمه ورده على أعقابه . ثم تزعم المطوعة من بعده فى سعيهم الحثيث لاغتصاب سجستان درهم بن الحسين ، فلم يفلح إلى أن آلت القيادة إلى رجل مغامر يدعى يعقوب بن الليث ، واكب حركة المطوعة واندمج فيها ، وتقرب من زعيمها صالح بن النصر ودرهم بن الحسين حتى آلت إليه زعامة الجند بعد أن أخفق درهم فى تحقيق آمال المطوعة . فكان يعقوب بن الليث إذاً زعيم الحركة الاستقلالية التى انبعثت من فارس وسجستان كما انبعثت من غيرها من أقاليم إيران . وقد بز سابقيه فى فن تنظيم رجاله ودعم قوته بالعتاد والسلاح والسيطرة النفسية الكاملة على أصحابه فلم يكونوا يعصون له أمراً ، بل أطاعوه طاعة لم ينلها زعيم من زعماء المطوعة قبله . وتحول بالمطوعة إلى طائفة منظمة مترابطة تطيع قائدها طاعة عمياء(٢) .

وقد برزت صفات يعقوب القيادية فى معاركه مع الخوارج والشراة التى أسفرت عن هزيمتهم هزيمة ماحقة . وفتح أمام رجاله من المطوعة الطريق إلى النفوذ والسلطة . فاستولى على سجستان وحقق ما فشل فى تحقيقه صالح بن النضر ودرهم بن الحسين من قبل . ويبدو أن نفوذ يعقوب قد امتد على فارس كلها وأشرف على حدود خراسان وحدود السند « فرهبته الملوك وأذعن له ملك الملتان وملك الرخج وملك الطبسين وملك زابلستان وملك السند ومكران وغيرهم(٣) » .

---

(١) الخضرى ص ٣٠٦ .

(٢) الخضرى ص ٣٠٦ .

(٣) الطبرى ج ١١ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

ويبدو أنه لم يقنع بفارس أو سجستان وتطلع إلى مدن خراسان المزدهرة من مرو ونيسابور . وأراد أن ينزعها من الطاهريين الذين مال نجمهم إلى الأفول . ولم يشأ أن يلجأ إلى القوة وحدها فى تحقيق هـذه الخطوة الهامة ، إنما أراد أن يكون مولى لأمير المؤمنين ، وأن يكون أميراً بعهد من الخليفة ليثبت مركزه ، وتكون وراثته للملك آل طاهر وراثة مشروعة . فراسل الخليفة المعتز وسأله أن يوليه على فارس مقابل خراج قدره خمسة عشر مليونا من الدراهم . ثم دخل كرمان وفارس واستولى على شيراز وخطب للمعتز . وفى سنة ٢٥٩ تقدم نحو نيسابور ودخلها وقضى على بنى طاهر . وطالب بولاية خراسان ليقضى على نفوذ الشراة بها . وكان يأمل أن تستجيب الخلافة لما طلب ، ولكن الخليفة المعتمد خاف أن يتطاول يعقوب بن الليث إلى ما هو أبعد ، فقد كان رجلا لا تحد له أطماع .

وفى سنة ٢٦١ هـ جمع المعتمد حاج خراسان والرى وطبرستان وجرجان وقرأ عليهم كتابا بلعن يعقوب وتقبيح أعماله(١) ، فلم تحجب قداسة الخلافة أطماع يعقوب ، فهدد بالزحف إلى بغداد ليرغم الخليفة على الاستجابة لمطالبه . واضطر الخليفة كارها أن يوليه خراسان وفارس، وأضاف إليهما شرطة بغداد وسامرا . وأن يولى كرمان وسجستان ، فكأنه ورث نفوذ بنى طاهر حتى فى ولاية شرطة بغداد .

ومضى يعقوب يحقق ما يريد دون منازع . وفى سنة ٢٦٣ استولى على جنديسابور ثم الأهواز(٢).

هكذا حقق يعقوب فى سنوات قلائل كل ما ساوره من أطماع . ويعزى هذا التوفيق الكبير الذى صادفه إلى اليقظة وحسن التدبير وحسن اختيار الرجال وتنظيم جيش المطوعة وإمداده بالعدة والسلاح . وجمع من الأموال مافاق الوصف حتى قيل أنه ترك فى خزائنه خمسين ألف ألف درهم وثمانين ألف ألف دينار ثم مات فى شوال سنة ٢٦٠ .

---

(١) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٦٦ .
(٢) الطبرى ج ١١ ص ٢٤٦ .

ورثه أخوه عمرو بن الليث فى سياسته وأطاعه . وانصرف إلى العناية بالجند وحسن تدريبهم كما فعل أخوه من قبل ، فقد كان يحضر بنفسه صرف الأعطيات ليستعرض الجند ويجزل العطاء لأوفرهم شجاعة وأكثرهم عدة(١) .

ويبدو أن ظروف الخلافة قد مهدت السبيل أمام عمرو ، فقد أقر الموفق المشغول بفتنة ابن طولون وحرب الزنج عمر بن الليث على خراسان وأصبهان وسجستان والسند وكرمان ، كما أعطاه شرطة بغداد استسلاما لقوته الرهيبة فأناب عنه فيها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر(٢) .

وأفاقت الخلافة من متاعبها بالقضاء على الزنج وحل مشكلة بنى طولون ، فإذا بالخليفة المعتمد يعزل عمراً عن البلاد التى تولاها . بل بعث إليه جيوشا حاربته وانتصرت عليه سنة ٢٧٤ هـ . غير أنها لم تستطع انتزاع سجستان وكرمان . فلما ولى المعتضد هادن عمراً وترضاه ، فطمع فى المزيد وطلب إلى الخليفة أن يوليه بلاد ما وراء النهر ، فلم يجد الخليفة بدأ من الاستسلام . ولم يستطع عمرو أن يقتحم على بنى سامان معاقلهم فى ماوراء النهر ، ووقع فى الأسر وآل حكم الدولة إلى حفيده طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث سنة ٢٨ . واستبد السبكرى غلام عمرو بن الليث بالسلطة إلى أن طرده من البلاد الليث بن على بن الليث الصفار ، حتى تمكن السامانيون من الاستيلاء على سجستان والقضاء على بنى الصفار سنة ٢٩٠ هـ(٣) .

السامانيون فى خراسان (٢٧٩ — ٣٧٨)

ثم دخل السامانيون الحياة الإيرانية الخالصة فى عهد إسماعيل بن أحمد السامانى الذى آلت إليه زعامة السامانيين بعد موت أخيه نصر سنة ٢٧٩ هـ(٤) . فقد ناضل عن خراسان وقضى على مشروعات الصفاريين وفتح طبرستان وقم والرى وقزوين . واستطاع ابنه أحمد بن إسماعيل أن يقضى على الصفاريين نهائيا

---

(١) المقدسى ص ٣٠٩ .
(٢) الطبرى ج ١١ ص ٢٥٠ .
(٣) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٦٨-٦٩ .
(٤) البلاذرى ، فتوح البلدان ص ٣٢٥ .

عندما أسر سبكا السبكرى غلام عمرو بن الليث ، كما أسر الليث بن على الصفارى وانتزعوا سجستان من يد المعدل بن على بن الليث الصفار ، وأسر أخاه محمد ابن الليث . وظلوا يحتفظون بسلطانهم فى خراسان حتى استولى محمود الغزنوى على نيسابور وبخارى واستقر ملكه بخراسان وأزال نفوذ السامانيين .

الزياريون (٣٧٦ - ٤٣٤) :

بدأ المسلمون يحتكون بالديلم منذ محاولتهم فتح الرى وقومس زمن عمر بن الخطاب ، فقد بعث عروة بن زيد الخيل الطائى إلى الرى . فتصدى له الديلم مظاهرين لأهل الرى ولكنه هزمهم وعاود المسلمون قتال الديلم . واستطاع البراء بن عازب أن يهزمهم وأن يستولى على أمنع حصونهم ، ثم صالحوه على الجزية (١) .

ويبدو أنهم لم يستقيموا على الطاعة فقد عاود المسلمون غزو الرى حين ولى المغيرة بين شعبة كثير بن شهاب الدين الحارثى الرى ، فعاود غزو الديلم وهزمهم ، وخرج الديلم من بعد هذا . فلما ولى سعد بن أبى وقاص الكوفة المرة الثانية خرج لإخماد ثورة الرى وغزا الديلم مرة أخرى .

وظل الديلم على هذه الحال من الطاعة حينا والثورة حينا آخر حتى ولاية أبى موسى الكوفة لعثمان ، فبعث قرظة بن كعب الأنصارى فاستسلم الديلم . ويبدو أن بعضهم بدأ يدخل فى الإسلام ، فعوملوا معاملة أساورة البصرة على أن يكونوا مع من شاءوا ، فنزلوا الكوفة وأقام بعضهم بها .

وأصبح من بقى على دينه من الديلم مشكلة المسلمين الكبرى ، فلما ولى الوليد ابن عقبة أبى معيط الكوفة لعثمان غزا الديلم قرب قزوين . وواصل خليفته سعيد بن العاص غزو بلادهم . وأصبحت قزوين ولاية عربية . وهاجر إليها قوم من أهل الكوفة فأقاموا بها .

وطبيعة وطن الديلم الجبلية كانت تمكنهم من الثورة على الحكم العربى كلما واتتهم الفرصة . بدليل أن على بن أبى طالب واجه ثورة للديلم ، فخرج أربعة

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ص ٣٢٥ .

آلاف بعد أخذ أعطياتهم لقتال الديلم ، كما بعث الربيع بن خثيم الثورى فى أربعة آلاف من المسلمين لمعاودة قتال الديلم .

ورسخت قواعد الإسلام بعض الشىء فى هذه المنطقة الوعرة . فقد أعاد المهدى بناء الرى وبنى فيها مسجداً جامعاً سنة ١٥٨ (١). فلما ولى الرشيد كان أهل قزوين والرى قد استقاموا على الإسلام. فقد خفف عنهم الرشيد ما يدفعون من ضرائب . بل كان يبعث إليهم فى كل سنة عشرة آلاف درهم . ثم أصبحت إقطاعا للقاسم بن الرشيد .

وعاد الديلم إلى الثورة على الحكم العباسى فى عهد المأمون فأرسل إليهم أبا دلف القاسم بن عيسى ، كما بعث المعتصم الأفشين لتأديب الديلم . ولكن ثورات الديلم كانت تحت علم الإسلام ، فقد أيدوا بعض الحركات العلوية سنة ٢٥٣ ، فأرسل المعتز بالله موسى بن بغا لمحاربة العلويين ببلاد الديلم ، وكانت له مع الديالمة حروب ووقائع .

وإذا بالديالمة يسيرون فى ركب الشعوب الإيرانية المستفيدة من ضعف الخلافة العباسية ويتطلعون إلى الاستقلال بمنطقة بحر قزوين وطبرستان . فانبثقت منهم دولة بنى مرداويج الديالمة .

ظهور مرداويج بن زيار:

بدأ حياته أحد قواد أسفار بن شيرويه أمير قزوين . ثم دفعته أطماعه سنة ٣٢٢ إلى الثورة على هذا الأمير ، واستولى بمعونة شيعته من الديلم الجبليين المحاربين الأشداء على قزوين ثم تطلع إلى الرى وأصفهان وكان يليهما يوسف ابن أبى الساج . فاستولى على هاتين المدينتين . وانساحت قواته فى هذا النطاق الجبلى لا تقاوم . فاستولى على طبرستان وجرجان وهمذان (٢) . وتقدمت جيوشه حتى بلغت نواحى حلوان . بل يضيف المؤرخون إلى فتوحه زنجان وقم وبلاد الكرج . وإذا مرداويج شخصية من أهم شخصيات التاريخ الإيرانى

---

(١) البلاذرى ص ٣٢٧ .

(٢) المسعودى ، مروج الذهب ج ٩ ص ٢٣ .

المعاصر، مرهوبة الجانب عظيمة السلطان، بل تطاول بفتوحه حتى حدود العراق. وتأسست بزعامته لبنى زيار دولة فسيحة الرقعة.

ولم يبد أنه قنع بذلك، فقد أراد أن يستولى على بغداد، وينقل الدولة إلى الفرس ويبطل دولة العرب(١)، حتى أن الخليفة المقتدر العباسى لم يجد بداً من أن يعترف بسلطانه، شأنه شأن المتغلبين الذين امتلأ بسيرهم التاريخ الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى. وأقره الخليفة على ما بيده من بلاد وتعهد بدفع جزية سنوية.

ومما أكسب مرداويج أهمية فى تاريخ إيران الإسلامية اتصاله بالديالمة البويهيين فى مستهل ظهورهم واحتضانه لفريق منهم. فقد تولى على بن بويه وأخوه الحسن القيادة فى جيش ماكان بن كالى الديلمى. فلما ثار عليه مرداويج وظهر أمره على نحو ما بينا، انحاز أولاد بويه إلى جانبه. ورأى فى هذا التأييد ما يشد من أزره، فولى على بن بويه بلاد الكرج ثم خشى تعاظم نفوذه فعزله وأرسل إلى أخيه وشمكير بأن يتخلى عن أولاد بويه، بل أعد العدة لأن يطرد على بن بويه من بلاد الكرج (٢)، فتركه إلى مدينة أرجان ثم اصطخر، وانتصر على صاحبها المظفر ابن ياقوت، ثم دخل شيراز سنة ٣٢٢ (٣).

ويبدو أن مرداويج كان من القوة بحيث خاف على بن بويه أن يسرف فى عدائه، فعمل على كسب وده وتملقه ثانية وأقام الخطبة له، وأهدى إليه كثيراً من الطرف وبعث الحسن أخاه رهينة عنده ضماناً لولائه وإخلاصه.

وقد شرع مرداويج ينظم هذا الملك الواسع الذى فتحه بسواعد الديالمة، فاتخذ أبا عبد الله الحسين بن محمد الكاتب الملقب بالعميد وزيراً له، واتخذ جيشاً قائماً، جند له أربعة آلاف من المماليك الأتراك (٤)، إلى جانب خمسين ألفاً من الديلم. ولما ثار عليه غلمانه وقتلوه خلفه أخوه وشكير الذى واجه عداء بنى بويه السافر. ففى سنة ٣٢٧ عز على وشكير أن يستولى ركن الدولة

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٦٥، ٧٢، ٧٣، ٨٤، ٧٥، ١١٣، ١١٤

(٢) مسكويه جـ ١ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٢.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) المسعودى، مروج الذهب جـ ٦ ص ٢٢٦، ٢٢٨.

الحسن بن بويه على البلاد التى فتحها أخوه، فحاربه حتى طرده من أصبهان واضطره إلى التقهقر جنوبا . ولكن قوة البويهيين الصاعدة لم يكن من المعقول أن تقف فى وجهها دولة متداعية بعد وفاة مؤسسها الأول. ففى سنة ٣٣٠ انتزع ركن الدولة (١) مدينة الرى ، كما استطاع محمد بن المظفر بن محتاج والى نصر بن أحمد على خراسان وبلاد طبرستان وجرجان أن يرغم وشمكير على الرحيل إلى بلاد الجبل ليقدم فروض الطاعة لنصر بن أحمد ولابنه نوح . ولما تولى منصور بن نوح السامانى أحب أن يستفيد من عدائه للبويهيين فبعثه على رأس جيش كبير لمحاربة ركن الدولة بن بويه ولكنه مات فى الطريق (٢) فخلفه ابنه قابوس(٣). واحتفظ بنو زيار بأمارة صغيرة فى أقصى الشمال من إيران قضى عليها البويهيون آخر الأمر . على كل حال يمثل مرداويج وأخوه وشمكير قوة الديالمة التى بدأ نجمها يعلو فى سماء إيران فى مستهل القرن الرابع الهجرى .

* * *

قيام الأمارات المستقلة والقومية الايرانية :

ليس المقصود أن ندرس تاريخ هذه الإمارات وما صحب ظهورها من أحداث سياسية دراسة مفصلة ، إنما المقصود أن نكشف فى خطوط عامة طبيعة هذا الدور من الظهور السياسى الذى بدأ بظهور الطاهريين ، وانتهى بسيطرة البويهيين على إيران كلها . وكيف كان ظهور هذه الدول وتفكير مؤسسيها السياسى تعبيراً لا شك فيه عن قومية إيرانية واضحة .

وأول ما يلاحظ أن جميع هؤلاء المؤسسين كانوا مجرد ولاة من الفرس انتهزوا فرصة ضعف الخلافة العباسية وحصلوا على الاستقلال ، وتوارثه بعدهم أبناؤهم أو أهل بيتهم، وخضعوا خضوعاً اسمياً للخلافة العباسية . ولكن نفوذهم السياسى لم يتجاوز هذا الحد بدليل الألقاب التى اتخذوها والتى نقشوها على سكتهم

---

(١) حسن ابراهيم ج ٣ ص ١٠٩ .
(٢) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٢٧ .
(٣) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٢٧ .

فلم يلقبوا بألقاب السلاطين إنما ظل الواحد منهم يلقب بقلب الأمير أو الأصفهبذ أو الملك(١).

هذا ولم تستطع قوة من هذه القوى التي أشرت إليها أن تغلب على إيران كلها في حركة سياسية شاملة. إنما الذي حدث أن كل إقليم من أقاليم إيران أو كل ولاية من ولاياتها حصلت على الاستقلال الذاتي. وظهرت فيها إمارة تنظر إلى الإمارات الأخرى نظرة العداء. ولم يكن هناك تفكير في قومية إيرانية شاملة فهذه المرحلة إذن هي مرحلة الاستقلال المجزأ.

ورغم هذا فإن ظهورها كان تعبيراً عن القومية الإيرانية تجلى في انتساب أغلبهم إلى الفرس وإشادتهم بهذا النسب، وإسراف من أرخ لهم في إظهاره والتركيز عليه كما تجلى في إحيائهم الكثير من تقاليد الفرس السياسية. وتشبههم بملوك الفرس القدماء وإقامة بلاط جاذب للقوى الثقافية التي ساعدت على نشاط حركة الإحياء الفارسية. وكان ذلك كله في أغلب الأحيان في نطاق الولاء للخلافة العباسية، كما أن بعض هذه الإمارات لم يتورع أن يشهر السلاح في وجه الخليفة.

أما عن انتسابهم للفرس فأمر لا خلاف فيه، فمؤسسو هذه الدول جميعهم كانوا من أصل إيراني. فآل طاهر انتسبوا إلى رزيق بن ماهان مولى طلحة ابن عبيد الله الخزاعي والي سجستان من قبل علم بن زياد. فهم إذن من الموالي الفرس الذين أسلموا في العصر الأموي الأخير وبرزوا في خدمة الدولة الأموية(٢). ويعتبر براون(٣) أن الدولة الطاهرية أول الدول الفارسية الخراسانية التي قامت بعد الإسلام. وقد عاصر أبو الريحان البيروني كلا من السامانيين والزياريين وعرض لأنسابهم. فعندما عرض لشمس المعالي قابوس بن وشمكير الزياري عرض لنسب بني زيار الفارسي فذكر أن هذه الأسرة من أصل شريف الطرفين،

---

(١) براون، تاريخ الأدب في إيران ص ١٠٥.

(٢) Barthold pp. 208—209.

(٣) تاريخ الأدب في إيران ص ١٩.

فأما أحد الأصلين فورادنشاه الذى لاتجهل سيادته فى الجبل، وأما الأصل الآخر فلوك الجبال الملقبون باصفهبذية طبرستان والغرجوار جرشاهية . وليس ينكر اعتزاء من كان منهم من أهـــل بيت الملك إلى ما يجمعهم بالأكاسرة فى شعب واحد ، فإن خاله هو الأصفهبذ رستم بن قارن وآل قارن (١) إحدى الأسر السبع الرفيعة على أيام الساسانيين الذين كان العرب يسمونهم «أهل البيوتات» . ويمضى البيرونى متسلسلا بنسبهم حتى يصلهم بالملك الساسانى قبـــاذ (٤٤٨ - ٥٢١) (٢).

ويشير البيرونى أيضاً إلى بنى سامان وكيف أنهم ينتسبون إلى أسرة فارسية عريقة فى المجد ، كانوا من أشراف بلخ ومن كبار كهنة زرادشت . وقد ارتد سامان عن مذهب زرادشت واعتنق الإسلام وسمى ابنه على اسم أسد بن عبدالله القسرى عامل خراسان فى أواخر عهد الأمويين . وظهر أولاد أسد بن سامان فى عهد الخليفة المأمون (٣). بل يذكر البيرونى أن آل سامان يعقد الإجماع على صحة نسبهم إلى بهرام جوبين الذى كان مرزبانا على بعض ولايات فارس أثناء حكم كسرى برويز (٥٩٠ - ٦٢٧) (٤).

ولم يكتف هؤلاء الأمراء بتأكيد هذا الانتساب إلى الأكاسرة الفرس بل راح بعضهم يعمل على التشبه بالفرس فى نظم الحكم وإحياء الكثير من التقاليد الفارسية القديمة وخاصة آل زيار . فقد روى أن مرداويج سأل عن تيجان الفرس وهيئتها فمثلت له فاختار صفة تاج كسرى . فعمل له تاج من الذهب جمعت فيه أنواع الجوهر ، وضرب له سرير من ذهب رصع بالجوهر فجلس عليه وجعل عليه منصة عظيمة وجعل أمامه سريراً من الفضة عليه فرش مبسوط ، ودون ذلك كراسى مذهبة ليرتب أصحاب الأقدار مراتبهم فى الأجلاس (٥). كما يذكر أنه كاتب عاملا له أن يعد إيوان كسرى منزلا ، وأن يعمره كهيئته قبل

---

(١) تاريخ الأدب فى إيران ص ١١٩

(٢) نفس المصدر والصفحة

(٣) حسن إبراهيم ج ٣ ص ٧٣

(٤) براون ، تاريخ الأدب فى إيران ص ١٠٩ .

(٥) مسكويه ج ١ ص ٤٨٨ ، الصولى ، الأوراق ص ٢٨١

الإسلام(١) . ولما حضرت ليلة الوقود فى أصفهان جمعت الأحطاب من الجبال والنواحى البعيدة وأعدت الشموع العظام، وعمل لمجلسه الخاص تماثيل وأساطين كبيرة من الشمع وحشد على رؤوس الجبال ما لم تجر العادة بمثله(٢) .

وإذا كان آل زيار قد جهروا على هذا النحو فإن غيرهم من الأمراء مثل الطاهريين والسامانيين الذين ظهروا بمظهر الولاء الكامل للخلافة العباسية كانوا فى حياتهم الخاصة ومجالسهم وبلاطهم ودواوينهم إنما يحيون النماذج الفارسية القديمة .

ولم يأنف بعض هؤلاء الأمراء من أن يشهر السيف فى وجه الخلافة وأن يرفع برقع الولاء الزائف، مثل ذلك موقف يعقوب بن الليث الصفار من الخليفة المعتمد الذى جمع ببغداد حاج خراسان والرى وطبرستان وجرجان وقرىء عليهم كتاب الخليفة بلعن يعقوب وأرسلت عشرات النسخ من هذا الكتاب إلى الأمصار لتذاع بين الناس . وقد عمل يعقوب على قصد بغداد نفسها وحمل الخليفة على الإذعان لمطالبه (٣) . ويقول براون (٤) أن استقلال بلاد الفرس يمكن أن يقال أنه بعث عن طريق هذه الأعمال الباهرة التى قام بها يعقوب ابن الليث رغم أنه لم يكن من بيت عريق . ويذكر أيضاً (٥) أن الدولة الصفارية مثلا كانت أيامها الأولى أقل خضوعا وأكثر استقلالا من الدولة السامانية . ويشير صاحب الفخرى (٦) إلى أن مرداويج كان ينوى قصد بغداد وتشعيث الدولة .

ويكفى تأييداً لهذه النزعة الإيرانية الواضحة أن نذكر أن بلاط بعض هؤلاء الأمراء كان من أهم المراكز التى كانت تجذب الناظمين بالشعر الفارسى

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب ج ٦ ص ٢٧ ـ ٢٩
(٢) متز الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٧
(٣) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٩٦
(٤) تاريخ الأدب فى إيران ، ج ص ٣٤١ـ٣٤٧ .
(٥) تاريخ الأدب فى إيران ص ١٩ .
(٦) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٥١ .

الجديد كبلاط السامانيين فى بخارى وقصر شمس المعالى قابوس بن وشمكير فى طبرستان .

* * *

جـ - العصر البويهى (٣٢٠ - ٤٤٧) - الاستقلال الشامل.

سنة ٣٢٠ بداية لأحداث هامة فى تاريخ عنصر الديلم بصفة خاصة وتاريخ إيران بصفة عامة . إذ لم يعد ظهور الديلم وتغلبهم قاصراً على ديارهم الأصلية فى طبرستان والرى منطلقين خلف بنى زيار . إنما تجاوزوا هذا الموطن الأصلى لينطلقوا فى الحياة الإسلامية وليؤسسوا الإمارات البويهية ، ثم لتمتد نفوذهم بزعامة بنى بويه على أغلب الوطن الإيرانى ثم ليفرضوا نفوذهم على الخلافة وليحكموا العالم الإسلامى باسمها . فكانوا إذن آخر العناصر الإيرانية ظهروا تحت علم الخلافة . إذ سيعقبهم السلاجقة من الأتراك الشرقيين ، وعلى أنقاض السلاجقة سيندفع المغول ليجتاحوا إيران ويزيلوا الخلافة العباسية من بغداد .

ونستطيع أن نتبين معالم الطريق الذى انطلق فيه بنو بويه لينشئوا إماراتهم الأولى . فما كاد الأمر يستقر لمرداويج بن زيار الديلى ويذيع صيته حتى توافد عليه ثلاثة من قادة الديلم كانوا فى خدمة ماكان بن كالى . وشعروا أن خدمتهم عند ماكان لا تحقق أطماعهم ، فتركوه قائلين « الأصلح لك مفارقتنا إياك لتخف عنك مؤنتنا ويقع كلنا على غيرك ، فإذا تمكنت عاودناك » (١)

كان هؤلاء الثلاثة هم على والحسن وأحمد أولاد بويه . ومضوا إلى مرداويج ومعهم جماعة من رجال ماكان وانضموا إليه . وكان مرداويج فى أمس الحاجة إلى أن يشتد أزره بالديلم ، وأن يتكاثر عددهم ليستطيع أن يحقق مشروعاته ، فرحب بهم وخلع على على وأخيه الحسن ، وولى القواد الذين وصلوا معه النواحى ، كما ولى علىّ بن بويه بلاد الكرج ، وكتبت لهم العهود ، وبعثهم إلى أخيه مرداويج بالرى لينفذهم إلى أعمالهم (٢) .

---

(١) مسكوية جـ ٥ ص ٤٣٧ .

(٢) حسن ابراهيم جـ ٣ ص ٤٢ - الخضرى ص ٣٧٥ . Browne Vol. I p. 367

ولكن يبدو أن مرداويج ما لبث أن اكتشف أن أولاد بنى بويه أطماعهم أبعد من مجرد قواد يعملون تحت إمرته ، فساوره الشك فى أمرهم (١) . فكتب إلى أخيه وشمكير أن يمنع القواد ويمزق العهود التى تلقوها . وتشاء الظروف أن يمنع القواد جميعهم وأن يفلت على بن بويه بفضل نصيحة وزير مرداويج الملقب بالعميد . فلما أراد وشمكير أن يسير إليه من يرده خوفه العميد وقال له إنه لا يرجع طوعا وقد يقاتل من يتصده ، ومن الأجدر تركه ، فقد أعجب العميد بفضائل تحلى بها على سماحة وشجاعة وسعة صدر وحسن سياسة(٢) .

فكان هذا الإفلات بداية لظهور على وميلاداً للإمارة البويهية الجديدة . فقد مكن لنفسه من بلاد الكرج وأحسن إلى العمال والناس وبذل وأنفق وفتح قلاعا للخرمية (٣) . وظفر بذخائر عظيمة أنفقها فى استمالة الرجال ، فانتشر ذكره وقصده الناس . ولم يكثر عدد أتباعه استمال بعض رجال مرداويج ، فأعطاهم وأحسن إليهم فدخلوا فى طاعته . وأسس الإمارة الأولى فى بلاد الكرج فقد جبى أموالها واستأمن إليه شيرزاد من أعوان قواد الديلم . فلما أحس من نفسه قوة ومن جيشه كثرة سار بمن معه إلى أصفهان وحارب صاحبها المظفر بن ياقوت وهزمه وانتزع المدينة منه .

ويبدو أن قوة على أرهبت مرداويج وأخافته ، فعدل عن سياسة التلويح بالقوة وأراد أن يستخدم الدهاء والحيلة ، فراسل عليا يعاتبه ويذكره بفضله عليه ويستميله ويطلب إليه أن يخطب له على منابر البلاد التى فتحها فى الوقت الذى عهد فيه إلى وشمكير أخيه أن يقضى عليه . ولم يفت قصده على على بن بويه ، فرحل عن أصبهان وسار إلى أرجان فاستولى عليها ، وقصد رامهرمز فأخضعها ومنها انطلق إلى النوبندجان سنة ٣٢١.وسار إلى اصطخر حيث قضى على المظفر بن ياقوت (٤) .

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٠٠ .
(٢) متز ، الحضارة الإسلامية ج ٢٨٩١ .
(٣) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٤٣ .
(٤) حسن ابراهيم ج ص ٤٣ .

وكلما اتسع سلطانه على اتسع نطاق آماله . فلم يكتف بما وصل إليه إنما قصد شيراز وفتحها واستولى على أموال ابن ياقوت . وتكاثر أعداد مؤيديه وتأكد سلطانه وأراد أن يكسب إمارته الناشئة سنداً شرعياً ، فراسل الخليفة الراضى بالله يعرفه أنه على الطاعة و يطلب أن يولى ما بيده من البلاد لقاء مليون درهم ، فاعترف الخليفة به . وبعث إليه بالخلع والألوية .

ولم يكن على بن بويه ممن يحسنون استخدام السلاح فى تحقيق أغراضهم فحسب بل استخدم الدهاء واللين أيضا . فلما علم أن مرداويج خرج إلى الأهواز كتب إليه يستميله واستقر الأمر بينهما على أن يخطب ابن بويه لمرداويج . ومن حسن حظه أن قتل مرداويج سنة ٣٢٣ ، فتخلص من أشد منافسيه خطراً. وأطلق سراح أخيه الحسن بن بويه الذى كان رهينة عند مرداويج ، فانضم إلى أخيه بفارس . وصارت القوى الكبرى التى تتنازع السيادة على إيران ، قوة على بن بويه فى فارس ، ووشمكير فى الرى ، والسامانيين فيما وراء النهر .

وكان النصر للقوة النامية الجديدة قوة بنى بويه . فقد بعث على أخاه الحسن إلى بلاد الجبل ومعه قواته من الديلم والترك فاستولى على أصبهان وعدة مدن من بلاد الجبل . وطرد منها عمال وشمكير ، كما تم له الاستيلاء على همــــذان وقم وقاشان والرى وكنكور وقزوين(١) .

ولم يقنع على بما انتهى إليه أمره من نفوذ ، فقد تطلع إلى الأهواز والعراق حيث الخلافة العباسية الضعيفة ، ولكن لم يرد أن يترك مستقره بفارس . وكان أخوه الحسن مشغولا بإقرار الأمور فى منطقة الجبل ، وأخوهما الثالث أحمد لم يلعب دوراً بارزاً بعد ، فادخره لمهمة الأهواز والعراق ، فاستولى على الأهواز وواسط ، وعندئذ كاتبه قواد بغداد يطلبون إليه المسير نحوهم لإنقاذ العاصمة مما سادها من فتن واضطرابات ، فدخل بغداد فى ١٨ جمادى الأولى سنة ٣٣٤ فى عهد الخليفة المستكفى . وقد لقى المستكفى وبايعه أحمد بن بويه بالخلافة ، كما

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٦٤ ، حسن إبراهيم ج ٣ ص ٤٣ .

بايعة الخليفة بالسلطنة . وخلع الخليفة على بنى بويه الألقاب التى غلبت عليهم فلقب على صاحب إمارة فارس عماد الدولة ، كما لقب الحسن صاحب الرى والجبل ركن الدولة ، ولقب أحمد صاحب العراق معز الدولة . وكانت الزعامة الفعلية لأكبر أبناء بويه على عماد الدولة . وقد أمر الخليفة أن تضرب ألقابهم وكناهم على النقود . وكان معز الدولة أحمد بن بويه يخطب على منابره باسم الخليفة وباسم زعيم بنى بويه عماد الدولة .

هكذا استقر بنو بويه ببغداد عاصمة الخلافة ، ليس مجرد عمال للخليفة قادة للجيش أو أصحاب للشرطة كما كان شأن آل طاهر ، إنما فرضوا سلطانهم على الخليفة نفسه ، واتخذوا من وجودهم فى بغداد فرصة لنشر نفوذهم فى العالم الإسلامى كله فى سنة ٣٣٤ تصدى معز الدولة لناصر الدولة بن حمدان وحاربه وناوأ البريديين . وصحب الخليفة المطيع معه فى استيلائه على البصرة وطرد البريديين منهـــا(١) .

وتألق نجم الديالمة فى عهد معز الدولة الذى حكم فى بغداد نحواً من اثنتين وعشرين سنة (من ٣٣٤ إلى ٣٥٦) . وقد كانت له السلطة فى بغداد والعراق . وكانت علاقته بأخويه عماد الدولة فى فارس وركن الدولة فى الرى وهمذان وأصبهان تقوم على أساس متين من المودة والصفاء . وتوفى سنة ٣٥٦ وخلفه ابنه بختيار عز الدولة (٣٥٦ — ٣٦٧) فكاد أن يقضى على هيبة بنى بويه بحماقته وسوء تدبيره فلم يجد عضد الدولة بن على بن بويه خاصة بعد وفاة أبيه زعيم البيت وصاحب الأمر فيه بداً من التدخل فى العراق سنة ٣٦٦(٢) .

وقد عاود النفوذ البويهى الانطلاق مرة أخرى فى عهد عضد الدولة ، فى سنة ٣٦٨ استولى على الموصل وديار ربيعة وميافارقين وآمد وديار بكر وديار مضر . وهرب أبو تغلب الحمدانى لاجئاً عند الخليفة العزيز الفاطمى(٣) . وكان أول من لقب بلقب ملك فى الإسلام . وخطب له على المنابر بشاهنشاه الأعظم

---

(١) متز ج ١ ص ٢٤ ، حسن ابراهيم ج ٣ ص ٤٤ .
(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٣٣—٢٣٤ .
(٣) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٤٧ .

ملك الملوك(١) .

ولم يبلغ أحد من أمراء بنى بويه ما بلغه عضد الدولة من سطوة الملك وسعة النفوذ ، فقد امتد نفوذه على بغداد والعراق وكرمان وفارس وعمان وخوزستان والموصل وديار بكر وحران ومنبج(٢) . كان عصر عضد الدولة أعظم انطلاقة لبنى بويه خاصة والديالمة عامة ، فآلت إليهم مقاليد القيادة السياسية فى العالم الإسلامى كله بصورة فريدة لم تعرف من قبل ، وكانت السيادة أو السطوة البويهية تتمثل فى عضد الدولة أصدق تمثيل(٣) . وتجلت له القدرات والمواهب التى أعانته على بلوغ هذه المنزلة ومكنت للنفوذ البويهى من الحياة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى .

وتكشف المصادر عن الأسلوب الذى استخدمه عضد الدولة فى الحفاظ على هذا السلطان الواسع لبنى بويه . فمثلا كان يعنى بمعرفة الأخبار وسرعة وصولها . فكان يسأل عن الأخبار الواردة ، فإذا تأخرت غضب غضباً شديداً . وكانت الأخبار تصل من شيراز إلى بغداد فى سبعة أيام فتقطع كل يوم ما يزيد عن مائة وخمسين كيلو مترا(٤) . واستخدم نظام الجاسوسية . كان يبحث عن أشراف الملوك وينقب عن سرائرهم . وكانت أخبار الدنيا عنده ، حتى لو تكلم إنسان بمصر رقى إليه ذلك . حتى أن رجلا بمصر ذكره بكلمة فاحتال حتى جاء ووبخه عليها ، ثم رده فكان الناس يحترزون فى كلامهم وأفعالهم مع نسائهم وغلمانهم(٥) . وكان بارعا فى اختيار الولاة والعمال ، وطهر السبل من اللصوص وقضى على قطاع الطرق . وأقر النظام فى صحراء بلاد العرب وصحراء كرمان. وأقام للحجاج السواقى فى العراق وحفر الآبار وأمر بعمارة منازل بغداد. وحفر آبارها وعمر المساجد الجامعة وجلب الفروس من فارس وسائر البلاد. وكان يوطن البدو

---

(١) ابن العميد ص ٢٣٦ — ٢٣٩ .
(٢) آدم متز جـ ١ ص ٤٣ .
(٣) متز جـ ١ ص ٣٣ .
(٤) آدم متز جـ ١ ص ٣٤ ، ٣٥ .
(٥) متز جـ ١ ص ٣٥ .

فى فارس وكرمان ليزرعوا الأرض ويعمروها(١).

ولم تكن العراق مركز الدولة فى عهده، بل كان مركزها فى فارس حيث كان يتم قاضى القضاة ويعين أربعة خلفاء له على أرباع بغداد(٢). وكان عضد الدولة قد تعلم على أحسن المعلمين وكان يفخر بهم، وكان يحب العلم والعلماء ويرتب الجرايات للفقهاء والمحدثين وسائر أهل العلم(٣). وكانت له مكتبة عظيمة. وكان هو نفسه يتذوق الأدب ويحب الشعر ويجيز الشعراء، ويفضل مجالس الأدباء على مجالس الأمراء. وكان يقرض الشعر وينشده (٤). فلا غرو أن كان عهده نموذجا للتألق البويهى. ولم يخرج بيت بنى بويه بعد عضد الدولة جيلا يصلح للحكم (٥).

لم يستطع ابنه أبو كاليجار المرزبان الذى لقب صمصام الدولة أن يملأ الفراغ الذى تركه أبوه. فقد نازعه أخوه شرف الدولة. وكان نفوذه يمتد على أصبهان والرى وشيراز. وطمع فى العراق وانضم إليه جنود صمصام الدولة ودخلوا فى طاعته. وقد سار إلى الأهواز ومنها إلى واسط وتمكن من قهر أخيه وتوحيد صفوف الأتراك والديلم. وتقلد سلطنة بغداد، فتلقاه الخليفة الطائع وهنأه بالفتح والظفر وطوقه وسوره وكتب له عهداً وولاه ماوراء بابه، وعقد له لواءين ولقبه شاهنشاه»(٦).

وتوفى شرف الدولة سنة ٣٧٨ وخلفه أخوه أبو نصر الملقب بهاء الدولة وضياء الملة. ثم دب الانقسام فى جسم الدولة البويهية سنة ٣٧٩، فقد فر صمصام الدولة من معتقله وانتصر على جيش بهاء الدولة قرب شيراز سنة ٣٨٠. وتم الصلح بينهما على اقتسام النفوذ على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان ولبهاء الدولة خوزستان والعراق. ولكن هذا الصلح لم يدم طويلا، فاختصما

---

(١) مسكويه ج ٦ ص ٥٢.

(٢) متز ج ١ ص ٣٦.

(٣) متز ج ١ ص ٣٦-٣٧.

(٤) متز ج ١ ص ٣٧.

(٥) ابن خلكان ج ١ ص ٤١١.

(٦) ابن العميد ص ٢٤١.

مرة أخرى ، وانتهى الأمر بمقتل صمصام الدولة سنة ٣٨٨(١) . وازداد الانقسام وضوحا بعد وفاة بهاء الدولة سنة ٤٠٣ . فاشتعلت الحرب بين أبي الفوارس قوام الدولة وبين أخيه سلطان الدولة . واضطر أبو الفوارس إلى الاستنجاد بمحمود الغزنوى . وبدأت طوائف الجند تذكى هذا الصراع وتنصر فريقا على فريق . وثار الجند فى وجه سلطان الدولة تأييداً لأخيه شرف الدولة . فلم يجد بداً من الاستجابة لرغباتهم وترك بغداد مستخلفا شرف الدولة(٢).

ولم تهدأ الفتن فى عهد جلال الدولة (٤١٦ — ٤٣٥ هـ) ، فقد زاد نفوذ الأتراك تدخلا فى شئون الدولة وتولية الأمراء وعزلهم ، فثاروا فى وجه جلال الدولة أكثر من مرة . وثارت الفتن بين الأمراء البويهيين ، واختلت المملكة أيام جلال الدولة وقطعت عنه حتى أخرج ثيابه وصار أكثر الأبواب مغلقاً . وانقطع ضرب الطبول فى أكثر الأيام لانقطاع الطبالين ، (٣) .

وتعرض جلال الدولة لمطامع أبى كاليجار ابن سلطان الدولة وأصبحت البصرة سنة ٤٢٤ ميدانا للصراع بين جلال الدولة وعماد ابن أخيه . وأشار ابن الأثير(٤)إلى النزاع الذى قام بين جلال الدولة البويهى وقرواش بن المقلد القيلى صاحب الموصل .

واستمرت الدولة البويهية تتجرع كأس الفتنة وتعانى من نفس أسباب الضعف والفرقة فى عهد أبى كاليجار (٤٣٥ — ٤٤٠) الذى اغتصب السلطنة من الملك العزيز بن جلال الدولة . وكان الأتراك السلاجقة قد بدأت أطماعهم تتجه إلى إيران والعراق وظلت هذه الفتن لاتهدأ حتى ملك آل بويه فى عهد الرحيم سنة ٤٤٧ .

على كل حال استفاد البويهيون إلى أبعد الحدود من أخطاء العصر الذى عاشوا

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٩ ، ٤١٢ ، ٤٩ ، ٥٣
(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ١١٨ .
(٣) متز جـ ١ ص ٢٣٩ .
(٤) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٨٢ — ١٨٣ .

فيه ، وتخلقوا بخلقه ، واستعانوا بالدهاء والمكر والمهارة والجندية . وكانوا لايترددون فى ترك خدمة قائد إلى خدمة آخر يدفع لهم أكثر من الأول[١] هذا إلى جانب القدرة على جمع المال بكل وجه ليدخروه ، ويكون بين أيديهم دائما . كان ركن الدولة صاحب الرأى ، لايستجيب إلى عمارة نواحيه خوفا من إخراج درهم واحد من الخزانة ويقنع بارتفاع ما يحصل للوقت[٢] » . وقد جمع عضد الدولة بما كان فيه من حرص ودهاء ثروة طائلة ، وكذلك ترك فخر الدولة مالا عظيما . فقد ذكر الصابى أنه ترك ٢٨٤ر١٧٥ر٢ دينارا ومن الورق والنقد والفضة ٧٩٠ر٠٠ ٨ر١٠٠ . ومن الجواهر والياقوت واللؤلؤ والماس والبلور والسلاح وضروب المتاع شيئاً كثيراً . وكان شحيحاً حتى كانت مفاتيح خزائنه فى كيس من الحديد مسمر بالمسامير لايفارقه ، كما يذكر ابن الجوزى أن بهاء الدولة جمع من الأموال مالم يجمعه أحد من بنى بويه . وكان يبخل بالدرهم الواحد ويؤثر المصادرات[٣] .

أما عماد الدولة فكان أشبه بالتاجر المخادع ، فقد طلب من الخليفة الراضى أعمال فارس ، على أن يؤدى كل سنة مائة ألف درهم . وأرسل ابن مقلة بالخلع واللواء على ألا يسلمها إلا بعد تسلم الخراج . ولكن عماد الدولة إحتال حتى تسلم الخلع ولبسها ودخل بها شيراز وبين يديه اللواء ، ولم يدفع من المال شيئاً حتى مرض الرسول ومات بشيراز[٤] .

هذا إلى اللين والمسالمة والمعرفة بطبائع الناس ، فكانوا يحسنون معاملة الأسرى ويعفون عنهم ويؤمنونهم من جميع مايكرهون حتى يطمئنوا إليهم[٥] ، كما فعل على بن بويه . وكان ركن الدولة حليما واسع الكرم حسن السياسة لرعاياه وجنده[٦] . كما اتصفوا — على الأقل من الجيل الأول المؤسس للدولة — بالتضافر

(١) متز ج ١ ص ٢٨ .
(٢) مسكويه ج ٨ ص ٥٧ .
(٣) متز ج ١ ص ٢٩ .
(٤) متز ج ١ ص ٣٠ .
(٥) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٩٣ .
(٦) ابن الأثير ج ٨ ص ٤٩٣ .

الوثيق والطاعة التامة . ويرجع الفضل فى ذلك إلى صفات على بن بويه صاحب الفضل فيما بلغه آل بويه من قوة وعزة . ومن أمثلة طاعته أن معز الدولة أصغر الأخوة الثلاث لما قابل أخاه عماد الدولة فى أرجان سنة ٣٦٣ قبل الأرض بين يديه . وكان يقف حتى يأمره بالجلوس فلا يفعل(١) ولما مات الأخ الأكبر انتقلت الرئاسة إلى أخيه الثانى ركن الدولة فى الرى ، فلم يخالف معز الدولة أمره . ولما أحس معز الدولة بدنو أجله أوصى إبنه بطاعة ركن الدولة واستشارته ، وكذلك ابن عمه عضد الدولة لما له من سن وعلم بالسياسة (٢) .

وقد تميز العصر البويهى فى تاريخ الحركة القومية الإيرانية بميزات هامة منها : أن عصرهم يمثل التعبير الشامل من القومية الإيرانية وعن الوطن الإيرانى بأقسامه الجغرافية المختلفة . وقد رأينا القوى السابقة يعبر كل منها تعبيراً جزئياً عن هذه القومية . وقد شمل نفوذ البويهيين الحدود الإيرانية الحقيقية الممتدة من العراق إلى آسيا الوسطى . فعهدهم من هذه الناحية أصدق تمثيلا للمرحلة الثانية من تاريخ القومية الإيرانية .

وهناك مظهر آخر هو أن القومية الإيرانية لم تكتف بمجرد تكتل الوطن الإيرانى خلف زعامة إيرانية خالصة ، إنما فرضت نفوذها على العالم الإسلامى كله . وذلك حين استطاع البويهيون بعد دخولهم بغداد سنة ٣٣٤ أن يفرضوا سيطرتهم أولا على منصب الوزارة . ذلك أن أحمد بن بويه لما دخل بغداد ، كان أول ما طلبه من المستكفى أن يستكتب ابن شيرزاد ، وكان المستكفى قد حلف ألا يتصرف إبن شيرزاد فى أيام دولته . لكنه أجاب عماد الدولة إلى ماطلب عن كره منه (٣) فكان ذلك تطوراً جديداً فى تاريخ الوزارة (٤).

وقد عرض هلال الصابى فى كتابه تاريخ الوزراء لأهم وزراء القرن الرابع، وهو يقسمهم طائفتين : وزراء الدولة العباسية ثم كتاب أيام الديالمة (٥) . ومما

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٥٣ .
(٢) متز ج ١ ص ٤١ .
(٣) متز ج ١ ص ١٧ .
(٤) متز ج ١ ص ١١٨ ـ المسعودى التنبيه ص ٣٩٩ ـ ٤٠٠ .
(٥) الوزراء ص ٣ .

يدل على سقوط هيبة الوزارة أن معز الدولة البويهى - وكان سريع الغضب - ضرب وزيره أبا محمد المهلبى ؛ حتى إذا جاء بختيار بن معز الدولة استوزر صاحب مطبخه (١) وهو الوزير ابن بقية (٢) . وقد أحدث عضد الدولة فى منصب الوزارة أمرين لم يكونا قبله . فقد اتخذ وزيرين معاً كان أحدهما نصرانياً . وأصبح هذا تقليداً سار عليه خلفاؤه من بعده (٣) ،

ولم يكتف البويهيون بالسيطرة على منصب الوزارة وامتهانه إلى هذا الحد بل تولوا منصب أمير الأمراء ، فقد عين معز الدولة ابنه بختيار اميراً للأمراء سنة ٣٣٤ . وظل هذا تقليداً لم يخرجوا عنه (٤) .

وأهم من هذا أن آل بويه الديالمة أصبحت لهم السيطرة على الخليفة حتى أضحى فى الحقيقة آلة فى أيديهم يحركونها كيف يشاؤون (٥) . وقد أصبح بنو بويه فى عهد الخلفاء الذين عاصروهم مطلق التصرف فى العراق ، ولم يتورعوا من التعدى على أشخاص الخلفاء وانتقاص حقوقهم . فمعز الدولة لما دخل بغداد فكر فى إزالة الخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية مكانها لولا أنه خاف أن يتعرض سلطانه للخطر . وقد ذكر ابن (٦) الأثير أن معز الدولة أهان الخليفة المستكفى وقبض عليه ولما جاءوا إليه ليخلصوه رضى أن يخلع نفسه ولكنه اشترط ألا يقطعوا شيئاً من أعضائه (٧) . ولكن عينيه سلختا وولى المطيع الخلافة مكانه ، وحدد له ألف درهم فى اليوم ، ثم قطع ذلك الراتب وحدد البويهيون له إقطاعات يسيرة يعيش منها ، كما عينوا له كاتبا يتصرف فى شئونه . أما عز الدولة بختيار فسرعان ما خلع المطيع وولى الطائع الخلافة (٧) . وما لبث

---

(١) متز ج ١ ص ١٢٠ .

(٢) متز ج ١ ص ١٢٠-١٢١ .

(٣) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٢٤٤ .

(٤) Browne. Vol. I p. 367.

(٥) براون ، تاريخ الأدب فى إيران ص ١٠٥ .

(٦) ج ٨ ص ١٦٢ .

(٧) السيوطى ، الخلفاء ص ٢٧٠ .

العلاقات أن ساءت بين الخليفة الطائع وبين عضد الدولة الذى أمر بحذف اسمه من الخطبة لمدة شهرين ، وحمله على أن تضرب الطبول أمام داره ثلاث مرات فى اليوم وأن يخطب له على منابر بغداد (١) . ولما جاء بغداد سنة ٣٣٧ طلب من الخليفة أن يخرج للقائه ولم تكن العادة جارية بخروج الخلفاء لتلقى أحد الأمراء(٢). كما ساءت العلاقات بين بهاء الدولة والخليفة الطائع فقبض عليه وخلع وبويع القادر بالله سنة ٣٨١ بعد أن صادر أموال الطائع (٣). وازداد نفوذ بهاء الدولة فى عهد القادر فاستبد بالسلطة دون الخليفة الذى « قلده ما وراء بابه »(٤). وقد خلف القادر ابنه القائم بأمر الله سنة ٤٢٢ .

وكان الخليفة القائم فى عهد جلال الدولة وأبى كاليجار والملك الرحيم مسلوب السلطة كغيره من الخلفاء الذين سبقوه فى الوقت الذى أصبح فيه بنو بويه يحكمون العالم الإسلامى كله باسم الخلافة . وقد اتخذ البويهيون الأواخر من التقرب من الفاطميين وسيلة لإثارة مخاوف العباسيين ، حتى لا يرتموا فى أحضان أعدائه السلاجقة السنة .

وقد انفرد البويهيون دون الإمارات التى سبق أن أشرنا إليها بالألقاب التى حملوها والتى عكست السلطان الذى حازوه . فكان البويهيون أول من ثنى لهم اللقب دون سائر الأمراء . فكان عضد الدولة يلقب بتاج الملة . ثم ثلث اللقب فلقب بهاء الدولة بضياء الملة وغياث الأمة(٥).

ويعلق البيرونى على هذا الإسراف فى التلقيب بقوله « وبنو العباس لما لقبوا أعوانهم بالألقاب الكاذبة وسووا فيها بين الموالى والمعادى ونسبوهم إلى الدولة بأسرهم ضاعت دولتهم (٦) » . ولما خلع القادر بالله على محمود بن سبكتكين

---

(١) متز ج ١ ص ٢٠٤ .

(٢) متز ج ١ ص ٢٠٤ .

(٣) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٥٣

(٤) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٤ .

(٥) متز ج ١ ص ١١٧ .

(٦) الآثار الباقية ص ١٣٢ .

صاحب غزنة لقب سلطان طلب الأمير البويهى أن يلقب بالسلطان المعظم مالك الأمم فعدل اللقب إلى مالك الدولة (١) .

ولم يكتف البويهيون بحمل هذه الألقاب التى تشف عن سلطانهم وتنم عن قدراتهم ، بل أحيوا الألقاب الفارسية القديمة . فلما استقرت إمارة شرف الدولة ابن عضد الدولة فى العراق لقبه الخليفة الطائع بلقب شاهنشاه(٢) . وأصبح بعد ذلك علما على من يتولى السلطة منهم . وفى سنة ٤٢٩ زيد فى ألقاب جلال الدولة شاهنشاه الأعظم ملك الملوك ، وهو اللقب الوثنى القديم ، فثار العامة ورموا الخطباء بالآجر . وأفتى الفقهاء أن هذه الأسماء إنما يعتبر فيها القصد والنية ، وأن ملك الملوك معناه ملك ملوك الأرض وليس فيه مماثلة بين الخالق والمخلوق (٣). وقد نقشت هذه الألقاب على العملة وذكرت أسماؤهم فى الخطبة بعد اسم الخليفة ، وخلعت عليهم الخلع السلطانية وتوجوا وطوقوا وعقدت لهم الألوية(٤).

بل وجد البويهيون من المؤرخين من ينسبهم إلى بهرام جور كما نسبهم البعض الآخر إلى كبير وزرائه مهونرسى(٥) . يقول صاحب الفخرى « أما نسبهم فيرتفع من بويه إلى واحد من ملوك الفرس»(٦) .

* * *

---

(١) متز ج ١ ص ١٩٧ .

(٢) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٥٠ .

(٣) متز ج ١ ص ١٩٧ Browne, Vol. I p. 364

(٤) ابن العميد : تاريخ المسلمين ص ٣٢٦ .

(٥) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٣٥ .

(٦) ص ٢٤٦ .

٢ — النتائج الحضارية

والتقدم الحضارى الذى أحرزته جماهير المسلمين فى إيران سار فى نفس الطريق الذى سلكه التقدم السياسى وقد مر بمرحلتين متمايزتين .

(ا) المرحلة الأولى موازية للمرحلة التى قطعتها العناصر الإيرانية فى مجال التقدم السياسى طوال العصر العباسى الأول . وقد ظهر أثر الإيرانيين فيها واضحا فى نظم الحكم والحياة الاقتصادية ، والاجتماعية وفى الحياة الثقافية .

ولكن هذا التقدم كان فى نطاق العروبة وتحت علم الخلافة .

(ب) والمرحلة الثانية موازية لمرحلة الإمارات الإسلامية المستقلة والنفوذ البويهى فى الوقت الذى وضح فيه ضعف الخلافة وفقدان سلطانها . وأهم ما تميزت به هذه المرحلة نهضة الأدب الفارسى شعرا ونثرا .

ا ـ المرحلة الاولى . تقدم العناصر الايرانية فى نطاق العروبه وتحت علم الخلافة .

١ ـ نظم الحكم

كان من أثر إسلام الإيرانيين واعتماد الدولة العباسية عليهم وتقدمهم ذلك التقدم السياسى الذى بيناه أن بدأت الحياة الإسلامية تشهد إحياء التقاليد الإيرانية فى نظم الحكم . وقد أفاد العباسيون على نطاق واسع من التقاليد الإدارية الفارسية القديمة . يقول برنارد لويس « وكانت الادارة عند العباسيين تطورا للإدارة عند الأمويين المتأخرين واعترف المنصور بدينه الكبير للخليفة الأموى هشام ابن عبد الملك فى تنظيم الدولة(١) » .

إلا أن تأثير النظام الفارسى المعمول به أيام الساسانيين أخذ يزداد قوة وكثير من شعائر العباسيين تقليد متعمد للعادات الفارسية التى أصبحت معروفة إذ ذاك عن طريق الموظفين الفرس(٢) . وقد كان المنصور فى الحقيقة هو المشرع الإدارى للعصر العباسى ، كان يسير على خط هشام بن عبد الملك فى الإفادة من التجارب الفارسية القديمة .

---

(١) العرب فى التاريخ ص ١١٩ .

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ١ ص ١٦٤ .

وقد اتخذت هذه الإفادة من تقاليد إيران القديمة صوراً متعددة . فقد كانت استحداثاً لأنظمة جديدة لم تكن موجودة من قبل ، كما أدت إلى تطوير أنظمة قائمة . فمن قبيل استحداث أنظمة لم تكن موجودة من قبل ما كان من نشأة نظام الوزارة وتطورها في العصر العباسي الأول ، فقد استحدث منصب للوزارة تأثراً بتقاليد الفرس ، ولم تتضح صورتها في عهد أبي سلمة الخلال أول الوزراء العباسيين ، ولكنها وصلت إلى قمة التطور في أواخر العصر العباسي الأول . وكانت سلطة الوزير ضخمة ، فقد كان يقضي باسم الخليفة في جميع شئون الدولة . فكان له الحق في تنصيب العمال والإشراف على الضرائب . وكان كذلك ينوب عن الخليفة في حكم البلاد ويجمع في شخصه بين السلطتين المدنية والحربية(١).

وفي استطاعتنا أن نجد صوراً ممتعة عن وزراء العصر العباسي الأول فيما ذكره الجهشياري وهلال الصابي ، عن حياتهم وأساليبهم في العمل ، ووسائلهم وعلاقاتهم بالخلفاء ، وأثرهم في سياسة الدولة وحياتهم الخاصة . هذه المادة الخصبة تبين كيف كانت تقاليدهم وأساليبهم في العمل إحياء للسنن الفارسية القديمة . لقد كانوا فرسا في ثياب عربية .

هؤلاء الوزراء كان لهم أعوان من أرباب الأقلام يسمون بالكتاب ، وكان لكل وزير كاتب أو كتاب يعينونه . وكان أكثر هؤلاء الكتاب فرسا كالوزراء يحتذون حذو أجدادهم من الفرس حتى في مظهرهم . بل إن صيرورة الكتابة طبقة ليس إلا تقليداً للنظام الفارسي . وقد ترك هؤلاء الكتاب أثراً كبيراً في نشر الثقافة وذيوعها . فثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم . وكانت مناصبهم تحتم عليهم أن يعرفوا أحوال الناس الاجتماعية وتقاليدهم . وأن يلموا بعلوم اللغة والآداب وعلوم الدين وعلم الكلام والجغرافيا والتاريخ(٢) . وقد أسهم هؤلاء الوزراء وكتابهم في نشر الثقافة العامة وجمعوا بين الآداب العربية والفارسية .

كما أن اتساع سلطان الخلافة وتنوعها وكثرة مشاكلها الداخلية والخارجية

---

(١) أحمد أمين ، ضحى الإسلام جـ ١ ص ١٦٥ — ١٦٦ .
(٢) أحمد أمين ، ضحى الإسلام جـ ١ ص ١٧٠ .

تطلب التوسع فى الدواوين بصورة لم تكن مألوفة من قبل . وكانت هذه الدواوين كلها تنقسم إلى مجموعتين رئيسيتين : الأولى للتوجيه الإدارى والمكاتبات الرسمية مثل البريد والمراسلات والتوقيع والخاتم ، والثانية مختصة باستتباب الأمن فى الدولة وتوفير الحماية لها مثل الشرطة والحسبة والجند .

وقد تسربت العناصر الإيرانية — كما تقدم — إلى جميع أجهزة نظم الحكم . تسربت إلى جميع الوظائف الصغرى فى العاصمة والأقاليم . بل بدأوا يتولون بعض المناصب ذات الأثر فى توجيه الدولة كمنصب الوزير والكاتب، واحتكروا هذا المنصب طويلا واشتهرت منهم طائفة أمثال الفضل بن سهل وأحمد بن يوسف والحسن بن وهب وغيرهم .

وتطرقت هذه العناصر إلى أرفع المناصب فى الدولة مثل منصب الولاية على البلدان وقيادة الجيش ، إذ تسربت هذه العناصر إلى النظام الحربى للدولة وأصبحت بعض الوقت اليد الضاربة للخلفاء العباسيين . وقد دخل أفراد الطبقة العاملة ميدان الجندية ، وفرض لهم العطاء . وكان الخراسانية أهم العناصر المقاتلة فى الجيش العباسى . كانوا هم فى الحقيقة حرس الخليفة وقوته الضاربة وبيدهم زمام الجيش حتى كان عهد المعتصم ووجد أن خراسان لم تعد المنبع الوحيد الذى يمكن أن يمد الدولة بحاجتها المستمرة إلى العناصر المحاربة . وسيطرت العناصر الإيرانية — كما قلنا — على القيادات العسكرية فى الجيش والأسطول . وفرض لهم العطاء أكثر مما سواهم وجهزوا بأفضل سلاح وأكمل لباس . وكان عطاء الجندى من المشاة زمن أبى العباس السفاح نحو تسعمائة وستين درهما فى السنة فضلا عن الطعام والمخصصات . وكان الفارس يتناول ضعف ذلك . ثم تضاعف مقدار العطاء حتى بلغ أقصاه زمن المأمون . ونظمت فرق الجيش على أسس جديدة .

٢ — الإيرانيون والحياة الاقتصادية .

والثورة العباسية التى فتحت طريق العمل السياسى أمام جماهير المسلمين الإيرانيين فتحت أمامهم فى نفس الوقت الطريق إلى النشاط الاقتصادى . فقد أسقطت القيود التى فرضها الأمويون الأواخر وخففت عن الفلاح عبء الخراج

ورفعت من مستواه . وأعطت العمال فى المدن الكبرى حرياتهم المدنية وأزاحت من سبيلهم كل العقبات . ولكن طبقات أخرى غير العمال والفلاحين استغلت هذا الميدان المفتوح دون قيد فانطلقت فيه إلى الغاية ، وأفادت من النهضة الاقتصادية العظيمة . وظهرت طبقة إقطاعية عظيمة النفوذ بعيدة السلطان تملك المساحات الواسعة من الأرض فى العراق أو الأمصار وتستغل هذه الأرض لصالحها ، وتستدر منها أعظم الثروات . وكذلك نشأت طبقة رأسمالية استغلت الأموال الطائلة فى المشروعات الصناعية والتجارية .

وقد أقطع أبو جعفر المنصور بعض أعيان دولته قطائع من الأرض ليعمروها ويسكنوها مكافأة لهم على ما قدموه من خدمات جليلة . وسرعان ما عمرت هذه القطائع واتسع نطاقها وازدحمت بالسكان وأصبحت كل قطيعة تعرف باسم الرجل أو الطائفة التى تسكنها (١) . والبرامكة فى عصر الرشيد احتازوا الأموال دونه واستولوا على القرى والضياع من النواحى والأمصار (٢) ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل كان للنساء والحظيات إقطاعات يهبها لهن الخلفاء . واضطر المقطعون إلى تدبير أملاكهم عن طريق وكلائهم . واختلفت الإقطاعات حسب الأفراد الذين منحت لهم . فقد منحوا الإقطاعات الرجال المقربين منهم مكافأة على أعمال قاموا بها أو رغبة فى تكريمهم ، فأعطيت للشعراء والأمراء وعلية القوم كإقطاع تمليك . وقد أقطع المنصور ابنه صالحاً إقطاعا من هذا النوع قرب الأهواز . كما أقطع المهدى أفراد حرسه الخاص إقطاعات زيادة على رواتبهم مكافأة لهم . وكان صاحب الإقطاع يعين الفلاحين العاملين فى زراعة أرضه ويمدهم بالبذور وينفق على حفر القنوات وصيانة الأرض .

وظهرت طبقة التجار المياسير الذين أفادوا من التقدم التجارى الذى أشرنا إليه وركبوا البحار وجابوا الأسواق ، وسيروا السفن لحسابهم . وكان لهم الوكلاء والمخازن فى كل مكان . وكان فى مقدورهم أن يحولوا ملايين

---

(١) اليعقوبى ، البلدان ص ٢٤٢ ــ ٢٥٤ .

(٢) المسعودى ، المروج ج ٢ ص ٤٢٢ .

الدراهم ويوقعوا من العقود ما يقوم بالملايين . وعاشوا إما فى الحاضرة بغداد أو فى حواضر الأقاليم أو فى الموانى الكبرى عيشة الترف والنعيم . ويبدو أن بريق التجارة كان شديداً بسبب الأرباح الطائلة التى عادت عليهم . فبدر بن حسنويه مثلا كان يلى منصباً من أرفع المناصب فى الدولة ولكنه لم يترفع عن أن يشترى خانا بمدينة همذان ويفرده باسمه ويقيم فيــه ويبيع ما يشتريه من الأمتعة ، وقد ربح من وراء ذلك أكثر من مليون درهم .

٣ — التطورات الاجتماعية

وحدث فى ميدان التقاليد الاجتماعية ماحدث فى جميع مظاهر الحياة فى العصر العباسى الأول ، فقد تقدمت العناصر الإيرانيــة اجتماعيا . وغلبت التقاليد الفارسية على حياة الناس فى العراق ، بل انتشرت فى العالم الإسلامى كله . غلبت التقاليد الاجتماعية الفارسية : غلبت فى الأزياء ، فانتشرت القلنسوة الطويلة وضروب الأزياء الفارسية . واتخــذ القضاة القلانس العظام . واتخذ الخلفاء العمائم على القلانس ، وتفننوا فى العمامة ونوعوها تبعاً للطبقات كما كان يفعل الفرس . فللخلفاء عمة وللفقهاء عمة والأعراب عمة ولكل قوم زى . ولكل مدينة زى . فمنهم من يلبس المبطنة ومنهم من يلبس الدراعة ، ومنهم من يلبس « البازيكند » . وكان الشعراء يلبسون الوشى والمقطعات والأردية السود . وتمثلت التقاليد الإيرانيــة فى الاحتفال بالنوروز والمهرجان والرام . كان الخلفاء يحتفلون بالنوروز فى أول العام وفى آخره بالمهرجان ، كما تأثروا فى منازلهم بالأساليب الفارسية ، واقتدوا بالفرس فى مظاهر البلاط والحفلات والأعياد والمواسم .

وبنوا الدور على الطراز الفارسى الذى شاع فى بغداد وسامرا وعمارتها وفن زخرفتها وقبابها وعمدها ورياشها وحدائقها . واستخدم العباسيون المطبخ الفارسى على نطاق واسع . وكانت موائدهم تحفل بما كانت تحفل به موائد الفرس .

بل انتقلت هــذه التقاليد إلى البلاد الإسلامية الأخرى ، نقلها الولاة

المبعوثون من بغداد ونقلها القضاة ورجال الدولة . وكان يقلدهم الكبراء الوجهاء . يتحدث الكندى عن ولاة بنى العباس فى مصر وعن حياتهم الخاصة على النسق الذى شاع فى بغداد وعن إجبارهم الناس على لبس القلانس والتشبه بتقاليد الفرس .

٤ — الحياة الثقافية :

والتأثيرات الإيرانية لم تكن قاصرة على النواحى التى أسلفت بل تجاوزتها إلى ميدان الأدب العربى نفســـه . فمن ناحية ، أثر الأدب الفارسى فى الشعر العربى (١) حتى إن شعر القرن الثالث بصفة خاصة كان عربياً فى شكله ونظمه فارسيا فى تعبيره . وقد أقبل الفرس على الأدب العربى يتمكنون منه ، وبرع كثيرون منهم فى قرض الشعر ، وأثر الفرس فى الحكم الإسلامية أو علم الأخلاق عند المسلمين . وعلم الأخلاق هذا قد تأثر بالقرآن والسنة وبالكتب المقدسة . والتأثير الفارسى كان فى غاية القوة ، وابن قتيبة فى عيون الأخبار وابن عبد ربه فى العقد الفريد يصوغان حكما عربية اللفظ فارسية الموضوع . وأثرت العناصر الإيرانية فى الموسيقى والغناء، ودراسة كتاب الأغانى لأبى الفرج تدل على تسرب الكثير من ضروب النظم الفارسى وأساليبه إلى الموسيقى العربية .

ومن مظاهر هذا التأثر أيضاً نشأة مجالس الطرب والمنادمة التى شاعت على الخصوص فى العصر العباسى وأصبحت من الأساليب الشائعة فى بلاط الخلفاء وفى البيوت الأرستوقراطية العربية والفارسية . هذا الأسلوب فى المنادمة إنما هو أسلوب فارسى محض . ولا ننسى الإشارة إلى الرسائل الديوانية فأسلوبها وما تحويه من تقاليد ومبالغات وأساليب خاصة فى التعظيم والتفخيم يدل على أنها فارسية النبع ظهرت للمرة الأولى على يد عبد الحميد الكاتب ثم احتلت مكانها فى تاريخ النثر العربى .

على كل حال تزعمت العناصر الإيرانية الحياة الفكرية بمظاهرها كلها حتى العلوم العربية الخالصة التى كان يظن أنها وقف على العرب ظهر فيها الإيرانيون واحتلوا مكان الصدارة فى النحو والفقه والتفسير وعلم التاريخ . هذا بالإضافة

---

(١) أحمد أمين ، ضحى الإسلام جـ ١ ص ١٦٤ — ٢٢٩ .

إلى العلوم الدخيلة الأخرى مثل الكيمياء والطب وغيرها . وفى ذلك يقول ابن خلدون (١) « إن حملة العلم فى الملة الإسلامية أكثرهم من العجم . . . وإن كان منهم العربى فى نسبته فهو عجمى فى لغته ومرباه ومشيخته » .

وإذا كان قول ابن خلدون هذا فيه بعض المغالاة ، إلا أن الفرس كانوا فعلا أقدر على التدوين والتأليف ، فقد تعمقوا فى الحضارة . وتدربوا منذ القدم على التأليف بلغتهم فلما اعتنقوا الإسلام وتعلموا العربية كان تأليفهم بها سهلا ميسوراً. وكان الموالى فى العصر العباسى الأول فعلا من السابقين الأولين فى تدوين العلوم المختلفة والبراعة فيها . ومنهم أبو حنيفة النعمان الإمام وحماد الراوية الذى روى أكثر الشعر الجاهلى وجمع المعلقات . وكذلك سيبويه والكسائى أحد الأئمة الأعلام فى النحو واللغة والقراءات ، وأحد القراء السبعة . والفراء عالم الكوفة الشهير فى النحو واللغة وفنون الأدب ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى العارف باللغة والغريب وأخبار العرب وأيامهم ، وأبو العتاهية الشاعر الزاهد ؛ وابن قتيبة صاحب المعارف وعيون الأخبار .

وقد كان الإيرانيون طليعة حركة الترجمة من الفارسية إلى العربية . وقد أشار صاحب الفهرست إلى أسماء النقلة من الفارسية إلى العربية (٢) وذكر منهم عبد الله بن المقفع ونوبخت وموسى ويوسف بن خاله وأبا الحسن على بن زياد التميمى والحسن بن سهل والبلاذرى وجبلة بن سالم وإسحق بن يزيد ، ومحمد بن البرمكى وهشام بن القاسم وموسى بن عيسى الكردى وزادويه بن هاشويه الأصفهانى ومحمد بن بهرام بن مطيار الأصفهانى وبهرام بن مروان شاه وعمر ابن الفرخان ، فأثروا التجربة العربية وغذوها بفكرهم القديم .

وكان هؤلاء الإيرانيون الصاعدون إلى النفوذ والسلطان ، المنطلقون فى غير قيد ، قد أتقنوا اللغة العربية إلى جانب إتقانهم لغتهم الفارسية ، فعكفوا على قراءة الكتب الفارسية وأخرجوا باللغة العربية أدبا وشعراً وعلماً ، وأنتجوا فى العربية

---

(١) المقدمة ص ٤٧٧ .

(٢) الفهرست ص ٢٤٤ وما بعدها .

إنتاجاً جديداً . كالفضل بن سهل وسهل بن هارون وابن المقفع . وكان موسى ابن سيار الأسوارى أنموذجا طيباً لهذا الجيل الجديد من المثقفين الذين ملكوا عنان العربية والفارسية ، قال الجاحظ أنه كان من أعاجيب الدنيا وكانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية . وكان يجلس فى مجلسه الذى اشتهر به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره . فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية وللفرس بالفارسية (١) . وكان للفارسية من الجذب الثقافى ما حبب فيها بعض العرب الخلص ، فقد أقبل قوم منهم عليها ووجدوا فيها من الغـــذاء الفكرى ما لم يجدوه فى العربية ، فقرأوا ما كتب بها وتدارسوه وأخرجوا أدباً عربياً جمع بين بلاغة العرب ومعانى الفرس . ومن أمثلة هؤلاء كلثوم بن عمرو بن أيوب الشاعر المعروف بالعتابى ، شغف بالثقافة الفارسية وأعجب بها وله حكم كحكم ابن المقفع .

وقد أنتج الفرس الذين استعربوا أو العرب الذين تثقفوا بالفارسية ثروة أدبية عظيمة ، كانت من أهم ماتميز به العصر العباسى الأول . وكان من الطبيعى أن يبرز الأثر الفارسى فى الأدب العربى بروزاً واضحاً . وكانت كتب الفرس التى ترجمت إلى العربية مثل كليلة ودمنة وهزار أفسانه أساساً للقصص العربى الذى أخرجته الأجيال المتعاقبة . وابن النديم يضرب مثلا للقصص العربى وكيف استقى من ينبوع فارسى واضح بما فعله محمد بن عبدوس الجهشيارى عندما شرع فى وضع كتاب تخير له ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم ، وجلس إلى المسامرين يأخذ عنهم أحسن مايقصون ، واختار الكثير من الكتب المصنفة فى الأسمار والخرافات ، فاجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة . كل ليلة سمر تام يحتوى على خمسين ورقة وأقل وأكثر ، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء مافى نفسه من تتميمه ألف سمر »(٢) .

والحقيقة أنه لا يمكن أن نحصى التأثيرات العظيمة التى تركها الأدب الفارسى فى الأدب العربى ويكفى أن نشير إلى مااشتهر به الفرس القدماء من أدب التوقيعات حينما كان الملوك يوقعون على شكاوى الناس بعبارة بليغة أو حكمة مفيدة يتخيرون

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٣٩ .

(٢) ابن النديم ، الفهرست ص ٣٠٤ .

لها اللفظ الحسن والمعنى الجيد . وقد أفاد العرب الشيء الكثير من توقيعات ملوك الفرس، وكثرت التوقيعات فى العصر العباسى . وكان أكثر الكتاب فرسا فساروا على سنن آبائهم حتى لقد نشأ فيما بعد ديوان اسمه ديوان التوقيع. وما أكثر المعانى الفارسية التى نقلت ونظمت أو قلدت .

« إذن كانت الثقافة الفارسية عنصراً قوى الأثر فى ذلك العصر ، فى الشعر ، فى الأدب فى الحكم فى القصص فى الخرافات والأوهام فى العادات والتقاليد فى نظم الحكم فى دعاة الإصلاح فى رجال اللهـــو والغناء فى الديانات ومذاهب المتكلمين وفى رجال العلم والتدوين »(١) .

كان العصر العباسى الأول هو عصر تقدم العناصر الإيرانية حتى - فى مجال الفكر والثقافة - لكن فى نطاق العروبة وتحت علم الخلافة القوية القادرة .

* * *

جـ - المرحلة الثانية — الإحياء الفارسى :

وكما انتهى التقـــدم السياسى للعناصر الإيرانية بظهور الإمارات الإيرانية المستقلة ثم بظهور البويهيين ، فقد سار تقدم الإيرانيين فى المجال الثقافى فى نفس الخط تقريباً ، فقد صحبت هذه الإمارات محاولات كثيرة للنهضة بالأدب الفارسى شعراً ونثراً .

والفتح العربى لإيران ، إذا كان قد قهرها عسكرياً فإنه لم يقهرها ثقافياً . فكانت الدواوين تكتب بالفارسية حتى عصر عبد الملك بن مروان والوليد ابنه ، كما بقيت دواوين خراسان تكتب بالفارسية نحو قرن كامل . وإذا كان الفرس قد أسلموا فإنهم لم ينبذوا لغتهم القومية نبذاً مطلقاً . بل كانوا يتحدثون بها فى حياتهم اليومية . وكانت لغة مألوفة فى المدن العربية أمثال البصرة والكوفة . وهذا لم يحل دون تعلمهم العربية وتقدمهم فى مجال الثقافة العربية على النحو الذى بيناه . وكانت اللغة العربية لغة الدولة والثقافة وقد أتقنها علماء إيران وبرعوا فيها شعرا ونثرا ، فكانوا أبرع من تحدث باللسانين : الفارسى والعربى . ولهذا لم

---

(١) أحمد أمين ، ضحى الإسلام جـ١ ص ٢٢٨ .

بـكن إحياء الفارسية نبذاً للثقافة العربية نبذا تاما ، بل كانت النهضة الثقـافية العربية تمضى جنبا لجنب مع تلك النهضة الأدبية الفارسية .

والنهضة الأدبية الفارسية لم تولد فجأة فى ظـــل الدول الإيرانية المستقلة . إذ لابد أن هذا الأحياء كانت له جذوره القديمة . وكانت هنالك محاولات سابقة أحاط بها الغموض بحيث لايستطاع توضيحها توضيحا تاما . إذ يحتمل أن الإيرانيين الذين اعتنقوا الإسلام قد بدأوا يكتبون لغتهم بالحروف العربية منذ القرن الثامن الميلادى (١) . وليس ببعيد أن تـكون تلك المحاولات الأولى مجرد متون صغيرة فى التفسير أو فى العقيدة تزيد الناس تمسكنا من الإسلام ، لـكن هذه المحاولات الأولى ضاعت ولم يبق منها شىء (٢) .

ثم مضى هذا التقدم الأدبى للغة الفارسية خطوة أبعد فى القرن التاسع الميلادى إذ يذكر محمد عوفى فى كتابه لباب الألباب أن أول محاولة للنظم بالفارسية قام بها شاعر يدعى العباس ، وقدمت قصيدته للخليفة المأمون عند دخوله مرو . والعباس يقول فى قصيدته تلك « أنه لم ينظم أحد بهذه اللغة من قبيل(١)» . وإذا كان النقاد(٢) يشكون فى صحة ما يذكره عوفى على لسان العباس بسبب لغة قصيدته التى تقرب كثيراً من لغة الشعر الفارسى فى عصر النهضة(٥) . فإن هذا يدل على أن ثمة محاولات أولى بذلها هـذا الشخص فعلا . فالرحالة ابن خرداذبة نقل شعراً فارسياً لرجل يدعى عباس بن طرخان ، وليس ببعيد أن يكون هو نفس العباس الذى قدمت قصيدته المأمون . ومعنى هذا أن هـذه المحاولة الأولى ولدت فى آسيا الوسطى ، بدليل أن هذا الشعر القديم لغة والغنى بصيغه النحوية يسير إلى وقائع خاصة بسمرقند والشاش .

ويؤيد ما نذهب إليه من ميلاد الشعر فى القرن التاسـع ، ما يشير إليه الطبرى من أن شاعراً يدعى محمد بن البعيث وكان يملك قلعتين على بحيرة أرمية

---

(١) Browne, Vol. I p. 11

(٢) Ibid p. 340.

(٣) بارتولد : الحضارة الإسلامية ص ٩٩ .

(٤) براون : تاريخ الأدب فى إيران ص ٢٣ .

(٥) بارتولد : الحضارة الإسلامية ص ٩٩ .

كان ينظم بالعربية والفارسية فكان من ذوى اللسانين . وكانت له أشعار فارسية مشهورة فى بلده ولكن لم يصلنا منها شىء ، ولم يعن بها مؤرخو الأدب الفارسى. ثم اشترك هذا الشاعر فى ثورة أذربيجان ضد العرب فى عهد المأمون(١). على كل حال ليس ببعيد أن تكون قد ظهرت محاولات فردية فى هذا المجال لم يكتب لها الخلود أو الذيوع ، فقد كانت الثقافة العربية لا زالت متمكنة من خراسان وما وراء النهر . وكان هذا الأدب الجديد فى حاجة إلى حوافز معينة تكتب له التألق وتعطيه الحماية الكافية .

وقد التمس هذا الأدب هذه الحوافز من ضعف الخلافة العباسية وظهور الإمارات الإسلامية المستقلة فى إيران وسعى الأمراء الجدد — وكان أغلبهم يتحدثون بالفارسية وبعضهم كان لا يفهم بليغ العبارة العربية إلا إذا استعان بمترجم — إلى كسب تقدير الأدباء والشعراء وإرضائهم وخطب ودهم . وكان كل أمير منهم يريد أن يتفوق على أقرانه وخصومه بكثرة من يحيط به من رجال العلوم والفنون(٢) .

وتعددت المراكز الثقافية فى القرنين الثالث والرابع : بلاط مرو ونيسابور فى عهد الطاهريين ، وبلاط طبرستان فى عهد آل زيار وبلاط غزنة فى عهد محمود ابن سبكتكين ثم بلاط السامانيين فى بخارى وسمرقند ، ثم المدن المختلفة فى جنوب إيران وغربها تحت حكم البويهيين عامة ، وفى عهد الصاحب بن عباد الذى كان يقيم عادة فى أصبهان أو الرى(٣). يقول براون(٤) تأكيداً لما ذكرت « عصر النهضة الفارسية يبدأ حول سنة ٨٥٠ (٢٣٦ هـ) ثم يأخذ فى الوضوح كلما استطاعت فارس التحرر من ربقة الخضوع لخلافة بغداد وتحقيق استقلالها السياسى(٥)». ولعل هذا يؤكد ماسبق أن ذكرناه من ظهور هذه الإمارات

---

(١) بارتولد ، الحضارة الإسلامية ص ٩٩-١٠٠ .

(٢) Browne, Vol, I p. 445.

(٣) براون ، تاريخ الأدب فى إيران ص ١١٥ ، ١١٧ .

(٤) نفس المصدر ص ١٢ ، ٢٤ .

(٥) نفس المصدر ص ١١٥ ، ١١٧ .

المستقلة لم يكن انطلاقاً سياسياً للعناصر الإيرانية فحسب إنما كان انطلاقا أدبياً كذلك .

بدأت هذه النهضة بظهور الطاهريين ومضت فى طريقها حتى انطلقت انطلاقة كبرى فى عهد الغزنويين والبويهيين ممثلة فى الفردوسى شاعر إيران العظيم .

ومما يلاحظ على حركة الإحياء الفارسى هـــذه أنها انطلقت من منطقة واحدة هى شرق إيران بالمحل الأول . والمؤرخ براون (١) يقارن بين حركة البعث الفارسى وحركة البعث الأسبانى فى الأندلس وانطلاق حركة البعث الأسبانى من المنطقة الشمالية والمغربيــة ، فيذكر أن شرق إيران كان مهداً للغة الفارسية الحقيقية لأنه كان أكثر بعداً عن قلب العروبة فى بغداد . كما أن حركة التعريب الكبرى لم تصبغ شرق إيران بالصبغة العربية العميقة مما أتاح للمحاولات الأولى لحركة الإحياء أن تنمو ويشتد ظهورها فى هذه المنطقة .

ونحن نريد أن نحدد لكل إمارة من الإمارات التى ذكرت دورها فى حركة الإحياء مشيرين إلى الانطلاقة الكبرى فى عهد الغزنويين .

فالطاهريون الذين كانوا أول من استقل بخراسان لم يكن من المعقول ألا يتذوقوا هذا الأدب الجديد سواء كان عربى اللسان أو فارسياً ، ولا يحول تحمسهم للعروبة والإسلام أن يسيغوا هـذا اللون الجديد . ولكن الأمر الذى أنكره الطاهريون كل الإنكار هو ازدياد نشاط المانوية فى خراسان فى عهدهم ، وانتشارها إلى بعض البـــلاد المجاورة . وقد صحب ذلك إحياء بعض المؤلفات القديمة (٢) . ولعل هذا يفسر ما يرويه دولتشاه من أن رجلا أتى بلاط عبد الله ابن طاهر فى نيسابور وقدم له كتاباً فارسياً قديماً ، فلما سأله عن الكتاب قال إنه قصة وامق والعذراء ، وهى قصة شيقة ألفها بعض الحكماء وأهدوها لكسرى أنوشروان . فقال الأمير . إنا قوم نقرأ القرآن ولسنا بحاجة إلى مثل هذه الكتب ، ويكفينا كتاب الله وسنة رسوله ، كما أن هذا الكتاب ألفه مجوسى ،

---

(١) براون : تاريخ الأدب فى إيران ص ١١٥ ، ١١٧ .
(٢) بارتولد ، الحضارة الإسلامية ص ٩٩ .

وأمر بأن يطرح فى الماء كما أمر بإتلاف أمثال هذه الكتب(١) .

ولعل بنى طاهر خافوا أن يرموا بالزندقة ، وهى تهمة شاعت فى ذلك العصر ، وإذا كانوا قد صدوا عن هذه الكتب القديمة ، فإن هذا لم يحل دون تذوق الشعر الفارسى الجيد وإجازة قائله ، وبسط لواء الحماية عليه . والمؤرخ عوفى يشير إلى شعراء استظلهم البلاط الطاهرى : منهم حنظلة البادغيسى (٢) ومحمود الوراق وفيروزى مشرقى وأبو سليك الجرجانى (٣).

أما الصفاريون فقد غلب الطابع الحربى على تاريخهم حتى ظن أن دورهم فى النهضة الأدبية ضئيل إن لم يكن معدوما . ولكن يبدو مما رواه مؤرخو الأدب الفارسى أن بيت يعقوب نفسه كان يعرف الفارسية نثراً ونظما ، حتى قيل إن طفلا ليعقوب بن الليث كان أول من نظم بالفارسية . فإذا كان أطفال يعقوب قد تعلموا الفارسية فما بالنا بالأمراء الكبار(٤). هذا ، وكان الشاعر فيروزى المشرقى معاصراً ليعقوب بن الليث . وكان رجال يعقوب شأنهم شأنه يتذوقون الشعر الفارسى الجيد ويتأثرون به ، فقد أشار نظامى عروض سمرقندى فى كتابه جهار عقاله إلى أحمد الخجستانى أحد أعوان الصفاريين الذى سمع شعراً فارسيا أوقد فى نفسه الحمية ، ودفعه إلى الثورة على الصفاريين سنة ٢٦٢هـ .

هذه الأبيات التى دفعته إلى الثورة ترجمها براون على هذا النحو(٥) .

إذا كانت العظمة فى أشداق أسد كاسر
فالتمسها من أشداقه وتقدم إليه وخاطر
فإما أدركت العظمة والعز والنعمة والجاه
وإما لقيت حتفك فى رجولة وعدمت الحياة

وكانت طبرستان من البلاد التى انبعثت منها الإشعاعات الجديدة وساهم

---

(١) Browne Vol. I p. 347.

(٢) Ibid p. 346.

(٣) Ibid p. 350.

(٤) Ibid p. 340.

(٥) براون ، تاريخ الأدب فى إيران ص ٢٣ .

أمراؤها الزياريون بجهود صادقة فى إيواء الشعراء وتشجيعهم واستدرار مديحهم، وخاصة شمس المعالى قابوس بن وشمكير . إذ أن عوفى يترجم لجمهرة من الشعراء الذين اتصلوا بالزياريين ومدحوهم ، منهم الشاعر أبو القاسم زياد بن محمد قمرى الجرجانى (١) . كما أشار أيضا إلى الشاعر أبى بكر محمد بن على الخسروى السرخسى الذى اتصل بشمس المعالى قابوس بن وشمكير وكان من ذوى اللسانين (٢) ، كما تغنى بفضائل قابوس أيضاً الشاعر أبو القاسم زياد بن محمد قمرى الجرجانى، وأشعاره الباقية تشف عن ذوق وأصالة . والأمير الزيارى قابوس الذى حاز إعجاب هؤلاء الشعراء فمدحوه ألف له البيرونى كتابه الآثار الباقية(٣) . بل روى أن بعض هؤلاء الأمراء أسهم فى هذه النهضة ليس بمجرد تذوق الشعر وتشجيعه إنما بنظم الشعر . فكان قابوس ينظم الشعر بالعربية والفارسية . كما أن كيكاوس أمير طبرستان الزيارى ألف بالفارسية « قابوس نامة » سنة ١٠٨٢ (٤٧٥هـ) . كما ظهر أدب باللهجة الطبرية نفسها منه ما كان منثورا ، يدل على ذلك كتاب مرزبان نامه . ومنه ما كان منظوما كما يدل على ذلك كتاب « نيكى نامه » . وقد حفظ لنا تاريخ طبرستان لأبى اسفنديار طائفة كبيرة من الأشعار الطبرية التى نظمها جماعة من الشعراء تجاهلتهم كتب التراجم . ومنهم الأصفهبذ خورشد بن أبى القاسم الماطيرى وباربد الجريدى والأستاذ على بيروزه وديواروز مستمرد ، أقرب المقربين إلى قابوس شمس المعالى(٤) .

والدولة السامانية التى استقر نفوذها فى خراسان وتركستان وأصبحت من أعظم الدول نظاما وأكثرها استقراراً وأوفرها ثروة فى القرن الرابع الهجرى ، كان دورها فى الإحياء الفارسى أوضح الأدوار . وانطلقت من قصور أمرائهم أعذب القصائد وحج إليهم كبار الشعراء وحفل عهدهم بحركة أدبية عظيمة إما باللغة العربية تحدث عنها المقدسى والثعالبى ، وإما بالفارسية أفاض فى شرحها المؤرخ محمد عوفى . بل إن ظهور الفارسية الحديثة إنما يرجع الفضل

---

(١) Browne, Vol. I p. 445.

(٢) Browne, Vol, I p. 466.

(٣) Ibid p. 469-470.

(٤) براون ، تاريخ الأدب فى إيران ص ١٠٣ .

فيه إلى السامانيين فقد بعثوا اللغة الجديدة مكتوبة بقلم عربي واستخدموها لغة لبلاطهم وحكومتهم . بل نجد بعض أهل الفتيا في بلاطهم يفتي بجواز الصلاة باللغة الفارسية كاللغة العربية . وادعى علماء الدين عندهم أن الأنبياء المتقدمين كانوا يتكلمون الفارسية (١) .

وليس أدل على تفوق الشعر الفارسي في العصر الساماني مما ورد في لباب الألباب لمحمد عوفي فقد أشار إلى نحو ثمانية وعشرين منهم من شهدهم العصر الساماني ومدح أغلبهم الأمراء السامانيين وقليل منهم جذبه البلاط البويهي أو البلاط الزياري(٢) . وقد عرف منهم نحو ثلاثة أو أربعة بأنهم من ذوي اللسانين الذين أجادوا النظم بالعربية والفارسية مثل الشيخ أبو الحسن شهيد البلخي . ويضيف إلى هؤلاء أبا شعيب صالح بن محمد من مدينة هراة ، وأبا عبد الله محمد بن موسى الفرالاوي ثم أبا عبد الله جعفر بن محمد الرودكي الذي يعتبر أول الشعراء الفرس المجيدين ، بل يعتبره براون(٣) من أكبر شعراء الفرس في الفترة السابقة لقيام الدولة الغزنوية . وقد مدحه البلعمي وذاع صيته بين الشعراء المعاصرين ، حتى أن المعروفي البلخي يلقبه سلطان الشعراء .

ولد الرودكي في قرية قرب سمرقند وقيل إنه ولد أعمى وكان حسن الصوت جيد الغناء فقربه نصر الثاني الساماني إليه وأدناه منه . وقد نظم قصيدة فارسية وغناها في حضرة الأمير(٤) . ونسب إليه أنه نظم كليلة ودمنة فكأنه ردها إلى أصلها الفارسي . ومن حسن الحظ أن هذا العمل الكبير لم يضع كله فقد بقي منه ستة عشر بيتا من الشعر تضمنها كتاب أسدي المعروف بلغة فرس ، وهو المعجم الذي ألفه أسدي سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م)(٥) . كما يضيف عوفي إلى هذا غزارة الإنتاج التي عرف بها الرودكي فقد ملأت أشعاره نحو مائة مجلد . كذلك ذكر

---

(١) بارتولد ، الحضارة الإسلامية ص ١٠٠ .

(٢) Browne Vol, I p. 445.

(٣) تاريخ الأدب في إيران ٢٤ـ٢٥ .

(٤) Browne Vol, I p. 456.

(٥) براون ، تاريخ الأدب في إيران ص ٢٨ .

جامى فى كتابه بهارستان نقلا عن المعتبى أن أشعاره بلغت مليوناً وثلاثمائة بيت(١) . وقد تكسب بالشعر وجمع من ذلك ثروة طائلة فكان فى أيام مجده وتألق نجمه يملك مائتين من الرقيق . وكانت أمتعته تحمل على مائة من الإبل . وتوفى سنة ٣٢٩ هـ (٩٤٠/٩٤١) .

ويذكر المترجمون له أنه فى آخر أيامه فَقَدَ عطف الأمراء وأصابته الفاقة . ومن عجب أن يكون هذا مصير مثل هذا الشاعر الموهوب . ويفسر بارثولد(٢) سر ما أصابه من بلاء بقوله إن الرودكى أذاع آراء لاتتفق مع الإسلام فقد قال « لامعنى لتحويل الوجه إلى القبلة والقلب منجذب إلى القدسية المجوسية ويجب الإيمان بحب الإله العام لجميع الأديان ، فإن إلاهك يقبل حبك ولكن لا يقبل صلاتك » . وعبر عن السماء والأرض بأنها أبو الإنسان وأمه . وقال عند موت أحد معاصريه « أنه رفع روحه السامية إلى السماء ووارى جسده الأسود التراب »

ثم يمضى عوفى مفصلا القول فى العصر السامانى فيشير إلى الشيخ أبى العباس فضل بن عباس معاصر الرودكى الذى رثا نصراً الثانى ومدح خليفته فى قصيدة مشهورة(٣) . وقد طلب إليه أحد سراة الفرس أن ينظم الشعر مقلداً الرودكى . ومن شعراء العصر السامانى أبو منصور محمد بن أحمد الدقيقى الطوسى الذى ترجع شهرته إلى أنه أول من نظم الملحمة الفارسية . وكان قد أتم نظم نحو ألف بيت منها ، عرض فيها لظهور زردشت وتوطد دينه حين اغتاله غلامه التركى . وقد ضم الفردوسى أعمال الدقيقى إلى ملحمته الكبرى . وقد نال الدقيقى تقدير معاصريه وعده المعتبى من أبرز شعراء نوح الثانى بن منصور . كما يشير عوفى إلى نماذج من شعره الغنائى . وقد ثارت حول الدقيقى نفس التهم التى ثارت حول الرودكى فيتهمه بارثولد(٤) بالمجوسية لأنه صرح بعلاقته بالعقيدة الزردشتية قائلا

---

(١) Browne Vol, I p. 457.

(٢) الحضارة الإسلامية ص ١٠١ .

(٣) Browne Vol. I p. 457.

(٤) الحضارة الإسلامية ١٠٢ .

« أنه يفضل الخمر وشفتى حبيبه ودين زردشت على كل شيء آخر » . ويعقب براون(١) على ذلك بقوله « إن إعجابه بالمجوسية كان قاصراً على ناحية واحدة هى ما تبيحه من شرب الخمر »

ويضيف عوفى إلى هؤلاء، الشاعر منجيك الذى حوى شعره بعض اللهجات الخاصة والكلمات الغريبة ، الأمر الذى دفع الشاعر قطران التبريزى إلى أن يطلب إلى ناصر خسرو أن يشرح غريب ألفاظه(٢) . ثم الشاعر أبو الحسن على ابن محمد الغزالى اللوكرى الذى نظم الشعر متغزلا فى غلام كردى . كما نظم شعراً فى مدح نوح الثانى بن منصور والوزير أبى الحسن عبد الله بن أحمد العتبى . وكذلك الشاعر معروف البلخى الذى مدح عبد الله الأول السامانى ، ثم الشاعر منصور بن على المنطقى من الرى ، الذى صحب الصاحب بن عباد حينا .

ويضيف عوفى أيضا أبا طاهر الخسروى وأبا شاكر البلخى الذى ألف افرين نامة سنة ٣٣٦هـ (٩٤٧). وله شعر ترجمه إلى العربية أبو الفتح البستى(٣) كما ذاع صيت أبى منصور عمارة فى مرو آخر عهد السامانيين وأول عهد الغزنويين وعرف بوصفه البديع الربيع والخمر .

ويختم عوفى تراجمه لشعراء الفترة السابقة على الغزنويين بذكر سبعة شعراء منهم أبو المثنى البخارى وأبو المؤيد البلخى والمعنوى والجنازى النيسابورى ، بل أشار إلى الأمير السامانى منصور الثانى بن نوح ونسب إليه نظم الشعر(٤) .

ولم يعرف العصر السامانى الشعر الفارسى فحسب بل رأى ميلاد النثر أيضاً . وفى الكتب المنثورة التى تنسب إلى هذا العصر ترجمة البلعمى لتفسير الطبرى

---

(١) Browne, Vol. Id. 475

(٢) Browne, Vol. I p 462.

(٣) Ibid d. 467.

(٤) Ibid p. 4 8.

سنة ٣٥٣ ترجمة الأمير منصور الأول الساماني(١) . وتعتبر هذه الترجمة من أقدم نصوص النثر الفارسي(٢). ثم كتاب الأبنيـة عن حقائق الأدوية لموفق الدين أبي منصور بن علي الهروي الذي ألفه حول سـنة ٣٦١ هـ / ٩٧١ . ويشير بارتولد(٣) إلى أنه ألف للسامانيين كتابا في العقائد باللغة العربية لوقاية الشعب من الرافضة ، ثم ترجم هـذا الكتاب إلى الفارسية كما ألف له تفسير للقرآن بالفارسية .

* * *

ثم قدر للشعر الفارسي أن ينطلق انطلاقته الرائعة في القرن الحادي عشر الميلادي ، آخر الرابع ومستهل الخامس الهجري ، وخاصة في عصر الغزنويين . وهذه الانطلاقة في العصر الغزنوي ليست لأنهم كانوا أكثر تذوقا للشعر ممن سبقهم من الأمراء الفرس أو أكثر إجازة للشعراء وجذبا لهم نحو بلاطهم . إنما نعتقد أن السبب كامن في أن النهضة الفارسية كانت قد رسخت أقدامها وشق الشعر الفارسي طريقه بنجاح ووضحت أصـوله وتمكنت جذوره . وكان من حسن حظ الغزنوية أن الشـعر في عصرهم كانت قطوفه دانيات ، غزر إنتاجه وصفا نبعه فنسب إليهم . وثمة أمر آخر يفسر هذه النهضة التي اقترنت بالعصر الغزنوي وهو الأحداث التاريخية البارزة التي وقعت في إيران في السنوات العشرين من ٣٨٧ إلى ٤٠٨ ، فقد مات الصاحب بن عباد سنة ٣٨٧ ، كما زالت الدولة السامانية سنة ٣٩٠ ، ثم قتل شمس المعالي قابوس سـنة ٤٠٣ ، كما قتل مأمون الثاني ملك خوارزم واستطاع محمود ابن سبكتكين أن ينفرد وحده ، وأن يضم إليه رجال الأدب الذين كانوا يحيطون بخصومه من الأمراء السابقين(٤) .

---

(١) Browne, Vol. I p. 340.

(٢) الحضارة الإسلامية ص ١٠٠ .

(٣) براون ، تاريخ الأدب في إيران ص ١١٨ .

(٤) نفس المصدر ص ١٣٣ .

ومن الشعراء الذين ذاع صيتهم فى هذا العهد الفردوسى ، واسمه الحسن بن اسحق بن شرفشاه ، وكان يتخلص فى بعض أشعاره بابن شرفشاه(١) . ولد حول سنة ٣٢٨ هـ ، أو بعد ذلك بقليل فى قرية رزان بالقرب من طوس ، ولقب نفسه الفردوسى نسبة إلى حديقة بطوس اسمها الفردوس ، كانت ملكا لسورى بن المغيرة عميد خراسان ، وكان أبوه يعمل بستانيا بها .

وقد عاش صدر شبابه فقيراً ثم فر إلى غزنة وعاش بها فترة يتكسب بشعره حتى قدمه العنصرى إلى السلطان محمود . وشغف بالأخبار القديمة والقصص الشعبى فقرأ فيه كتابا من تأليف أبى منصور العمرى فدفعه ذلك إلى نظم الملحمة القومية شاهنامة، وفرغ من نسخها الأولى سنة ٩٩٩م — ٣٩٠ هـ، بعد خمسة وعشرين سنة من العمل الشاق ، ثم أهداها بعد ذلك إلى « أحمد بن محمد أبى بكر الخالنجانى» كما أهدى نسخته الثانية التى تمت سنة ٤٠١ هـ = ١٠١٠م إلى السلطان محمود . وقد أكمل العمل الجليل الذى بدأه الدقيقى ، هذا العمل الذى جعله من أعظم شعراء عصره ، بل من أعظم الشعراء قاطبة(٢) .

وقد غضب عليه السلطان محمود ففر من غزنة ثم لجأ فترة قصيرة إلى أحد الأمراء البويهيين وألف له منظومته الكبيرة الأخرى « يوسف وزليخا » ، ثم عاد إلى طوس مسنا قد نيف على السبعين ومات سنة ٤١١ هـ أو ٤١٦ هـ على وجه التقريب .

ومما كتب لشعره الخلود أنه لم يتذوقه الإيرانيون فحسب ، بل تذوقه كل من عرف لغتهم ، تذوقه الهنود والأرمن والكرج والترك(٣) .

ويلى الفردوسى من شعراء العصر فى مكانته أصحاب المديح من الشعراء ومنشدى القصائد مثل الغضرى(٤) (المتوفى سنة ٤٣٢ أو ٤٤٢ هـ) شاعر السلطان

---

(١) براون ص ١٣٣ .

(٢) بارثولد ، الحضارة الإسلامية ص ١٠٥-١٠٦ .

(٣) براون ، تاريخ الأدب فى إيران ص ١٣٩-١٤٣ .

(٤) نفس المصدر ص ١٧١ — ١٨٧ .

محمود . وأسدی صاحب الفردوس ومخترع شعر والمناظرة والعسجدی(١) والفرخی (٢) ومنوجهری(٣) الذی عاش حتى سنة ٤٣٣ ، وجماعة أخرى من الشعراء لايرقون إلى منزلة هؤلاء من بينهم بهرامی(٤) الذی ألف كتابا فی العروض والشعر اسمه (خجسته نامه) وعطاردی ورافعی وغضائری(٥) الرازی ومنصوری ويمينی ، وشرف الملك الذی ينسب إليه كتاب فارسی فی صناعة الكتابة اسمه «كتاب الاستيفاء» وزمينی العلوی المحمودی والشاعرة (رابعة بنت كلب) التی تنسب إلى بلدة قسدار ، وجماعة آخرون كثيرون غير هؤلاء نجد أسماءهم وأشعارهم مذكورة فی الفصل التاسع من كتاب (لباب الألباب) .

وهناك بالإضافة إلى هؤلاء ثلاثة من الشعراء الممتازين الذين ينتسبون إلى هذا العصر وهم يختلفون بعض الشیء عمن سبق ذكرهم وهم : الكسائی(٦) الذی بدأ حياته بقول المدائح ، ثم ندم فی آخر أيامه لأن خدمة القصور تؤدی إلى الرياء والملق ، وقضى بقية حياته ينظم الأشعار الدينية ثم أبو سعيد بن أبی الخير الذی أنشد الرباعيات . وبندار الرازی(٧) المنسوب إلى الری وقد عرف بأنه من أصحاب اللهجات . وكان محمود الغزنوی نفسه شاعراً فيما يقولون . وقد ذكره عوفی « فی لباب الألباب » تالياً للأمير التعيس « إسماعيل بن نوح » آخر السامانيين .

والأمر الذی يدعو إلى الغرابة أن يحاط الغموض بالبويهيين الذين عاصروا هذه الانطلاقة العظيمة ، خاصة فيما يتعلق بموقفهم من الأدب الفارسی ، فلا نجد إلا قدراً ضئيلا من الأدب الفارسی قد نسب إليهم رغم كونهم فرسا . وكان بعضهم بعيدين عن الثقافه العربية مثل معز الدولة الذی جاء بغداد ودخلها واحتاج

---

(١) براون ص ١٤٣ـ١٤٤ .
(٢) نفس المصدر ص ١٤٤ـ١٥٢ .
(٣) نفس المصدر ص ١٨٨ـ١٩٣ .
(٤) براون ، تاريخ الأدب فی إيران ص ١٩٤ـ١٩٦ .
(٥) نفس المصدر ص١٩٣ـ١٩٤ .
(٦) نفس المصدر ص١٩٩ـ٢٠٦ .
(٧) نفس المصدر ص١٩٦ـ١٩٩ .

إلى من يترجم له كلام الوزير(١) . واعتقد أن استيلاء البويهيين على بغداد أو فرضهم سلطانهم ونفوذهم على الخلفاء قد جعل دورهم فى الثقافة العربية يغلب على دورهم فى الأخذ بنصيب من هذا الشعر الفارسى الجديد . ويبدو أن القسم الشرقى من أملاكهم قد انساق فى هذه النهضة الفارسية الدافقة . وقد ذكر محمد عوفى فى كتابه اسمى شاعرين من الشعراء أنشدا الشعر بالفارسية وكانا موضع عناية الصاحب بن عباد وهما منصور بن على الرازى الملقب بالمنطقى وأبو بكر محمد ابن على السرخسى الملقب بالخسروى . وكان الأول منهما مقربا من الصاحب ابن عباد وقال فى مدحه القصائد الفارسية. أما الخسروى فقد نظم فى مدح الصاحب شعراً عربيا حينا وفارسيا حينا آخر(٢) .

وكان بلاط الصاحب بن عباد فى أصفهان والرى موئلا للثقافة الفارسية الجديدة ، إذ يذكر عوفى عند حديثه عن بديع الزمان الهمذانى (٣) أنه زار الصاحب بن عباد وهو فى الثانية عشرة من عمره فأراد أن يختبره وطلب إليه أن يترجم بعض الأشعار الفارسية إلى العربية نظما (٤) . ويبدو أن مثل هذه الترجمة كانت أسلوبا شائعا فى ذلك العصر لاختبار قدرات المتعلمين . ولهذا نجد فى كتاب البندارى ترجمة مختصرة لشاهنامة الفردوسى وبعض الأشعار الفارسية منظومة بالعربية . وكان هؤلاء المترجمون يحفلون بالمعنى فقط رغم أنهم كانوا من ذوى اللسانين(٥) .

ولا ننسى أن نشير إلى أن ابن سينا انتهى به المطاف إلى أصفهان حيث الأمير البويهى علاء بن كاكويه (٤٢٣ = ١٠٣٧) ولابن سينا خمس عشرة منظومة بالفارسية(٦) . كما لجأ الفردوسى بعد طرده من غزنة إلى أحد الأمراء البويهيين وألف له منظومته يوسف وزليخا(٧).

---

(١) متز ، الحضارة الإسلامية ج ١ ص ٢٥ .

(٢) براون ، تاريخ الأدب فى إيران ص ١٠٩ .

(٣) Browne Vol, I p. 463.

(٤) Browne, Vol. I p, 463.

(٥) Ibid p. 464.

(٦) براون ، تاريخ الأدب فى إيران ص ١٢٣ .

(٧) نفس المصدر ص ١٦٨

ثم انطلقت النهضة الفارسية بعد ذلك إلى آفاق أبعد مما انطلقت إليه الثقافة الفارسية القديمة فى عهد الساسانيين ، فقد حملها الغزنويون إلى الهند(١) ، كما حملها السلاجقة إلى العراق وآسيا الصغرى (٢) وبلاد الشام . فكأن الإسلام حقق للسيادة الإيرانية ما لم تره فى تاريخها القديم كله .

* * *

وقد قدر لإيران بعد فتحها أن تكون الجسر الذى عبره العرب إلى ماوراء النهر ، والطريق الذى سلكه الإسلام فى سبيله إلى الانتشار فى بلاد تركستان . وقد أسهم الإيرانيون فى الحضارة الإسلامية فى تركستان ، ومن مدنهم انطلقت الثقافة الإسلامية . وظلت مدارس إيران تغذى المدارس الإسلامية فى تركستان حتى قيام الدولة السامانية . ولعل هذا يدفعنا إلى دراسة انتشار الإسلام فى تركستان ، حريصين على أن نبين دور الإيرانيين فى انتشار الإسلام بتلك البلاد .

* * *

---

(١) Goetz ; Persia and India after the conquest of Mahmud; Legacy of Persia pp. 89—116.

(٢) Gibb ; A History of Ottoman Poetry Vol. I pp. 3—9

الباب الثاني
انتشار الإسلام في تركستان

يمكننا أن نحدد النطاق الجغرافى الذى ستمتد إليه دراستنا تحديداً واضحاً ، لأنه من المعروف أن الحد الفاصل بين إيران وتركستان ليس هو الخط الذى يفصل اليوم بين إيران وروسيا ، إنما هو فى الحقيقة نهر جيحون باعتباره الحد الفاصل بين الثقافتين الإيرانية والتورانية(١) . ومعنى هذا أن الوطن التركى يشمل المناطق الخصبة الواقعة بين نهرى جيحون وسيحون ، أو الإقليم الذى يسمى فى المصطلح الإسلامى باسم بلاد ما وراء النهر .

على أن هذا الإقليم فى الحقيقة ليس هو وطن الأتراك جميعهم ، إنما هو وطن الأتراك الغربيين فقط . أما وطن الأتراك الشرقيين فهو يتجاوز إقليم ما وراء النهر صوب الشمال حتى منطقة السهوب الروسية ، أو يمتد قليلا صوب الشرق حتى حدود الصين .

وهذا الوطن قد يتطاول أحياناً إلى الشمال الغربى من بحر قزوين ويدخل منطقة القوقاز من الشمال ، وأحياناً أخرى يمتد حتى حوض الفولجا .

وستكون دراستنا لانتشار الإسلام شاملة تقريباً لهذا المصطلح الجغرافى الأعم أعنى أننا سنعنى بالأتراك الغربيين وبالأتراك الشرقيين .

وسنعرض لانتشار الإسلام فى تركستان مهتدين بالخطوط الكبرى التى أشرنا إليها فى مقدمة الكتاب ، ومطبقين نفس المنهاج الذى طبق فى دراسة انتشار الإسلام فى إيران ، وذلك بالتعرض لأحوال البلاد قبيل الفتح وإثبات أن الإسلام دخلها فى أحسن الأحوال ملائمة له . ثم نعرض للفتوح العربية للبلاد ونتائجها ، وما أعقب ذلك من دور العرب فى انتشار الإسلام فى وطن الترك وأسلوب هذا الانتشار فى عهد الطاهريين والسامانيين ، ليصل إلى نفس النتائج التى وصلنا إليها فى دراستنا لإيران ، وهى صيرورة مدن تركستان مدارس إسلامية تسهم فى النهضة الإسلامية الكبرى وانضمام الترك إلى مجموعة

---

(١) Barthold ; Turkestan down to the Mongol invasion p 64.

الشعوب الإسلامية التي أسهمت في بناء الحضارة الإسلامية وأثرت التجربة الإسلامية ، وأكسبت الفكر الإسلامي دماً جديداً ساعد على انطلاقه . ثم انتقال الزمام إلى الأتراك أنفسهم بعد أن اعتنقوا الإسلام وضعف سلطان الخلافة وتكونت منهم دول تركية خالصة متمسكة بإسلامها وثقافتها دائبة على حماية دار الإسلام ومسهمة في انتشار هذا الدين في الآفاق المجاورة لها(١) .

---

(١) Barthold ; Turkestan down to the Mongol invasion
; Four Studies on the History of Central Asia.

الفصل الأول

تركستان قبيل الفتوح العربية

الإمارات التركية : يحسن أن نتعرف على أحوال الوطن التركى ، خصوصا فى السنوات القلائل السابقة على بداية الفتح الإسلامى للبلاد . والتاريخ التركى يعتمد فى هذا العصر على آثار أورخون (١) التى تعتبر من أهم المراجع فى الكشف عن فجر التاريخ التركى وبداية ظهورهم فى آسيا الوسطى (٢) . ونستطيع أن نستخلص من هذه النقوش أنه فى النصف الأخير من القرن السادس الميلادى وفى أوائل السابع ، ظهر شعب جديد فى بلاد ما وراء النهر ، وأن هذا الشعب اتخذ للمرة الأولى فى تاريخ هذا الإقليم اسم « الترك » .

ومن الغريب أن النقوش الصينية والنقوش البيزنطية المعاصرة تؤيد ماجاء بنقوش أورخون ، وتتحدث عن بداية ظهور الشعب التركى فى هذه الفترة .فقد وردت فى النقوش الصينية هذه كلمة « Tou Kieue » وفى النقوش البيزنطية وردت كلمة « TourKoi »(٣) .

واعتماداً على هذه المصادر نستطيع أن نعطى صورة لحياة هذا العنصر الجديد من النواحى السياسية والثقافية والاجتماعية . وأول ما يمكن قوله أن الشعب التركى الذى سيطر على منطقة ما وراء النهر فى هذه الفترة بدأ يكون سلسلة من الإمارات التركية المستقلة التى انفصلت عن القسم الشرقى من عالم الترك .

وكان ظهور العنصر التركى مصحوبا بظهور لغة جديدة فى عالم آسيا الوسطى

---

(١) Histoire des Turco d'Asia Centrale p. 6—8.

(٢) مصادر تاريخ الأتراك : أول هذه المصادر ما يمكن أن نسميه بالمصدر التركى ونعنى به آثار أورخون فهى أقدم أثر للسان التركى . وقد اكتشفت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وهى أقدم آثار تركها الترك أنفسهم ، واتخذوا فيها لأول مرة اسم الترك ونقوش أورخون .

(٣) Barthold ; Histoire des Turcs d'Asia Centrale p 6—7

هى اللغة التركية . وقد بدأ الشعب التركى فى هذه الفترة بحكم موقعه يتعرض لتيارات ثقافية إما واردة من إيران أو من الصين ، فقد انتشرت بين الأتراك بعض العقائد الإيرانية خصوصاً المذهب المانوى . وبدأ المبشرون بالمسيحية يبذلون نشاطا بين هذا الشعب الذى ظهر على مسرح الأحداث .

وأهم مايلاحظ أن الشعب التركى فى فترة ظهوره هذه كان شعبا محاربا من الطراز الأول ، وكان لايزال متمسكا بالتقاليد البدوية القديمة .

وقد شهدت البلاد سيطرة الأرستوقراطية الإقطاعية من ملاك الأرض الذين عرفوا باسم الدهاقين . ولم يكن يحد من سلطانهم كما هو الحال فى إيران تحالف العرش ورجال الدين . كان الحكام المحليون من الدهاقين هم الطبقة الممتازة فى البلاد(١) .

ولم تشهد البلاد ما يمكن أن نسميه بالدين الرسمى للدولة ، على الرغم من أن الطبقة الحاكمة كانت على الزردشتية ، وكانت المذاهب التى ظهرت فى إيران تجد لها ملاذا فى بلاد ما وراء النهر . ويبدو أن حرية العقيدة هذه قد أبيحت للبوذيين والنساطرة ورأت البلاد صراعا غير عنيف بين الزردشتية والبوذية . ولهذا لم يلعب رجال الدين دوراً يذكر فى معارضة الفاتحين العرب(٢) .

وكانت للأرستوقراطية المالية المؤلفة من التجار الذين أثروا فى التجارة مع الصين وغيرها من البلاد مكانة خاصة . والطبرى(٣) عندما يتحدث عن مجرات الصغد يطلق على هؤلاء التجار المياسير اسم الأمراء . إذ كانوا يمتلكون الضياع الواسعة ويبنون الحصون ولم يكونوا من حيث المكانة أقل من طبقة الدهاقين . وكانت مصالحهم مرتبطة أشد الارتباط بمصالح الأرستوقراطية من الدهاقين .

وتظهر نقوش أورخون أن البلاد شهدت صراعا طبقيا عنيفا بين العامة وبين الدهاقين النبلاء . وإن الهوة بينهم كانت سحيقة إلى أبعد الحدود(٤) . وفى

(١) Barthold : Turkestan p 180.

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ص ٤٠٥ ، ٤١٩ .

(٣) الطبرى ج ٨ ص ٩٥ وما بعدها .

(٤) Barthold ; Histoire des Turcs p. 9.

أثناء السيادة الصينية انحازت الأرستوقراطية إلى الصين محافظة على مكاسبها واستغلوا الولاء للصين فى كبح الحركات الشعبية وتثبيت سلطانهم وإنشاء إمارات تركية مستقلة (١).

وقد وجد العرب فعلا إمارات صغيرة عديدة متحاربة باستمرار (٢). وكان أمير سمرقند الذى اتخذ لقب أخشيد أقوى هؤلاء الأمراء وأبعدهم نفوذاً . كما اتخذ أمراء فرغانة لقب أخشيد أيضا (٣) .

ولم يكن هؤلاء الأمراء تجمعهم بالدهاقين رابطة سياسية واحدة بل غلب على ديار الأتراك التفكك السياسى والصراع الداخلى . وقد عقد العرب أواصر الصداقة مع طبقة الدهاقين ، وأفادوا من انقسامهم إلى أبعد الحدود .

وجد العرب إذن مجتمعا تركيا انفصل أتراكه الشرقيون عن الغربيين ، وتفككت عرى الوحدة السياسية بين الإمارات التركية المتنازعة . كما شهدت البلاد أزمات اقتصادية طاحنة ، وافتقدت الوحدة المذهبية التى تهيء الحافز القوى للنضال والاستماتة فى الدفاع . وقد حدث ذلك فى الوقت الذى توطد فيه النفوذ العربى فى إيران ، واستقر بهم المقام فى خراسان ، وأصبحت خراسان ثغراً إسلاميا يناوش الأتراك ويحاربهم ويشيع الفرقة بينهم ولا يعطى الإمارات فرصة التجمع فى جبهة تركية موحدة كما ألف العرب طبيعة البلاد وطبيعة القتال فى هذه الأجواء وقارسة البرد .

الغارات الثغرية من خراسان .

إن خراسان كقاعدة لعبت دوراً هاماً فى التمهيد لنجاح الفتوح العربية بإشاعة الفرقة بين الإمارات وضربها بعضها ببعض وإبقاء الجبهة التركية منقسمة مفترقة الكلمة ، كما أتاحت للعرب أن يكونوا لأنفسهم إستراتيجية معينة للقتال فى تلك البلاد .

---

(١) Idem

(٢) Barthold ; Turkestan p, 182.

(٣) Barthold ; Four Studies Vol. I p. 10.

وقد بدأ الاحتكاك الأول بين الدولة العربية وبين هذه العناصر التركية الجديدة بعد أن فرغ العرب من فتح إيران سنة ٦٥١ م (٣١ هـ) . فى هذه السنة توطد النفوذ العربى فى منطقة خراسان ، وورثت الدولة العربية من مخلفات الساسانيين هذا الخطر التركى أو المشكلة التركية .

واضطر العرب فى المرحلة الأولى أن يلتزموا نفس سياسة الدفاع التى سار عليها الساسانيون . وكان الدفاع العربى يكاد يكون مركزاً فى منطقة خراسان التى نظمت تنظيماً ثغرياً ، إذا أصبحت ثغراً من ثغور المسلمين ، وظلت تخضع لهذا التنظيم الثغرى أزيد من خمسين سنة من سنة ٦٥١ إلى سنة ٧٠٥ م (٣١ — ٨٦ هـ) .

وهذا التنظيم الثغرى كانت له أصوله وقواعده ، فكان يتضمن إقامة الحصون فى مناطق الحدود وإسكان العرب وتوطينهم خراسان . وقد وضح هذا التنظيم الثغرى فى عهد زياد بن أبى سفيان الذى ولى خراسان فى مستهل العصر الأموى . وقد لعبت خراسان فى فتح بلاد ما وراء النهر نفس الدور الذى قامت به برقة فى فتح المغرب أو دور المغرب الأقصى فى فتوح الأندلس . ونجاح التوغل العربى فى تركستان كان يتوقف على اتحاد القبائل العربية فى خراسان من ناحية ثم اتحاد القبائل العربية مع الموالى الفرس من ناحية أخرى .

على كل حال كانت خراسان قاعدة تخرج منها غزوات خاطفة فى موسم معين هو موسم الصيف . ثم تعود إلى القاعدة الرئيسية إذا كان الشتاء . هذه الغارات الثغرية ألقى عليها البلاذرى (١) مزيداً من الوضوح ، ومنه يتبين أنها اقترنت بالأسماء الآتية : عبيد الله بن زياد وسعيد بن عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن زياد وسلم بن زياد وعبد الله بن حازم ويزيد بن المهلب . ويتابع البلاذرى أحداث هذه الغارات حتى تحولت إلى فتوح منظمة فى عهد قتيبة بن مسلم . وقد تبين أن استتباب النفوذ العربى فى خراسان يرجع إلى أبى موسى الأشعرى الذى وجه بديل بن ورقاء الخزاعى غازياً حتى بلغ حصنى الطبسي وهما بابا خراسان ، وقد صالح الخليفة عمر أهليهما على الجزية .

---

(١) البلاذرى — فتوح البلدان ص ٤١٠ — ٤١٩

ولم يتوطد نفوذ العرب نهائياً في خراسان إلا في خلافة عثمان الذي ولى عبد الله بن عامر بن كريز البصرة بين سنتى ٢٨ ، ٢٩هـ . فغزا خراسان سنة ٣٠هـ وبعث على مقدمته الأحنف بن قيس فأقر الصلح الذي عقد زمن عمر . ثم تقدم صوب قوهستان فواجه أول جموع الترك « الهياطلة » فانتصر عليهم وفتحت المدينة عنوة .

وبدأت خراسان فعلا في عهد والى البصرة العظيم عبد الله بن عامر تؤدى دورها الثغرى على أحسن وجه ، فقد بعث يزيدا الجرشى إلى رستاق زام قرب نيسابور ففتح عنوة ، كما فتحت باخرز (١) وجـــــوين ، كما فتحت بيهق على يد الأسود بن كلثوم العدوى وخليفته أدهم بن كلثوم .

عهد عبد الله بن عامر هذا من أعظم عهود ولاة خراسان ، فقد فتحت في عهده بشت من أعمال نيسابور واشبند ورخ وزاوة وخواف واسبرائن وارغيان ، كما استولى رجاله على أبر شهر وصالحه جميع أهل نيسابور على الجزية . بل تقدم المسلمون صوب حراندز ونسا ، واضطر دهقان أبيورد إلى طلب الصلح كما طلب مرازبة سرخس وطوس وهراة وبادغيس وبوشنج ومرو الشاهجان .

ولم تقف أطماع عبد الله بن عامر عند هذا الحد فقد وجه الأحنف بن قيس إلى طخارستان فتقدم بين نهر المرغاب والجبل ، وهزم أهل مرو الروز بعد نقضهم الصلح . ثم واجه عبد الله بن عامر أعظم تجمع للترك عرفه العرب قبل عهد قتيبة . فقد اجتمع أهل طخارستان والجوزجان والطالقان والفارياب وكانوا في نحو ثلاثين ألف وانضم إليهم أهل الصغانيان ـ وقاد المعركة الأحنف بن قيس في خمسة آلاف من المسلمين ، واشترك الفرس المسلمون فيها لأول مرة وهزمت جموع الترك .

وقد تحصن الأتراك المتقهقرون بالجوزجان فبعث الأحنف بن قيس إليهم الأقرع بن حابس التميمى فهزمهم . وفتح الأحنف باسم عبد الله بن عامر الطالقان والفارياب وسار إلى بلخ فصالحه أهلها . ووصلت مقدمة جيشه الزاحف إلى

---

(١) البلاذرى ص ٤١٠

قرب خوارزم (١) .

ودانت لعبد الله بن عامر جميع البلاد الواقعة على الضفة الجنوبية من نهر جيحون بل بدأت القوات العربية تعبر جيحون نفسه ، وصالحه دهاقين الأتراك الغربيون (٢) .

ولما رحل للحجاز للعمرة جعل فى خراسان ثلاثة من قواد جيشه هم : الأحنف بن قيس وحاتم بن النعمان الباهلى وقيس بن الهيثم . وصولح أهل ماوراء النهر . ويذكر البلاذرى أن عثمان بن عفان عقد لهم العقود (٣) .

ولكن أمور خراسان اضطربت وكفت القاعدة عن الحركة أثناء فتنة عثمان وخلافة على (٤) . ولم تزل خراسان مضطربة أمورها حتى قتل على (٥) .

ولما آلت الخلافة إلى معاوية كان عليه أن يواجه أوضاع خراسان المضطربة وأن يعيد إلى القاعدة فعاليتها ، فولى قيسا بن الهيثم بن الصلت السلمى، ثم عزله وولى خالد بن المعمر ، ورأى أن لا يصلح خراسان إلا عبد الله بن عامر صاحب الدور الأكبر فى عهد عثمان ، فاستعاده . فولى ابن عامر قيس بن الهيثم السلمى خراسان فهوجمت بلخ وعادت إلى طلب الصلح ، كما استقام أمر هراة وبوشنج وبادغيس .

وظل الأمر على ذلك حتى ولى زياد بن أبى سفيان البصرة سنة ٤٥هـ ، فرأى أن لا تكون السلطة مركزة فى قيادة واحدة . بل رأى أن يوزع القيادة ويعطى كل قيادة حرية العمل . فولى أمير بن أحمر مرو وخليد بن عبد الله الحنفى أبرشهر وقيس بن الهيثم مرو الروذ والطالقان والفارياب ونافع بن خالد هراة وبادغيس وبوشنج وقادس ، والحكم بن عمرو الغفارى خراسان .

وفى عهد زياد بن أبى سفيان بدأت الجيوش العربية تستقر المرة الأولى شمال

---

(١) البلاذرى — الفتوح ص ٤١٤

(٢) نفس المصدر ص ٤١٥ .

(٣) نفس المصدر والصفحة

(٤) نفس المصدر ، ٤١٥ .

(٥) نفس المصدر والصفحة .

جيحون . يقول البلاذرى(١) « وكان الحكم أول من صلى وراء النهر » .

ثم بدأت سياسة إسكان العرب وتوطينهم فى هذه البلاد فى عهد الربيع بن زياد الحارثى الذى ولى خراسان بعد وفاة الحكم بن عمرو الغفارى . فقد جمع من أهل البصرة والكوفة خمسين ألف أسرة . ثم نشط الربيع بن زياد نشاطاً عظيما. كما استطاع ابنه عبد الله أن يقاتل أهل آمل حتى طلبوا الصلح . وبدأت جموع المسلمين فى ذلك الوقت لاتكف عن عبور النهر والقتال فيما وراءه .

فلما ولى معاوية عبيد الله بن زياد خراسان عبر النهر فى نحو أربعة وعشرين ألفا حتى أدرك بيكند ، فتصدت له خاتون بخارى واستصرخت الترك. ولكن المسلمين هزموهم ،فطلبت الخاتون الصلح وعاود المسلمون دخول بخارى، وفتحت رامدين وبيكند . فلما خلفه من قبل معاوية سعيد بن عثمان بن عفان عاود عبور النهر بعد أن نقضت خاتون بخارى الصلح ، وجمعت من الصغد والترك وأهل كش ونسف نحواً من مائة وعشرين ألفاً ، فهزم هذا التجمع التركى وعاودت الخاتون طلب الصلح مرة أخرى ، بل سارت فى ركاب سعيد بن عثمان وهو يقاتل أهل سمرقند حتى طلبوا الصلح ، كما عاونته فى فتح ترمذ . ثم عزل معاوية سعيداً ابن عثمان وولى مكانه عبد الرحمن بن زياد ، فلما آلت الخلافة إلى يزيد ولى خراسان سلم بن زياد(٢) (٦٨١ - ٦٨٣) (٦٢ - ٦٤) . أول القواد العرب مقاومة لطبيعة الإقليم الجامحة الحافلة بالعقبات الطبيعية والممرات الجبلية التى يسهل للعدو الصمود عندها والدفاع عنها بالإضافة إلى الجو القارس البرد الذى لم يألفه العرب من قبل . وقد كان العرب قبل سلم ينظمون المسالح السريعة والغارات الخاطفة حينا فإذا كان الشتاء آوى العرب إلى حصونهم فى خراسان حتى يكون العام الذى يليه ، لكن سلما كان أول القواد قضاء للشتاء عبر النهر(٣) ومعنى هذا أن المجاهدين العرب بدأوا يقهرون الطبيعة ويألفون هذه الأجواء .

وواجه القائد سلم جموع الأمراء الأتراك المحليين الذين اجتمعوا وتعاهدوا

---

(١) البلاذرى ص ٤١٦ .
(٢) البلاذرى ص ٤١٩ .
(٣) البلاذرى ص ٤٢٠ .

على أن يتناسوا أحقادهم لمواجهة هـــذه الغارات العربية الجديدة . وكانت هذه الاجتماعات تستأنف كل سنة كلما لاحت طلائع المقاتلة العرب [١].

ويعدد البلاذرى[٢] منجزات سلم بن زياد فيذكر أنه صالح أهل خوارزم على أربعمائة ألف ، واستعاد سمرقند بعد أن كانت قد خرجت عن طاعة المسلمين ، واستولى على خجندة وعبر نهر جيحون أكثر من مرة . وأوقع الهزيمة بجموع الصغد[٣] .

على كل حال استطاع سلم أن يحرز نصراً على كل هذه القوى مجتمعة ، ولو كان العرب فى ذلك الوقت قد ارتأوا أن يتحولوا من الغارات الثغرية إلى الفتح المنظم لـكان لأعمال سلم شأن آخر .

يبدو أن هذه الإغارات تركت أثراً فى الحوليات المعاصرة ، فقد استطاع المؤرخ شافان Chavannes العثور ضمن المجموعة الصينية (تشى - فو - يون - كوى) على كتاب بعث به حاكم سمرقند إلى إمبراطور الصين سنة ٧١٨ ينوه فيه بهذا التحول العربى الجديد فى الإغارات والغزو ، ويذكر أن بداية الصراع مع العرب كانت منذ خمسة وثلاثين عاما ، مشيراً إلى جهود سلم[٤]. على أن سلما اعتزل الولاية فى الفتنة التى أعقبت وفاة يزيد بن معاوية ، ومزقت الإحن القبلية صفوف العرب فى خراسان[٥] .

وعاود العرب سيرتهم الأولى بعد ذلك بقليل فى ولاية عبد الله بن خازم[٦] الذى أصبح له الأمر فى خراسان إبان الفتنة الزبيرية ، وكان زعيم القيسية فى خراسان فلما استقام له الأمر بعث ابنه موسى ليعيد جهود سلم . وقد اخترق

---

(١) البلاذرى ص ٤٢٠ .

(٢) الفتـوح ص ٤١٩ـ٤٢٠ .

(٣) انضم سلم بن زياد إلى عبدالله بن الزبير بعد وفاة يزيد ، وقد صالحه أهل خوارزم على الجزية كما صالح أهل سمرقند ؛ وهاجم السند وفتح خجندة وهزم السند هزيمة منـكرة . البلاذرى ص ٤٢١ .

Barthold ; Turkestan p. 183.

(٤) Barthold ; Turkestan, note 6, p. 183, Chavannes ; Documents 204 S. Q.

(٥) Barthold, Turkestan p. 184.

(٦) البلاذرى ص ٤١١ ، ٤٢٠ .

موسى بلاد ما وراء النهر فى الشتاء فلم يعد يخافه العرب ، واستولى على مدينة ترمز(١). واضطر أميرها إلى إخلائها . وقد اجتمع فى وجهه أمراء الأتراك فى البلاد ، بل اجتمع له الترك وبقايا الفرس وفريق ممن يقال لهم الافتاليون ، فهزمهم واضطرهم إلى التراجع والفرار . وظل موسى يتابع جهوده فى هذه البلاد نحواً من خمسة عشر عاما « ٦٨٩ — ٧٠٤ = ٧٠ — ٨٤ هـ » حتى تولى يزيد ابن المهلب .

وفى ولاية يزيد بن المهلب « ٧٠١ - ٧٠٤م = ٨٣ — ٨٥هـ(٢) » انضم إلى موسى ، ثابت بن قتيبة الخزاعى واسترضى الأمراء المحليين واستقل بخراسان ، وأقصى عمال يزيد وحملت إليه أموال البلاد ودان له الزعماء بالطاعة . ولكن لم يسلس له قياد البلاد طويلا ، فقد دب الخلاف بينه وبين موسى وقتل ثابت فى الفتن التى أعقبت ذلك . واسترد الأمويون نفوذهم فى البلاد بفضل الوالى المفضل بن المهلب الذى دخل ترمذ سنة ٧٠٤ « ٨٥ هـ » بعد أن مد له يد العون أخشيد الصغد وأمير الختل . وهكذا انحاز الأمراء الترك فى هذا الصراع إلى الخلافة الأموية(٣).

وقد ظل العرب على هذه السياسة الثغرية من الغزو السريع والتقهقر السريع حتى سنة ٧٠٤ « ٨٥ هـ » على وجه التقريب ، حتى هيأت لهم جهودهم السابقة أن يحققوا بعض النجاح ، فقد تمرنوا على الطبيعة الجبلية وألفوا القتال فى الجو القارس البرد(٤). حقيقة أنهم لم يحققوا كسباً أرضياً ذا بال ، ولكن تفاهما تم بعد هذا النضال بين أمراء البلاد المحليين وبين الحكومة العربية الشرعية .

---

(١) البلاذرى ص ٤١٢ ، الطبرى جـ ٨ ص ٤٥ ، ٤٧ Barthold p. 184

(٢) الطبرى جـ ٨ ص ٢٠ .

(٣) البلاذرى ص ٤٢٤ .

(٤) Barthold ; Turkestan p. 182.

الفصل الثانى

فتوح العرب فى تركستان

كانت سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) بداية تحول جديد فى تاريخ العلاقات العربية التركية ، إذ بدأ الفتح الحقيقى لإقليم ما وراء النهر ، وبدأ الاقتحام الحقيقى لقلب المقاومة التركية . ثم تتابعت الجهود الأموية من بعد هذه السنة تلح على هذا الإقليم وتتدافع إليه ، حتى أصبح للأمويين دور مرسوم فى تاريخ تركستان ، هو دور قهر مقاومة الأمارات التركية فى البلاد وتثبيت النفوذ العربى ثم التمكين للتيار الإسلامى من أن يمضى فى سبيله بين الناس مسالما فى الانتشار .

على أنه من الضرورى أن نشير إلى أهم العوامل التى أنهت الطابع الثغرى للغزو فى هذه السنة بالذات واستهلت صفحة الفتح الحقيقى المنظم .

وبعض هذه العوامل يعود إلى طبيعة الحكم الأموى فى هذه الفترة وبعضها الآخر يعود إلى طبيعة الإقليم الذى تجرى فيه الحوادث ، وطبيعة الاستعدادات التى كانت تجرى فى قاعدة خراسان .

ومما يلاحظ أنه فى هذا الوقت على وجه التحديد خلصت الدول العربية من متاعبها الداخلية جميعها ، وكان عصر الوليد عصر استئناف الفتوح العربية فى كل مكان تقريباً . ففى ذلك الوقت كانت قوات موسى بن نصير على وشك دخول المغرب الأقصى كما كانت القوات العربية تستعد لغزو السند . وليس من شك فى أن هذه الظروف مكنت الخلافة الأموية من أن تلقى وهى مطمئنة ثقلها كله فى هذه المعارك الفاصلة .

ويمكننا أن نضيف إلى ذلك أن الاستعدادات العسكرية فى قاعدة خراسان كانت قد اكتملت وأصبح اكتمالها يضمن النجاح . وهذا الاكتمال فى الاستعداد مبرر طبيعى للقيام بعمليات عسكرية ذات طابع أعمق وأوسع . فقد استطاعت الدولة العربية أن تحشد فى خراسان قوات عسكرية لم يكن فى مكنتها أن تحشدها

من قبل ، فقد اجتمع لقتيبة بن مسلم الباهلي الذى اقترن اسمه بالفتوح نحواً من سبعين ألفاً من المقاتلة الأشداء .

والمصادر تشير إلى تطور تم فى هذه المنطقة فى ذلك العصر ،وهو أن الدولة الأموية بدأت تجند أبناء البلاد لتدفع بهم إلى المعركة ،كما دفعت بربر المغرب الأقصى إلى معركة الأندلس . فقد كانت التقاليد الإسلامية منذ عهد عمر تمنع غير المسلمين من الاشتراك فى الجيش لأن الخدمة فى الجيش مرتبطة بالعطاء والعطاء حق لكل مسلم ، كما أن الدفاع حق العرب ، وعلى أهل الذمة دفع الجزية مقابل الحماية .

غير أن القواد الأمويين بدأوا يشركون أهل البلاد ولو كانوا على غير الإسلام فى جيش الغزو . وقد اشتركت قوات كبيرة منهم فى جيش قتيبة . ووفد إليه المطوعة من بخارى وكش ونسف وخوارزم . ويذكر البلاذرى أن الدولة جندت نحواً من عشرين ألفا من هؤلاء ، فكأنها ضمنت معينا بشريا لا ينضب تستطيع أن تدفعه إلى المعركة . كما ضمنت أن يتطرق الإسلام إلى قلوب هؤلاء المطوعة بعد اختلاطهم بالعرب والتعاون معهم .

ويضاف إلى ذلك أن القوات العربية استطاعت أن توقع الفرقة بين الإمارات التركية ، فدب النزاع بين إمارتى فرغانة وخوارزم ، وقد أفاد العرب من هذا الانقسام إلى حد بعيد(١) . ففى سنة ٧٠٥ (٨٦ هـ) استنجد أمير الصغانيات بقتيبة ليعينه على أعدائه أمير شومان وأمير آخارون(٢) . وفى سنة ٧١٢ (٩٤ هـ) سار قتيبة ليمد يد العون لأمير خوارزم فى حربه مع أخيه الأصغر خرازاد والثوار من الدهاقين(٣) . ومد له الخوارزميون وأهل بخارى يد المعونة . وفى معارك سنة ٧١٣ (٩٥ هـ) أمر أهل بخارى وكش ونسف بأن يمدوه بعشرين ألفاً من المقاتلة(٤) . بهذا كان العرب يتناولون هذه الإمارات كل على حدة . ولم

---

(١) Barthold : Turkestan 8 p5 1..

(٢) الطبرى جـ ٨ ص ٦٩١ وما بعدها .

(٣) الطبرى جـ ٨ ص ٥٥٩ وما بعدها .

(٤) البلاذرى ص ٤٠٧ .

تجتمع فى وجه العرب جبهة تركية موحدة . ولم تشعر الإمارات التركية إلا والنفوذ العربى قد تسرب إلى الإقليم كله .

ولا يفوتنا أن نذكر أن العرب فى هذه المرحلة ضمنوا ولاء شطر من الرأى العام فى البلاد ، فقد عقدت صداقات بين العرب وبين الدهاقين(١) ، وذلك نتيجة للغارات الخاطفة التى تلاحقت فى الفترة الثغرية الأولى . ونشأ ود متبادل بين العرب وبين هؤلاء القوم ، يفسر فى بعض الروايات على أنه إعجاب من جانب هؤلاء الوطنيين بفروسية القواد العرب وبسماحتهم وكريم معاملتهم . ومن الرجال الذين بقيت سيرهم فى ذاكرة الناس فترة طويلة ثابت بن قتيبة أحد رجال عبد الله بن خازم الذى اشترك فى حملات ترمذ وأثار احترام الناس وظلوا يذكرونه وقتا طويلا (٢) .

فلنعرض إذاً للحملات التى قام بها الأمويون منذ سنة ٨٥ وكيف يسرت لهم أن يحققوا أهدافهم فى بلاد ما وراء النهر .

وقد ارتبطت البداية فى تاريخ الفتح العربى باسم فاتح عربى حمل راية الجهاد فى إقليم ما وراء النهر ، كما حملها غيره فى أنحاء أخرى من العالم الإسلامى ، ذلك القائد هو قتيبة بن مسلم عامل خراسان(٣) من قبل الحجاج بن يوسف الثقفى ، وهو الذى قدر له أن يستغل الإمكانيات سالفة الذكر فى متابعة الزحف العربى

---

(١) الطبرى ج ٨ ص ٤٦ ، ٥٩ .

(٢) Barthold p. 183.

(٣) البلاذرى ص ٤٠٧ ، الطبرى ج ٨ ص ٤٣

خطب قتيبة الناس وحثهم على الجهاد وقال إن الله أحلكم هذا المحل ليعز دينه ويذب بكم عن الحرمات ويزيد بكم المال استفاضة والعدو . ووعد نبيه صلى الله عليه وسلم النصر بحديث صادق وكتاب ناطق ، فقال هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ووعد المجاهدين فى سبيله أحسن الثواب وأعظم الذخر عنده فقال ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله إلى قوله أحسن ما كانوا يعملون ثم أخبر عمن قتل فى سبيل الله أنه حى مرزوق فقال ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فتنجزوا موعد ربكم ووطنوا أنفسكم على أقصى أثر .

(الطبرى ج ٨ ص ٥٩)

إلى آفاقه الجديدة . وقد استغرقت حملات قتيبة فى بلاد ما وراء النهر نحواً من عشر سنوات حافلة بالتوفيق والنصر . وجاءت تلك الجهود التى تلاحقت طوال تلك السنوات العشر على ثلاث مراحل ، كل مرحلة منها تختص بفتح إقليم من أقاليم ما وراء النهر .

المرحلة الأولى سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) وفيها استعاد العرب منطقة طخارستان السفلى وأخمدوا الثورات التى نشبت فيها ، كما استولى على الطالقان وبلخ (١) .

والمرحلة الثانية من سنة ٨٧ هـ — إلى سنة ٩٠ (٧٠٥ — ٧٠٨ م) وفيها استطاع قتيبة أن يقتحم إقليم بخارى . وكان لسقوط بخارى أثر كبير فى البلاد كلها ، فقد أبرز مدى قوة العرب فى هذه المرحلة الجديدة . فسارع ملك سمرقند بالاتصال بقتيبة لوضع شروط للصلح وتجديد المعاهدة القديمة التى كانت قد عقدت مع سلم بن زياد(٢).

والمرحلة الثالثة من سنة ٩١ هـ إلى سنة ٩٣ هـ (٧٠٩ — ٧١١ م) وفيها امتد النفوذ العربى إلى وادى جيحون وبلاد الصغد .

والمرحلة الرابعة من سنة ٩٤ إلى سنة ٩٧ (٧١٢— ٧١٤ م) وفيها اتجهت الحملات العربية إلى إخضاع المقاطعات الواقعة على نهر سيحون. ولم تكن الجهود كلها تقترن باسم قتيبة بل كان يرسل فى الوقت نفسه الحملات الصغرى بقيادة معاونيه لتتسرب إلى المناطق النائية مثل حملات صالح بن مسلم فى إقليم فرغانة ، ومثل الحملات الأخرى التى أرسلت إلى بيكند وخوارزم وكرمينية (٣)، بل أوغل قتيبة فى غزواته حتى كاشغر مقترباً من حدود الصين(٤).

---

(١) البلاذرى ص ٤٢٦ ، الطبرى ج ٨ ص ٧٠

(٢) البلاذرى ص ٤٢٧ ، الطبرى ج ٨ ص ٣٩ ، ٨٤ .

(٣) البلاذرى ص ٤٢٨ ـ الطبرى ج ٨ ص٥٩ ـ ٩٧ .

(٤) بدر الدين حى الصين ، العلاقات بين العرب والصين ص ٢٧ — ٢٨ الطبرى ج ٨ ص ٩٩ـ١٠٠ .

ولعل ذلك كله يصور لنا عمق التحول الجديد فى تاريخ الصراع العربى التركى. فقد كان هذا الاشتباك بداية لحرب طاحنة شاملة تمثل الاندفاع العربى فى الجهاد، وهو لا يقل عمقاً عن الاندفاعات العربية الأولى . فقد ظل عرب هذا الجيل يلحون فى المعركة عشر سنوات كاملة لم يتوقفوا فيها عن الكفاح وتجنيد قدرات الدولة كلها فى هذه المعارك الفاصلة، وهى صورة رائعة لم تشهدها هذه المناطق منذ عرفها التاريخ .

فقد نظر العرب إلى المشكلة الطورانية نظرة تختلف عن نظرة الفرس إليها، فقد كان الفرس يركنون إلى الدفاع فقط، وكانت غارات الترك توافق سنى الضعف فى تاريخهم . أما العرب فقد شنوا الحرب فى ديار الترك أنفسهم، وكانت المعركة من الشمول بحيث عمت إقليم ما وراء النهر كله .

لقد أمر قتيبة ببناء المساجد فى بخارى وسمرقند وغيرها من البلاد . وأنزل العرب فى قلعة بخارى كما أنزلهم سمرقند . ووصلت قواته شمالا حتى الشاش وجنوبا بشرق حتى كاشغر وكانت إذ ذاك جزء من إمبراطورية الصين. وولى العمال العرب على جميع البلاد بما فيها فرغانة(١).

الامويون بعد قتيبة: على أن جهود الأمويين بعد قتيبة أى فى الفترة الممتدة من سنة ٩٦ إلى سقوط الدولة سنة ١٣٢، كانت منصرفة إلى خوض معركة تثبيت السيادة العربية، والدفاع عن المكاسب التى أحرزها العرب، بعد هذه التضحيات الجسيمة، والتمكين للنفوذ الإسلامى من أن ينتشر فى البلاد انتشاراً طبيعياً . وكانت معركة الأمويين أبعد أثراً من معركة الفتح الأولى نفسها. فلو كان العرب قد فقدوا مكاسب عصر الفتح لظل التوغل الأموى فى إقليم ما وراء النهر مجرد ذكرى عابرة .

وكان الأمويون فى هذه الفترة يواجهون أخطاراً داخلية نجمت من طبيعة الفتح وأسلوب الأمويين فى معاملة الشعوب الخاضعة لهم . فقد أبقى الأمويين على نفوذ الأمراء المحليين ما داموا قد دخلوا فى طاعتهم ودانوا بالولاء لعمالهم

---

(١) Barthold : p. 185

ودفعوا الجزية . فكان أغلب هؤلاء الأمراء تربطهم بالدولة معاهدات نظمت العلاقات بين الطرفين، ونظمت على وجه خاص التعاون العسكرى والمالى .

لهذا كانت مشاكل الأمويين الداخلية نابعة من هؤلاء الأمراء الذين كانوا يستغلون فترات تغيير الولاة أو فترات الاضطراب والضعف لنقض العهود والخروج على طاعة الأمويين وإعلان الثورة(١) . وكانت الدولة الأموية تقمع حركاتهم وتضع حداً لعدوانهم . وكان هؤلاء الأمراء الثائرون بعد إخضاعهم يفقدون امتيازاتهم القديمة وتدمج أقاليمهم فى الدولة العربية إدماجاً كاملا. وقد امتلأت أخبار الفترة التى أشرنا إليها بحوادث الصراع بين الأمراء الثائرين والعمال الأمويين . ومن أمثلة هذه الثورات ثورة أمير فرغانة بعد قتيبة وعمله على استرداد نفوذه القديم ، وثورة بخارى وسمرقند . ولم يكن الأمويون يتهاونون فى حسم هذه المشكلة أو وضع حد لهذا العدوان . حتى إذا انقضى العهد الأموى كانت المشاكل الداخلية قد حلت وخضع أغلب الأمراء للحكومة العربية . وكان دخول الأمراء المطرد فى الإسلام يهذب ثوراتهم ويهيىء لهم أسباب الألفة والتعاون مع العرب .

وكان الأمويون يواجهون مشاكل من نوع آخر ، مشاكل الشعب التركى نفسه فى إقليم ما وراء النهر ، وهى مشاكل لا تختلف عما واجهه الأمويون فى جميع الأمصار الإسلامية كلها ، وهى مسألة اطراد الدخول فى الإسلام وتناقص حصيلة الجزية والخراج ، وعمد الأمويون إلى إبقاء هذه الالتزامات المالية على الداخلين فى الإسلام ونجم عن ذلك الكثير من الفتن والثورات. وفى الحقيقة لم تكن التطورات فى إقليم ماوراء النهر تختلف عما رأيناه فى إيران ، إذ لم يستطع الأمويون الصمود أمام تيار إسلامى جارف يزداد شدة باستمرار واضطرارهم إلى التراجع فى عهد عمر بن عبد العزيز(٢) ومن أعقبه من الخلفاء . وكانت هذه الفتن الداخلية تخف باطراد الدخول فى الإسلام حتى اختفت نهائيا آخر العصر الأموى وأول العصر العباسى .

---

(١) كما حدث عند وفاة قتيبة . انظر . Barthold : p. 186

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ص ٤٣٢ .

الفصل الثالث

الأمويون والعباسيون وانتشار الإسلام فى تركستان

أدرك الأمويون فى إقليم ماوراء النهر أن معركة تأمين المكاسب وتثبيتها ان تتم بانصرافهم إلى الميدان الداخلى فحسب، لأنه كان الارتباط وثيقاً بين الأخطار الداخلية والخارجية . فقد كان الأتراك الشرقيون يلحون بالإغارة على الحدود الشرقية للبلاد ويتعاونون مع الأمراء الخارجين ، منتهزين الفتن والثورات التى امتلأ بها العصر . وكان لزاما على الأمويين كما أخضعوا الأتراك الغربيين أن يصدوا عدوان الأتراك الشرقيين وأن يحولوا دون اتحاد كلمة الترك بكل ما استطاعوا من قوة .

وتعد مراحل الصراع بين الأمويين وبين الأتراك الشرقيين فى هذه الفترة من أهم الجهود التى قدر لها أن تحمى الإسلام والثقافة العربية فى البلاد . فقد نهض الأتراك الشرقيون وعاودوا الظهور فى القرن الثامن الميلادى ، وامتدت إمبراطوريتهم من بلاد الصين حتى إقليم ماوراء النهر وظلوا يهددون إقليم ماوراء النهر طوال العصر الأموى . وحاولوا أكثر من مرة الإفادة من ثورات الأمراء الخاضعين للعرب للاستيلاء على ماوراء النهر . وتوالت غاراتهم على بلاد الصغد وفرغانة(١).

ولم يكف الأمويون عن التصدى لخطر الأتراك الشرقيين ، فتتابعت حملاتهم فى عهد الجراح بن عبد الله بن معمر اليشكرى الذى تابع الغزو فى الجزء الشمالى الشرقى من البلاد ونسب إليه أنه هم بغزو بلاد الصين نفسها(٢)، كما تتابعت الحملات فى عهد عبد الرحمن بن نعيم الغامدى وسعيد بن عبد العزيز الذى ولى

---

(١) Barthold P. 187

(٢) Barthold P. 188

البلاد فى عهد يزيد الثانى وفى عهد مسلم بن سعيد وغيره من القواد العرب(١).

وظل العرب والأتراك الشرقيون يتبادلون النصر والهزيمة فى معارك حياة أو موت ، حتى لاحت طلائع النصر فى آخر العصر الأموى على يد العامل أسد ابن عبد الله القسرى « ٧٣٥ — ١١٧/٧٣٨ — ١٢١ ه »(٢) ونصر بن سيار « ٧٣٨ — ١٢١/٧٤٨ — ١٣١ ه »(٣). الذى يحتل فى تاريخ النضال الإسلامى مكانة لا تقل عن مكانة قتيبة ، فهو الذى حمى ماوراء النهر من الأتراك الشرقيين وصان تراث العرب فى البلاد . فى عهده استفحل الخطر التركى ، واتصل الأتراك الشرقيون ببعض الأمراء الناقمين ، وهزم العرب فى اللقاء الأول ، وعبر الأتراك نهر سيحون منطلقين إلى بلاد ما وراء النهر . وصمد العرب لهم وأوقعوا بهم الهزيمة وفرقوا جموعهم وعبروا نهر سيحون من ورائهم يتعقبونهم ، ودخلوا إقليم الختل وفتحوه . وظل نصر بن سيار يتابع هذا النصر حتى سنة ٧٤٨ م « ١٢٩ ه » ، وهى السنة التى استطاع فيها أن يعزل الخطر الخارجى عن المشاكل الداخلية وأن يقر السيادة العربية فى حوض سيحون وعقد المعاهدات مع أمراء أسروشنة والشاش وفرغانة ، وأسر خان الأتراك الشرقيين وقتله(٤).

كانت حماية ما وراء النهر من عدوان الأتراك الشرقيين من أهم منجزات العصر الأموى التى مكنت للسيادة الإسلامية من بلاد ما وراء النهر . وأضافوا إلى هذه الجهود جهوداً أخرى فى ميدان الدعوة إلى الإسلام ونشر الثقافة العربية فى البلاد . وقد وضحت هذه الجهود منذ فجر الفتح الأول ، فقد كان قتيبة بن مسلم يبنى المساجد فى بخارى وسمرقند(٥). ولم تكن المساجد دوراً للعبادة لحسب

(١) البلاذرى ص ٤٣٢ ، ٤٣٣ ، Barthold P. 189

(٢) Barthold P. 161

(٣) سمى شيخ المضرية انظر ، Bathold P. 192

(٤) Barthold P. 192

(٥) أنشأ فى بخارى جامعا معروفا باسم جامع قتيبة . وكان يمنح عطاء قدره درهمان لكل مصل جديد . وكان يرسل الفقهاء إلى البيوت لتعليم الناس شعائر الدين كما أجاز ترجمة القرآن إلى اللغة الفارسية . بدر الدين حى الصين ص ٢٦ .

إنما كانت مدارس للثقافة الإسلامية . واتبع ذلك بتوطين القبائل العربية فى المدن الكبرى كبخارى وسمرقند(١). وتتابعت هذه الجهود فى عهد عمر بن عبد العزيز الذى أسقط الجزية عمن أسلم وأمر عماله بالدعوة إلى الإسلام(٢) . واستمرت هذه الجهود بعد عمر خاصة فى عهد الوالى أشرس بن عبد الله السلمى « ٧٢٧ — ٧٢٩ م / ١٠٨ — ١١٠ هـ » إذ كان أول من أنشأ الربط والخوانق والمدارس وعمل على تثبيت قدم الثقافة العربية فى البلاد(٣). فكان ذلك مقدمة لمدارس بخارى وسمرقند .

وقام الأمويون فوق ذلك بالدعوة السلمية إلى الإسلام ، خاصة فى عهد عمر ابن عبد العزيز الذى ألزم العمال أن ينشروا الإسلام ، كما اختار الوالى أشرس عبد الله السلمى المبعوثين من العرب والفرس للتبشير بالإسلام بين الأتراك(٣). يقول البلاذرى « ودعا هشام أهل ما وراء النهر إلى الإسلام وأمر بطرح الجزية عمن أسلم فسارعوا إلى الإسلام وانكسر الخراج(٤)» معنى هذا أن الآلاف من الناس تدافعوا إلى اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية .

ووضحت هذه الجهود بصورة أوفر فى عهد نصر بن سيار الذى تغلب على جميع الانقسامات الداخلية ، ووضع حداً لما عاناه المسلمون من مشاكل الجزية والخراج . ويذكر الطبرى أن ثمانين ألفا من غير المسلمين اعتنقوا الإسلام فى عهد نصر . وذهب نصر فى تسامحه إلى أبعد مدى . فعفا عمن ارتد عن الإسلام وأعفاهم من متأخرات الجزية والخراج . واستعاد أسرى المسلمين وأقر الأمن على الحدود .

وما كاد الأمر يستتب للعرب على هذا النحو حتى بدأ التجار المسلمون يطرقون الطرق التجارية القديمة . والمراجع الصينية تذكر أن قوافل المسلمين

---

(١) Barthold p, 185

(٢) Ibid P.P. 188

(٣) Ibid pp. 191-192

(٤) البلاذرى ص ٤٣٥

فى القرن الثامن الميلادى كانت تعبر طرق آسيا الوسطى كلها وانتهى بهم المطاف إلى بلاد القولوق على المجرى الأعلى لنهر الينسى ، ثم امتد نشاط هؤلاء التجار إلى بلاد القرغيز . وقد أشار الرحالة المسلمون إلى هذه الطرق التجارية ووصفوها أصدق وصف ، ومن الغريب أن تتفق هذه الأوصاف مع ما جاء بنقوش أورخون . وقد اهتم المسلمون على الخصوص بالطريق المؤدى إلى بلاد الصين . وقد أفاض الرحالة المسلمون فى وصف الشعوب التركية المحيطة ديارها بهذه الطرق(١) .

دور العباسيين فى تاريخ الأتراك

كان قيام الدولة العباسية فى خراسان وما وراء النهر تعبيراً عن حركة إسلامية ضخمة تمت آخر العصر الأموى . وأفاد العباسيون من الجهود التى بذلها الأمويون لنشر الإسلام واستطاع دعاتهم أن يجتذبوا جماهير المسلمين هناك لمبادىء الدعوة القائمة على العدل والإصلاح والإمامة للرضا من آل محمد .

ووجد أهل البلاد المتطلعون إلى مزيد من النفوذ والسلطان والراغبون فى الخلاص من مظالم العصر الأموى الأخير ، فى الدعوة الجديدة ما يحقق آمالهم (٢) . واستطاع أبو مسلم أن يجتذب الدهاقين والفلاحين إلى دعوته ، فانضم إليه على سبيل المثال أهل ستين قرية فى يوم واحد (٣) . بل اجتذب إلى دعوته الناقمين على بنى أمية جميعاً ، كخوارج سجستان(٤) واليمانية . وزاد أبو مسلم أنصاره الجدد من الخراسانية والأتراك الغربيين فى زحفه الكبير عبر إيران حتى سقطت الدولة الأموية وقامت الدولة العباسية . بل أسهم أبو مسلم فى قمع الحركات الإيرانية المناوئة للإسلام ليتوطد نفوذه وتعلو كلمته ، فقضى على ثورة قام بها الكهنة المجوس هناك(٥) . وكان أنصاره الجدد وخاصة أهل بخارى عدته فى قمع الثورات

(١) Barthold ; Histoire desTurcs d'Asia Centrale p, 35

(٢) Barthold : Turkestan p. 194.

(٣) الطبرى ج ٩ ص ٨٣ ؛

(٤) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٤٩

(٥) Barthold p. 194.

العربية التى اشتعلت هناك عام١٣٣ هـ ، فقد قاتل فى صفوف عامله زياد بن صالح بخار — خدات قتيبة ومعه أهل نحو سبعماية من القلاع والحصون (١) . وأعان هؤلاء الأنصار زياداً فى استعادة سمرقند (٢) .

وكان للعباسيين دورهم البارز فى تاريخ العلاقات العربية التركية وفى انتشار الإسلام بين أوطان الترك . فقد تعرضت بلاد ما وراء النهر لخطر فادح . ذلك أنه بعد سقوط إمبراطورية الأتراك الغربيينلم تشهد سهوب تركستان إمارة قوية توحد البدو وتشد من أزرهم ، فانتهزت الصين الفرصة السانحة وبسطت نفوذها على الأتراك الشرقيين ، وأرادت أن تفيد من تفرق الإمارات التركية وانشغال العباسيين بتوطيد دولتهم الناشئة فتفرض سلطانها على بلاد ما وار النهر . وإن كنا نعتقد أن المطامع الصينية لم تكن لمجرد فرض السيطرة السياسية ، إنما كان القصد منها الاستيلاء على طرق القوافل التى تعبرها متاجر الشرق الأقصى إلى ما وراء النهر والشرق الأوسط وأوروبا .

وفى سنة ٧٤٨م . استولت الصينعلى سوياب وخربتها(٣). وفى السنة التالية قتل أهل الصين عامل الشاش لأنه لم ينفذ سياستهم، وذلك بسبب تحريض أخشيد فرغانة (٤) ، فى الوقت الذى استنجد فيه ابن أمير الشاش بالعرب . وكان القائد العباسى زياد بن صالح قد فرغ لتوه من إخماد الفتن الداخلية والثورات فى خراسان فتصدى للجيش الصينى ، وأنزل به هزيمة ساحقة . وكان هـــذا الجيش يقوده « Kao-Hsien-Chin » وذلك فى يوليو عام ٧٥١(٥) . (١٢٤ هـ .)

والرواية العربية لا تخلو من بعض المبالغة حين تذكر أن خمسين ألفاً من جند الصين قتلوا فى المعركة ، وأن عشرين ألفاً أسروا ، على حين تذكر الوثائق

(١) الطبرى جـ ٩ ص ١٤٨ Barthold p. 155

(٢) الطبرى ٩ جـ ص ١٤٨

(٣) بدر الدين الصينى ص٢٤ .Barthold p. 195

(٤) بدر الدين الصينى ص ٢٤ تسمى المعركة معركة طالاس

(٥) Barthold p. 196.

الصينية أن الجيش كله لم يتجاوز ثلاثين ألف رجل(١) . وكان هـذا النصر من أعظم الانتصارات العربية فى تاريخ آسـيا الوسطى ، فقد كان على تركستان إذ ذاك أن تقرر إلى أى المدنيتين تنحاز ؟ إلى المدنية الإسلامية أو الصينية(٢) .

وقد تابع العباسيون توطيد سلطانهم هنـاك ، ذلك أن أبا داود خالد بن إبراهيم الذى ولى بلخ من قبـل أبى مسلم أحرز النصر فى الختل وكس وهرب دهقان الختل لائذاً بالصين ، كما قتل دهقان كش فى هـذه الحرب . ويبدو أن هذه الانتصارات العربية كانت شديدة الوقع على سياسة الصين ، فى سنة ٧٥٢ م (١٣٥هـ) بعث أمير أسروشنة إلى الصين يستعديها على العرب فرفضت تلبية النداء (٣) .

وكان من أثر انتصار العرب هذا إبعاد الصين عن المعركة الدائرة بين العرب وبين الأتراك الشرقيين . وبات على هؤلاء أن يلقوا العرب معتمدين على جهودهم ومواردهم وحدها (٤).

وقد وضحت بعد هذا النصر تطورات هامة حقا . فقد ضعف عدوان الأتراك الشرقيين ، ولم يعد العباسيون يجابهون قوات كبيرة كما فعل الأمويون من قبل . فقد تفرقت وحدة الأتراك الشرقيين . وقامت منهم إمارات صغرى متناثرة حول حدود ما وراء النهر ، فظهرت إمارات القرلوف (سنة ١٤٧هـ، ٧٦٤م) شرقى نهر سيحون واحتلت مدينـة سوياب ، كما ظهرت إمارة الأغوز فى الحوض الأدنى من هـذا النهر . ولم تعد جموع الأتراك الشرقيين تشكل خطرا فادحا على إقليم

---

(١) Barthold p. 196

(٢) Barthold p. 196.

(٣) Barthold p. 196.

(٤) يعلل بدر الدين الصينى ابتعاد الصين بأنها كانت تواجه ثورة هائلة فى الداخل . وقد اشتعلت هذه الثورة سـنة ٧٥٤ وكادت أن تقضى على نفوذ أسرة تانغ واضطرت إلى مصالحة العرب والترك . وأن الولاة العرب فى ما وراء النهر سـاعدوا الصين فى إخماد الثورة بأمر من الخليفة المنصور . أنظر صفحات ٣٦ ، ٤٦

ما وراء النهر . بل أصبح لا هم لهم إلا الغارات الخاطفة أو مد يد المعونة للولاة الترك الثائرين وكانت الدولة العباسية تصد هـــذه الغارات الخاطفة من ناحية وتقضى على الأمراء الثائرين من ناحية أخرى(١) . وقد عمد العباسيون إلى بناء الأسوار عند رشت وقرب بخارى وفى بلاد الشاش لإعطاء الإقليم الحـــماية والطمأنينة التى لابد منها لتمضى المشروعات الإسلامية فى طريقها إلى النجاح (٢).

وقد بذل العباسيون الجهود الـكبيرة فى صد عدوان الأتراك الشرقيين ، ففى عهد الخليفة المنصور بعث الليث رسولا إلى بلاد فرغانة ، وكان أميرها قد آوى إلى كاشغر واضطر إلى طلب السلام ودفع الجزية ، ثم دعاه العرب إلى الإسلام فلما أبى أودع السجن حتى ولى المهدى الخلافة(٣).

أما المهدى فقد بعث أحمد بن أسد فى حملة إلى فرغانة ، ثم أعقب ذلك بعثه الرسل يطلبون إلى كثيرين من الأمراء الخضوع لسلطانه، فاستجاب له كثيرون: منهم أخشيد الصغد وأخشيد أسروشنة وملك فرغانة وخان القرلوق وخاقان التقوز أوغـــوز وملك التبت . بل بلغ من جرأة المهدى أن بعث الرسل إلى إمبراطور الصين(٤) يطلب الخضوع لنفوذه. أما الرشيد فقد بعث عامله الغطريف ابن عطاء عمراً بن جميل إلى فرغانة لغزو القرلوق. وفى نفس الوقت كان الفضل ابن يحيى يقضى على الفتن الداخلية فى البلاد ، ويتلقى فروض الولاء والطاعة من أمير أسروشنة (٥).

ولما كان المأمون مقيما بمرو بعث جيشا إلى الصغد وأسروشنة وفرغانة (٦). ويشير المؤرخون إلى حملة بعثها العباسيون سنة ١٩٤ هـ (٨٠٠ م) إلى مدينة قولان . وقبيل احتدام النزاع بين الأمين والمأمون بدأ الأخير يلقى المتاعب من الأتراك الشرقيين . فقد شق القرلون عصا الطاعة وتبعهم خاقان التبت . وكـــان

---

(١) Barthold p. 201,

(٢) Barthold ; Hist. des Turco d'Asia Céntrale p. 32.

(٣) Barthold. Turkestan p. 201

(٤) Ibid p, 202

(٥) انظر الطبرى ج ١٠ ص ٦٠ـ٦٣ .

(٦) البلاذرى ص ٤٣٦ .

ملك كابل يستعد لغزو ماجاوره من بلاد خراسان ، وكف أمير أترار عن دفع الجزية . وقد أشار الفضل بن سهل على المأمون بأن يكتب إلى القرلوق وخاقان التبت بأنه قد ولاهما على بلادهما ويعدهما بالوقوف إلى جانبهما فى حروبهما مع الأمراء المجاورين ، كما أشار عليه بأن يهادى ملك كابل ويعرض عليه الصلح وأن يرد إلى أمير أترار جزية سنة[1] . ويبدو أن هذه الجهود تكللت بالنجاح .

وهكذا استطاع العباسيون أن يحلوا هذه المشكلة المستعصية فى تاريخ العلاقات العربية التركية بوقفهم عدوان الأتراك الشرقيين وقضائهم على الخطر الصينى .

العباسيون وانتشار الأسلام فى البلاد

كان للعباسيين — كما رأينا — دورهم الواضح فى المجالين السياسى والعسكرى وكان لهم أيضا دورهم فى انتشار الإسلام والثقافة العربية فى البلاد .

ويمكننا أن نقول إن العباسيين وجدوا حركة إسلامية كبيرة انتشرت فى خراسان وفى إقليم ما وراء النهر . وكانت تلك البلاد طوال العصر الأموى تابعة إداريا لولاة خراسان. واستطاع العباسيون أن يستغلوا هذه الحركة لصالحهم وأن يكسبوا رضاء المسلمين هناك توطئة للقضاء على الحكم الأموى . إذ لم يكن من الممكن أن يعتمد العباسيون على حركة سطحية ضحلة لا تمكنهم من النجاح المنشود ،ولم يكن اختيارهم لمنطقة خراسان وما وراء النهر عبثا .

وقد اتجهت الدعوة الهاشمية إلى إقليم خراسان وما وراء النهر أواخر العصر الأموى ، واضطلع بها قبل أبى مسلم يحيى بن زيد العلوى وإبراهيم بن محمد العباسى . وكان منطق الدعاة العباسيين إذ ذاك يجذب إليه هؤلاء المسلمين الجدد ، فقد كانوا يدعون لإحياء سنة رسول الله وأن ينال المسلمون حقوقهم السياسية والمدنية . ولا يمكن أن يغفل أولئك المسلمون دعوة تلك أهدافها ومراميها .

كان الدعاة العباسيون فى السنوات السابقة على انتصارهم يسعون إلى كسب طبقات معينة من الناس ، يسعون إلى كسب اليمانية دون المضرية وكسب

---

(١) البلاذرى ص ٤٠٩ ، ٤٣٧ .

أهل الريف وطبقة الدهاقين ، فاتخذت حركتهم طابعاً شعبياً صرفاً . وكانت الدعوة تلقى الاستجابة الشاملة إذ أن ست قرى دخل أهلها فى دعوة أبى مسلم فى يوم واحد ، وإن نجاح الثورة العباسية فى خراسان وما وراء النهر يدل على عمق هذه الحركة الإسلامية التى استغلوها لصالحهم .

وقد أكدت الأحداث التالية لنجاح انقلابهم هذه الحقيقة ، ذلك أن الانشقاق العلوى لقى قبولا فى منطقة بخارى حيث قامت ثورة شريك بن صالح تنادى بأحقية العلويين . وقد تجمع حوله نحو ثلاثين ألفا من بخارى وحدها . بل امتدت هذه الحركة إلى خوارزم إلى أن تمكن العباسيون من القضاء على هذه الثورة واستعادة نفوذهم .

ويرجع الفضل إلى العباسيين فى أنهم مكنوا لهذه الحركة الإسلامية العميقة من أن تمضى فى سبيل نجاحها ليكتسب إقليم ماوراء النهر فى مستهل القرن الثالث طابعا إسلاميا واضحا .

وأهم الجهود التى بذلها العباسيون فى الميدان السياسى والعسكرى هى حماية إقليم ماوراء النهر من الأخطار الداخلية والخارجية التى هددته، وحمايته من خطر الصين والأتراك الشرقيين ، ثم القضاء على ثورات الأمراء المحليين . وليس من شك فى أن الأمن الذى انتشر فى البلاد فى ظل بنى العباس أعلى من شأن الحكم العربى فى نظر الناس وساعد عن طريق غير مباشر على التمكين للحركة الإسلامية من أن تمضى فى طريقها ونجاح الإدارة العربية فى حل المشكلات التى استعصى حلها رفع قدر الحضارة الإسلامية فى نظر الناس .

وكان على الولاة العباسيين أن يمكنوا للنظم الإدارية فى البلاد مستهدين بالتقاليد الساسانية ، وأن يوحدوا بين الفرق والاتجاهات المختلفة وأن ينشروا الأمن والطمأنينة ، وألا يضعوا السيف فى علاقتهم بالولاة الثائرين أو بحلفائهم من الأتراك الشرقين . وقد تحقق للعباسيين إخضاع البلاد تماما للنفوذ الإسلامى والقضاء على أى تهديد من الداخل أو الخارج عندما عدلوا عن السياسة القديمة من كثرة عزل الولاة وتوليتهم إلى سياسة جديدة أكثر ملاءمة، تقضى بأن تكون الولاية وراثية فى أبناء الأشراف من أهل البلاد، العليمين بأحوالها والذين يظفرون

بتقدير الناس واحترامهم (١) .

وقد بذل هؤلاء الولاة حتى ظهور الطاهريين جهوداً عظيمة ، فقد تصدوا لثورات العرب فأخضعوها وقضوا عليها ، كما قضوا على ثورات الإيرانيين أيضاً إذ استطاع عبد الجبار بن عبد الرحمن (١٤٠هـ ، ٧٥٧م) الذى خلف أبا مسلم فى حكم البلاد أن يهزم مجاشع بن حريث الأنصارى عامل بخارى وأن يقضى عليه لميوله العلوية[٢] . وفى عهد المهدى اندلعت ثورة يوسف البرم مولى ثقيف الخارجى فى بخارى سنة ١٦٠هـ(٧٧٦ م) وكان يوسف يمد سلطانه إلى مروالروذ والطالقان والجوزجان ، ثم اشتعلت ثورة أخرى فى عهد المأمون، هى ثورة يوسف حفيد منصور بن عبد الله . وانتشرت فتن الخوارج فى سجستان وبادغيس . وظلت سجستان بؤرة للثورات حتى فى عهد الطاهريين والسامانيين . ثم كانت ثورة أشناس فى بادغيس سنة ١٥٠هـ

كما تصدى هؤلاء الولاة لثورات أتباع أبى مسلم الذين اتخذوا البياض شعاراً لهم وسموا المبيضة . ومن أنصار أبى مسلم الذين أعلنوا الثورة فيما وراء النهر إسحق التركى ، كما ثار المقنع الخراسانى قرب مرو . وكذلك ثورة رافع بن الليث الذى هزم واستسلم المأمون . وكان الأتراك المسلمون من وراء هذه الثورات يؤيدون هذا الفريق حينا وذاك أحيانا[٣] .

وقد أضاف العباسيون إلى سياستهم تلك أمراً آخر كان بالغ الأثر فى التقريب بين الأتراك والعرب ودافعاً لمن بقى منهم على دينه إلى اعتناق الإسلام ، ونقصد استخدام الترك فى الجيش ووظائف الدولة . وقد وجد العباسيون تقاليد عربية قديمة مطبقة منذ أيام الأمويين وهى استخدام غير المسلمين فى الجيش ، فتوسع العباسيون فى استخدامهم . وقد أنشأ الفضل بن يحيى البرمكى فرقة كبيرة فى خراسان من الأتراك الغربيين بلغ عدد أفرادها نحواً من خمسين ألف مقاتل بعث منهم إلى بغداد عشرين ألفا ، وأطلق عليها اسم الفرقة العباسية . واشترك

---

(١) Barthold . p. 198

(٢) الطبرى جـ ٩ ص ١٢٨ .

(٣) Barthold pp. 199—200.

فى قوات على بن عيسى رجال من الصغد . وكان جيش طاهر بن الحسين يضم سبعمائة من الخوارزمية(١) .

والجديد فى الأمر هو استخدام هؤلاء الجند الترك فى بغداد نفسها . وقد استن المأمون سنة جديدة حينما دعا كثيرين من زعماء الأتراك إلى الدخول فى خدمته ، ودعا زعماءهم إلى بغداد ومنحهم الصلات واشترك فرسان الترك فى الحرس الخليفى . واستمر هذا التقليد فى عهد المعتصم حين ظهر الحرس التركى وفيه من الصغد وفرغانة وأسروشنة والشاش ، وكانوا دعائم الخلافة . وقد قرب ذلك بين الأتراك الغربيين وبين الإسلام وساعد على انتشاره من ناحية وساعد على تثبيت السيادة الإسلامية من ناحية أخرى .

وفى عهد المعتصم كان الإسلام قد رسخت قدمه فى بلاد ماوراء النهر ، وبدأ الأتراك أنفسهم يتبنون حركة الجهاد بين جيرانهم الأتراك الشرقيين(٢) . يقول البلاذرى « المعتصم بالله حل شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر من الصغد والفراغنة والأسروشنة وأهل الشاش وغيرهم ، وحضر ملوكهم بابه ، وغلب الإسلام على ما هناك(٣) ، وصار أهل تلك البلاد يغزون من وراءهم من الترك .. ففتح مواضع لم يصل إليها أحد من قبله » .

وقد تبع انتشار الإسلام على ذلك النحو سير الثقافة فى طريقها المرسوم فلم تعد ثقافة الوافدين من العرب إنما توطنت بين أهل البلاد الذين بدأوا بعد تعلم اللغة العربية يضيفون الكثير إلى الإنتاج الإسلامى . وإذا كانت مدارس ماوراء النهر قد ازدهرت فى عهد الطاهريين والسامانيين حينما برزت بخارى وسمرقند كمراكز للعلم والثقافة . فليس من شك فى أن الخطوات الأولى التى أدت إلى هذا التطور قد تمت فى القرنين الثانى والثالث .

ومن الممكن أن نكشف عن الجهود التى بذلها مسلمو ما وراء النهر فى الثقافة

---

(١) Barthold p. 203.

(٢) Ibid p. 212.

(٣) البلاذرى ص ٤٣١ .

الإسلامية إذا درسنا فى عمق كتب الطبقات : طبقات الأطباء والحفاظ والفقهاء والشعراء واللغويين والنحاة والمفسرين . فلا شك فى أننا نجد مادة غزيرة تلقى ضوءاً على هذه الجهود التى بذلها أبناء هذه البلاد . ومما لا شك فيه أن بروز علماء من أهـــل تلك البلاد ، لا فى ما وراء النهر فقط بل فى العالم الإسلامى كله . مثل الترمذى والبخارى والفرغانى أمر لم يتم بين عشية وضحاها ، بل لا بد أن يكون هذا الجيل من العلماء مسبوقا بجيل آخر مهد لظهور أمثال هؤلاء الرجال .

الفصل الرابع

الحركات الاستقلالية ـ الطاهريون والسامانيون

وفى مطلع القرن الثالث اشتركت خراسان فى الحركة الاستقلالية التى عمت العالم الإسلامى كله بقيام الدولة الطاهرية بها . ولم يكن ظهور هذه الإمارات مصادفة ، إنما كان ثمرة لتطور أكثر خطورة وعمقا . فقد كانت الإمارات استجابة لحركة إسلامية شاملة ظهرت فى صورة رغبة جامحة أحس بها الخراسانيون المسلمون فى المشاركة فى الحياة الإسلامية . والواقع أن قيام الطاهريين ـ كما بينا ـ كان تعبيراً عن حركة إسلامية كبيرة شملت خراسان كلها ونعتقد أنها شملت ما وراء النهر كذلك . فقد كان الطاهريون(١) يحكمون خراسان كلها وما وراء النهر ويعتمدون على ولاء الخراسانيين المسلمين وولاء الأتراك الغربيين الذين استجابوا للاسلام . وكان الطاهريون يستمدون نفوذهم الحقيقى من القوتين معاً؟ الخراسانية والتركية الغربية .

وكان من الطبيعى أن تتأثر الحركة الإسلامية فى وطن الأتراك الغربيين بظهور الطاهريين وبسط نفوذهم على البلاد . فقد قام الطاهريون بدور مرسوم وكانت له أبلغ النتائج ، فقد أمدوا الحركة الإسلامية عن طريق الحكم المستقر الذى أقاموه ، وانصرفوا إلى الإصلاحات الداخلية بصورة لم تكن معهودة من قبل .

وقد انصرفت عنايتهم إلى الأمور الزراعية فأنفقوا نحواً من مليونى درهم فى حفر قنوات بإقليم الشاش ظلت قائمة حتى القرن السابع الهجرى ، (الثالث عشر الميلادى)(٢) . وفاق اهتمامهم بالزراعة كل وصف ، وكانت المنازعات تثور بين

---

(١) Barthold p. 212.

(٢) Barthold p. 212.

الناس بسبب استخدام الماء فى الرى ؛ وكان عبد الله بن طاهر يستمين بالفقهاء لحل هذه المشاكل .

وكان الطاهريون يدأبون على كسب ولاء جماهير المسلمين إذ كانت عنايتهم واضحة بالطبقات الفقيرة المستضعفة . وقد دفعهم ذلك إلى العناية بالتعليم العام وتمكين أبناء الفلاحين من الأخذ بنصيب من الثقافة العربية . ومعنى هذا أن الثقافة العربية لم تعد ثقافة الطبقة الأرستوقراطية بل أخذت تنتشر بين الجماهير(١) .

وقد أدت هذه الحياة الاقتصادية المستقرة من ناحية وتشجيع الطاهريين من ناحية أخرى إلى تشجيع الحركة العلمية ، لافى نيسابور أو فى مدن خراسان فحسب بل فى مدن ماوراء النهر نفسها ، وبدأت مدارس بخارى وسمرقند ترسخ قدمها فى الإنتاج وتذيع شهرتها فى الآفاق . وكان الطاهريون أنفسهم على درجة كبيرة من الثقافة الرفيعة ، فقد عرف عبد الله بن طاهر بقرض الشعر وكان ابن أخيه منصور بن طلحة يؤلف الكتب(٢) .

وثمة حقيقة أخرى بدت فى عهد الطاهريين وساعدت على التمكين للحركة الإسلامية وهى احتشاد المرابطين والمطوعة والغزاة فى خراسان بعامة وفيماوراء النهر بخاصة ، فقد أصبحت ما وراء النهر فى عهد الطاهريين بلدا إسلاميا ، وكان المجاهدون يفدون إليها للمشاركة فى جهاد الأتراك الشرقيين وحماية دار الإسلام(٣)

ويبدو أن هؤلاء الغزاة كان لهم شأن فى عصر الطاهريين فقد أصبحت لهم طائفة تنظم شئونهم . وكان قائد المطوعة يتمتع بشهرة واسعة ؛ وكان المطوعة فى بلاد ما وراء النهر يعرضون خدماتهم .

وكان الطاهريون أكثر إدراكا للخطر الذى يتهدد البلاد من الأتراك الشرقيين الذين لم يكفوا عن الإغارة الخاطفة على حدود الإقليم . وكانوا فى

---

(١) Ibid p 212—213.

(٢) الثعالبي : اليتيمة جـ ٤ صفحات ١٢ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٧ ، ٢١ .

(٣) Brathold P. 215.

نفس الوقت الذى يبثون فيه الاستقرار فى الداخل يدفعون خطر الهجوم التركى المتدافع(١) . وفى عهدهم خضعت إمارة أسروشنة للنفوذ الإسلامى ، وقد أسلم أمراؤها واشترك منهم حيذر الملقب بالأفشين فى الحياة الإسلامية فى بغداد .

وكانت جيوش الطاهريين لاتكف عن حماية مناطق الأطراف وقد بلغت أعمالهم العسكرية بقصد الدفاع مرو والروذ وخوارزم .

والدور الذى لعبه السامانيون أكثر بروزا ، فكما كان لهم دورهم المرسوم فى تاريخ الحركة الاستقلالية الإيرانية كان لهم دورهم المرسوم فى تاريخ الإسلام فى تركستان . فى عهدهم وضحت ثمار الجهود التى بذلها العرب فى دفع الاسلام فى هذه المناطق طيلة قرنين من الزمان ، وأحرزت الحركة الإسلامية نجاحها المرجو فثبت الإسلام فى قلوب الأتراك الغربيين ، بل انتشر بين الأتراك الشرقيين ودخلت الأمة التركية فى الحياة الإسلامية لتلعب دورها المرسوم .

أفادت بلاد ماوراء النهر من الحركة الاستقلالية التى نشأت فى خراسان فى ظل الطاهريين ، ولكن ظهور السامانيين كان فى الحقيقة نبوع هذه الحركة الاستقلالية من إقليم ماوراء النهر نفسه فقد كان مركز القوة السامانية ومركز الإشعاع السامانى . وكما خضعت ماوراء النهر لنفوذ خراسان السياسى فى عهد الطاهريين ، خضعت خراسان هذه المرة للنفوذ السامانى المنطلق من وراء النهر .

وقد نبتت قوة السامانيين فى أرض ماوراء النهر الصميمة ، فقد بدأوا حياتهم عمالا للطاهريين فى مدن ماوراء النهر ، ثم اشتركوا فى القضاء على ثورة رافع بن الليث ، وخدموا المأمون وفازوا برضاه . فطلب أن يولى نوح على سمرقند سنة ٢٠٤هـ وأحمد بن أسد على فرغانة ويحيى بن أسد على الشاش(٢) وأسروشنة والياس على هراة (٣) . ولما ولى طاهر بن الحسين خراسان أقرهم فى هذه الأعمال .

---

(١) الطبرى جـ ١٠ ص ٢٥٧ .

(٢) Barthold pp. 209—210.

(٣) الخضرى تاريخ الأمم الإسلامية ص ٣١٠ .

بل استطاع نوح بن أسد أن يجمع بين سمرقند وبين إقليم الصغد . وإنما الذين وطدوا ملك السامانيين(١) وثبتوا نفوذهم هم أولاد أحمد بن أسد خاصة نصر الذى خلف أباه على سمرقند وما يليها من قبل الطاهريين . فلما انتهى ملك بنى طاهر ولاه الخليفة العباسى المعتمد بلاد ماوراء النهر سنة ٢٦١هـ . فلما آلت إليه الإمارة رسمياً على هذا النحو ولى أخاه إسماعيل على بخارى فى نفس السنة .

ولما توفى نصر سنة ٢٧٩هـ آلت زعامة السامانيين إلى أخيه إسماعيل الذى مضى بالإمارة فى طريق التوسع والازدهار ، فقهر الصفاريين وانتزع طبرستان من يد أميرها محمد بن زيد، كما ضم الرى وقزوين وصد عدوان الأتراك الشرقيين. ومات إسماعيل فى مدينة بخارى سنة ٢٩٥ فخلفه ابنه أحمد بن إسماعيل الذى قضى على الدولة الصفارية ، إذأسر سبكا السبكرى غلام عمرو بن الليث الصفارى كما أسر الليث بن على الصفارى وانتزع سجستان من يد المعدل بن على بن الليث الصفارى وأسر أخاه محمد بن الليث . ولما قتل أحمد بن إسماعيل سنة ٣٠١ (٩١٣م) أقر الخليفة المقتدر ابنه نصراً على بلاد أبيه .

ولما توفى نصر بن أحمد سنة ٣٣١هـ «٩٤٢م» خلفه نوح بن نصر فى خراسان وما وراء النهر . وقد تصدى لمؤامرات البويهيين والزياريين حتى توفى سنة ٣٤٣ فخلفه عبد الملك بن نوح حتى مات سنة ٣٥٠ ، «٩٦١ م» فآلت الإمارة إلى أخيه أبى صالح منصور . وفى عهده دبت الشيخوخة فى جسم الدولة فقامت الثورة بسجستان والرى واحتدم النزاع بين البويهيين ، وانتهت الدولة بوفاة نوح الثانى ابن نصر سنة ٣٨٧ هـ «٩٩٧م» .

إذن هذه مساهمة واضحة من جانب الأتراك الغربيين فى الحركة الاستقلالية التى عمت العالم الاسلامى كله فى ذلك الوقت ، وبدأ الأتراك الغربيون فى ظل بنى سامان يلعبون دوراً بارزا فى الحياة الاسلامية .

وكانت من أولى ثمرات الاستقلال السامانى فيما وراء النهر تمكن الحركة الاستقلالية من البلاد وانتصارها انتصاراً لاتقهر من بعده(٢) ، وتمكن الثقافة العربية من البلاد ، وصيرورة الإقليم مركز إشعاع ثقافى إسلامى عظيم امتد أثره

(١) Barthold p. 215.

(٢) Barthold ; Histoire des Turcs d'Asia Centrale p. 47.
انظر : ابن الأثير جـ ٧ ص ١٠٠ ، و جـ ٨ ص ٢ — ٣ ،

شرقا حتى الصين وشمالا حتى كاشغر وغرباً حتى حوض الفولجا . يقول الثعالبي «كانت بخارى فى الدولة السامانية مثابة المجد وكعبة الملك ومجمع أفراد الزمان ومطلع نجوم أدباء الأرض وموسم فضلاء الدهر» (١).

وقد مهد السامانيون لذلك التطور الهام بسياسة داخلية ناجحة تهدف إلى نفس الاتجاهات التي سعى إليها الطاهريون من قبل من استتباب الأمن والاعتماد على تأييد شعبي شامل ، ومن انعاش للحياة الاقتصادية بتشجيع التجارة والزراعة والصناعة .

ويبدو أن السامانيين كانوا قد وصلوا بالحياة الاقتصادية فى ما وراء النهر إلى درجة من الازدهار لم تشهدها البلاد من قبل ، أشار إليها المقدسى الذى تحدث عن الصادرات والواردات وأشاد بنفوذ السامانيين وفضلهم (٢) .

هذا ويجمع المؤرخون على انبعاث نهضة إسلامية كبرى من مدارس ما وراء النهر ، خصوصاً من بخارى وسمرقند . وقد أشرنا إلى هذه الحقيقة عند تناولنا لتاريخ إيران . ولا ننكر أن هذه النهضة تطور طبيعي وضحت مظاهره منذ أيام الأمويين ووصل إلى القمة فى ذلك العصر . ولا ننسى أن نذكر أن مستوى الرخاء ومظاهر الثروة تساعد على تشجيع الحركة العلمية ونموها . وقد ساهم السامانيون فى هذا البعث بتشجيعهم الحركة العلمية وتقديرهم لرجال العلم (٣) وقد عمل

---

(١) ج ٤ ص ٢١ .

(٢) انظر : الثعالبي : يتيمة الدهر ج ٤ ص ٣٣ .

ترجم الثعالبي للكثير من مظاهر الحركة الأدبية فى خراسان وما وراء النهر ولترجمته قيمة بالغة ، فقد توفى سنة ٤٢٩ أعنى أنه عاش فترة من حياته معاصراً للسامانيين كما أنه نفسه كان من أهل نيسابور . وقد أورد نماذج كثيرة من شعراء نيسابور وبلخ وبخارى .

انظر . اليتيمة ج ٤ ص ٢ — ٢٩ و ص ٢٩٧ — ٣٣٤ .

(٣) يمتدح المقدسى سيرة السامانيين فى الحكم ويقول : أنهم من أحسن الملوك سيرة ونظراً وإجلالا للعلم وأهله ، فقد كان من رسومهم مثلا أنهم لا يكلفون أهل العلم تقبيل الأرض بين أيديهم . ويذكر المقدسى أن فى أمثال الناس « لو أن شجرة خرجت على آل سامان ليبست » ويقول : ألا ترى إلى عضد الدوله وتجبره وتمكنه وكمال دولته وقوة أمره ، فقد فتحت له البلاد طوعا وملك ما ملك فلما تعرض لآل سامان وطلب خراسان أهلكه الله وشتت جمعه وفرق جيوشه ومكن أعداءه من ممالكه فتنا لمن عاند آل سامان .

المقدسي ص ٣٣٧ — ٣٣٩ .

إسماعيل بن أحمد السامانى على توطيد سلطانه فى بخارى بمعونة الفقهاء وقد أعفاهم من تقبيل الأرض بين يديه، وكان يختار نخبة من فقهاء الحنفية ورجال العلم فى بخارى لأخذ رأيهم فى المسائل الهامة .

هذا ، وقد سار السامانيون فى نفس الطريق الذى سلكه الطاهريون قبلهم من إشاعة الحياة الثقافية فى أوساط العامة. ويعترف المؤرخ بارتولد[1] بذلك النفوذ العظيم للمدارس الثقافية فى عصر السامانيين بقوله « وتدل الوثائق التى بين أيدينا على أن المدارس التى قامت بخراسان وما وراء النهر فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) لعبت الدور الأهم فى نشر الإسلام . وإنه إذا كانت الحركة الإسلامية قد أحرزت نجاحا خارج حدود ما وراء النهر فإن الفضل فى ذلك يرجع إلى مدارس ما وراء النهر » .

وقد كان لحركة الإحياء الثقافية الفارسية التى اتخذت وجهاً إسلامياً فى العصر السامانى والتى أفضنا فى الحديث عنها أثراً بالغ فى تاريخ الحضارة الإسلامية فى ما وراء النهر خاصة وفى تركستان عامة ، والمؤرخون يرون فى الدور الذى قام به السامانيون فى هذا الصدد امتداداً للمحاولات الساسانية القديمة ، وإن كانت هذه المحاولات الجديدة قد فتحت أمامها آفاقا أوسع . وقد كانت تأثيرات المدنية الإيرانية تنفذ إلى ما وراء النهر، لكن لم تتح لإيران على الإطلاق الفرصة لإخضاع الأتراك الغربيين .أما السامانيون فقد فتحوا أمام الحضارة الإيرانية الإسلامية آفاقا عظيمة ، فهى لم تنتشر فى إقليم ما وراء النهر فقط إنما طبعت الأتراك الشرقيين بطابع فارسى واضح .

وفى ظل السامانيين اتحد الإيرانيون فى إيران مع الأتراك فى آسيا الوسطى فى دولة واحدة ، ربما المرة الأولى فى تاريخ المنطقة ، ونزح كثيرون من الإيرانيين واستقروا فى تركستان فى ظل السامانيين ، وبدأت اللغة الفارسية الجديدة لغة عصر الإحياء تكسب عالم الأتراك إلى جانب اللغة العربية . بل نفذ هذا التأثير الفارسى فى عهد السامانيين ومضى فى طريقه شرقا حتى وصل إلى

(١) Barthold p. 255.

حدود الصين (١).

والأمر الذى جعل للسامانيين مكانتهم الممتازة فى تاريخ الحضارة الإسلامية هو موقفهم من الأتراك الشرقيين . فقد كان هـذا الموقف استمراراً للسياسة العربية القديمة التى وضحت فى أول عصر المأمون . لكن الإلحاح العربى المستمر لفرض السيادة فى آسيا الوسطى فتر إلى حد كبير فى عهد الطاهريين، فقد كان اهتمامهم بخراسان اهتماما كبيراً كما جنحوا إلى سياسة الدفاع وصد الهجمات وبناء الأسوار .

أما السامانيون ، فقد نبع نفوذهم الحقيق من منطقة ما وراء النهر وطرحوا سياسة الدفاع ونفضوا أيديهم من سياسة بناء الأسوار ، بل أهملوا هذه الأسوار ولم يجددوها ، لأنهم كانوا يرون أن كلمة الإسلام لا ترتفع بين الأتراك الشرقيين إلا إذا ظهر العالم الإسلامى بمظهر القوى القادر على المبادأة بالهجوم (٢) .

ولم تكن سياسة السامانيين الهجومية بالشمول الذى رأيناه فى العصر العباسى الأول ، إنما كان هذا الهجوم أقرب إلى الغارات الخاطفة منه إلى أى شىء آخر . ولم يكن هدفهم أن يحصلوا على كسب أرضى كبير بقدرما كانوا يهدفون إلى إرهاب الأتراك الشرقيين ووقف عدوانهم وإيقاع الرعب فى قلوبهم . وقد قام السامانيون بحملات متلاحقة فى مناطق البدو المحيطة بهم كتلك الحملة المشهورة التى نسبت إلى نوح بن أسد على منطقة أسفيجاب (٣) . إذ كانت هذه المدينة لا تزال بيد أسرة تركية وكانت لها امتيازات كبيرة مثل الإعفاء من الضرائب . كذلك قام إسماعيل ابن أحمد بحملة مشابهة على مدينة طالاس سنة ٨٩٣ (٢٨٠ هـ) كما استطاع سنة ٩٠٤ م (٢٩٢ هـ) أن يطرد الغزاة الترك بمعونة المطوعة الذين خفوا إليه من كافة أرجاء العالم الإسلامى . وفى النصف الأخير من القرن العاشر وصلت

---

(١) Barthold ; Histoire des Turcs d'Asia Centrale pp. 31—35.

(٢) Barthold; Histoire des Turcs p. 48.

وقد أسفرت هذه الحملات عن الاستيلاء على بعض المدن الهامة مثل طالاس التى استولوا عليها سنة ٨٩٣ وحولوا معبدها إلى مسجد جامع .

(٣) Barthold; p. 211.

هذه السياسة الهجومية إلى أقصى مدى لها . إذ قام السامانيون بحملة كبيرة على بلاساغون ، ووقع ابن خاقان الترك أسيراً فى أيديهم . وقد فرض السامانيون سلطانهم على مناطق الأتراك الشرقيين بصورة لم تشهدها البلاد من قبل .

والدور الخالد الذى قام به السامانيون ليس هو الجهاد فحسب إنما كسبهم عالم الأتراك الشرقيين للحضارة الإسلامية . هؤلاء الأتراك الذين سيصبحون مادة للإسلام وقوة للحضارة الإسلامية . لقد كان السامانيون يطبقون سياسة الجهاد الحقة ، السيف من ناحية والتبشير السلمى من ناحية أخرى ..

لقد تضافرت عوامل كثيرة لتحقيق ذلك الكسب الكبير ، منها ذلك النشاط العظيم فى ميدان الدعوة إلى الاسلام ، والوثائق تظهر الجهود الكبيرة التى قامت بها مدارس ما وراء النهر - خصوصاً بخارى وسمرقند - والتى نشطت إلى أبعد الحدود فى القرن الرابع الهجرى ، عصر الدعوة الشاملة إلى الاسلام بين الترك .

وقد اضطلع بهذه الدعوة المسلمون من الأتراك الغربيين وهم أكثر فهما لأوضاع الترك وأعرف بلسانهم ، فقام الخراسانيون بالدعوة إلى الاسلام بين الأتراك الشرقيين .

ومن الجهود التى بذلت فى هذه السبيل جهود الفقيه أبى الحسن محمد بن سفيان الكلماتى الذى غادر نيسابور سنة ٣٤٠ هـ ، ٩٥١ م ، وقضى بعض الوقت فى بخارى ، ثم رحل إلى ديار الأتراك الشرقيين ودخل فى خدمة كبير خاناتهم ومات هناك سنة ٣٥٠ هـ (١) . ونضيف إلى ذلك جهود الفقيه أبى الحسن سعيد بن حاتم الذى رحل إلى ديار هؤلاء الترك ولقى حتفه هناك . وقد حفلت هذه الفترة بالمئات من أمثال هؤلاء الدعاة .

ولا يفوتنا أن نذكر أن القرن الرابع الهجرى شهد نشاطاً كبيراً للصوفية الذين نزلوا إلى ميدان التبشير الذى احتكره الفقهاء من قبل ، وقد شهد هذا القرن التوفيق بين التصوف والفقه ، الأمر الذى حمى الصوفية من عدوان الفقهاء وأطلق يدهم فى الميدان الدينى .

---

(١) Barthold: Four studies on the History of Central Asia,

لقد قام هؤلاء المتصوفة بدور كبير إلى جانب الفقهاء ، فالفقهاء يخاطبون الطبقة المثقفة والصوفية يتعمقون بالعقيدة فى نفوس طبقات السذج والعوام . وقد كان هؤلاء المتصوفة فى الحقيقة لا يتحدثون عن الجهاد أو الاستشهاد ، إنما يتحدثون عن الخير والبر ويخوفون من العذاب والعقاب ، ويكسبون قلوب الجماهير فى مناطق البدو بحياتهم المتقشفة وسيرتهم وزهدهم وعمق إيمانهم وصدق دعوتهم (١) .

وقد دخل الصوفية ميدان الدعوة إلى الاسلام فى بلاد التركستان فى عهد السامانيين . تغلغل نفوذهم بين الأتراك الغربيين أولا ثم انطلقوا إلى الأتراك الشرقيين . والرحالة الأوربيون يتحدثون عن ذلك النشاط الذى بذله الصوفية فى آسيا الوسطى وعن النجاح الذى أحرزوه وعن تغلبهم على منافسة الديانات الأخرى مثل المسيحية أو البوذية .

وثمة عامل آخر كان له وزنه فى انتشار الاسلام بين الأتراك الشرقيين ، ونقصد به التجارة . وقد لعبت التجارة فى هذا الميدان دوراً بارزاً . إذ المعروف أن الاحتكاك التجارى بين مناطق البدو وأماكن الاستقرار احتكاك طبيعى . فالبدو الترك كانوا ينظرون إلى البلاد المستقرة المزدهرة نظرة إكبار ، وهى موردهم الطبيعى للمنسوجات أو غيرها من المصنوعات التى لا تتوافر فى البيئات البدوية . ومناطق الاستقرار بدورها تتطلع إلى مناطق البداوة على أنها مورد طبيعى للمادة الخام والثروة الحيوانية (٢) .

وقد بدأ هؤلاء البدو أول الأمر يقبلون على أسواق المسلمين فيما وراء النهر ، ويألفون البضائع الإسلامية ، ويعتمدون عليها وتزداد حاجتهم إليها باستمرار . وكان هؤلاء البدو يقودون قطعانهم إلى المدن الواقعة على الحدود دون انتظار رحيل التجار إليهم . وكانت تسترعى انتباههم الأعشاب الطويلة على ضفاف الأنهار يأوون إليها زمن الشتاء (٣) .

---

(١) Barthold; Histoire des Turcs d'Asia Centrale p. 57.

(٢) Barthold; Turkestan p. 77.

(٣) Barthold; Four studies, Vol. I pp. 17-18.

وكانت تستهويهم من الإسلام هـذه الجوانب المادية أولا ، ثم يتبعون هذا الإعجاب بالمادة بالتطلع إلى الدين الإسلامى باعتباره العامل الموجه لهذه الحضارة المزدهرة ثم تميل قلوبهم إليه فيدخلون فيه .

وهذا القول يصدق على خانات الأتراك الشرقيين وطريقة دخولهم فى الإسلام، فقد أعجبوا أول الأمر بأحوال المسلمين وحاصلاتهم وصناعاتهم واتبعوا ذلك بالإعجاب بدينهم . ويبدو أن التجار المسلمين استغلوا هـذه الصلات المتبادلة وقاموا بدور المبشرين . وليس من شك فى أن التبشير كان يمضى جنباً لجنب مع النشاط التجارى .

كان التجار المسلمون من الأتراك يحملون المنتجات الإسلامية إلى اتجاهات متعددة عبر المسالك التى فتحها الصغد من قبل . وكانت أهم هـذه الطرق تلك المؤدية إلى بلاد الصين ومنها تفرعت شمالا إلى ديار الأتراك الشرقيين، وكانت المسافة بين طالاس وديار الكيماك مسيرة واحد وثمانين يوما .

وكان هنالك طريق آخر من إقليم ترخان حتى إقليم القرغيز وإلى حوض نهر ينيس الأعلى . وتحفل المصادر الاسلامية بالمعلومات عن الطريق المؤدى إلى القرغيز ، وتتفق هـذه المعلومات إلى حد كبير مع ماورد فى النقوش الصينية ونقوش أورخون . ويبدو أن العرب اهتموا بهذا الطريق البرى اهتماما عظيما ولهذا أفاض الجغرافيون العرب فى وصفه والإشارة إليه(١) .

وقد وضحت سيطرة المسلمين على هذه الطرق التجارية منذ تمكن العباسيون من هزيمة الصين . وتشير الوثائق الصينية إلى أنه فى القرن العاشر الميلادى نفذ التجار المسلمون شرقا حتى منغوليا . وكان فى مكنتهم أيضا الوصول إلى بلاد الكيماك عن طريق آخر من المجرى الأدنى لنهر سيحون . كانت هذه المناطق خارج نفوذ السامانيين ، ولكن المهاجرة أقاموا بها المراكز الصناعية . وكان بعض هؤلاء المهاجرة من خوارزم أيضا . وقد جنت خوارزم أرباحا طائلة عن طريق التجارة مع هؤلاء البدو(٢). وإذا كان هؤلاء التجار المسلمون قد استطاعوا أن يرفعوا المستوى الحضارى لدى الأتراك الشرقيين فإنهم أثاروا إعجاب هؤلاء

(١) ابن خرداذبة ، ص ٢٥ ـ ٢٩ ، ٣٤ـ٤١ .

(٢) Barthold; Four studies, Vol, I p. 17—18,

البدو بالعقيدة الاسلامية(١) .

وفى ختام الحديث عن عوامل نجاح الدعوة الاسلامية بين الأتراك الشرقيين يجب ألا نغفل عامل الهجرة . فقد كانت الهجرات تتجه باستمرار من إقليم ما وراء النهر إلى مناطق البداوة وطن الأتراك الشرقيين . وكان هؤلاء المهاجرة أكثرهم من عنصر الصغد الذين عرفوا بهذا النشاط . ولم يقطع الاسلام هذه الصلات بل استمرت هجرات الصغد بعد إسلامهم ، وأخذوا يتخطون حدود ماوراء النهر باستمرار . وكانوا يؤسسون مدناً أو مستعمرات خاصة بهم تنتشر خارج حدود الإقليم للقيام بعمليات المبادلة التجارية (٢) .

وكان الأتراك كثيرا ما يحتكون بهذه المستعمرات التى انتشرت على حدودهم، وكانت الدولة فى بعض الأحيان تجيز لبعض القبائل التركية عبور مناطق الحدود، وقد سمحت لبعض قبائل الأوغوز بالمرابطة فى مناطق الرعى من إقليم ما وراء النهر فى مقابل التعهد بحماية الحدود، كما سمحت لفريق التركمان بزعامة سلجوق بن دقاق بالإقامة عند الأطراف الشمالية لنهر سيحون .

وكان هذا الاحتكاك المستمر بهذه المستعمرات الاسلامية يقرب بين الأتراك الشرقيين وبين الاسلام. وليس من قبيل المصادفات أن تكثر هذه المدن وهذه المستعمرات المنتشرة خارج بلاد ماوراء النهر فى العصر السامانى بالذات، فهو العصر الذى تدفقت فيه الدعوة الاسلامية بنجاح إلى أوطان الأتراك الشرقيين .

---

(١) Idem.

(٢) Barthold; Turkestan p. 254.

ويبدو أن القراخانيين كانوا زعماء التغوز أو غوز الذين قضوا على ملك القرلوق .

الفصل الخامس

نتائج إسلام الأتراك الشرقيين

ظهور القرهخانيين

كل العوامل التى أشرنا إليها اجتمعت فى آخر العهد بالسامانيين لتصنع ذلك الحدث الكبير فى تاريخ الإسلام فى آسيا الوسطى ، وهو انتشار هذا الدين بين الأتراك الشرقيين وظهورهم فى الحياة الإسلامية وتكوينهم دولا إسلامية تركية تتطاول إلى ماوراء النهر كما فعل القرهخانيون أو تبسط نفوذها على بغداد وإيران وتخضع ما وراء النهر لسلطانها كما فعل السلاجقة .

كانت أول أمارات الأتراك الشرقيين ظهوراً فى تركستان إمارة القرهخانيين. والغموض يحيط بالقرهخانيين(١)، بأصلهم وكيفية إسلامهم ومتى تم اعتناقهم الإسلام على وجه التحديد، رغم الدور العظيم الذى اضطلعوا به فى تاريخ انتشار الإسلام فى آسيا الوسطى .

فالمؤرخون الذين أرخوا للسامانيين لم يشيروا من قريب أو بعيد إلى هذا الشعب صاحب الدور العظيم ، كما لم يشر إليه الرحالة والجغرافيون العرب . ومن الغريب أن تستقى أخبارهم من بعض المراجع المتأخرة من القرن الرابع عشر الميلادى الذين استقوا أخبارهم من روايات مبكرة بعض الشيء(٢) . وهذه المراجع المتأخرة بدورها لا تشير إلى القبائل التى انتسب إليها القرهخانيون ولم تتحدث من هجرات الشعوب التركية التى ارتبطت بظهورهم . ولم ينجل ذلك

---

(١) Barthold: Turkestan p. 254, Hist. des Turcs p. 59.
وقد أغفلوا ماضيهم السابق على الإسلام بعد أن تركوا الأبجدية الأيغورية إلى العربية انظر أيضاً : Barthold; Four studies Vol p. 21.

(٢) المؤلف جمال قرشى الذى ينقل من كتاب تاريخ كشغر من القرن الحادى عشر Hist. des Turco p. 59.

الغموض الذى لف تاريخهم الأول حتى بعد اكتشاف ديوان محمود الكشغرى الذى ألفه والقره خانيون قد استقر نفوذهم منذ عهد بعيد فعنى بحاضرهم أكبر مما عنى بماضيهم .

على كل حال نستطيع بالمقارنة بين هذه المصادر جميعها : ما كتب فى عصر السامانيين وما كتبه الرحالة والجغرافيون العرب وما استنبطه بارتولد من ديوان الكشغرى ، ومن ذلك المؤلف الجغرافى مجهول الإسم ، ألف سنة ٣٢٨هـ = ٩٣٩ م ، الذى عثر عليه باحث يسمى تومانسكى ، لذلك يسمى « مخطوط تومانسكى » . وما ورد فى ثنايا الكرديزى الذى ألف فى القرن الحادى عشر .

ويتبين مما كتبه الكرديزى وماورد فى مخطوط تومانسكى أن ديارا القرلوق (من الأتراك الشرقيين)ـ وهى الديار التى وصفها الجغرافيون العرب وصفا دقيقاًـ قد تعرضت لغزو شعب تركى آخر هوشعب اليغما من أتراك التقوز أو غوز(١). ثم يزيدون الأمروضوحا فيذكرون أن اليغما هؤلاء كانت ديارهم تشمل كاشغر وشطراً من البلاد الواقعة بين الحوض الأدنى لنهر إيلى الذى يصب فى بحيرة ولخش والمجرى الأدنى لنهر شوالذى يصب فى بحيرة إيسك كول ، ويمتد نفوذهم فى بعض الأحيان إلى الجنوب من نهر نارين أحد روافد سيحون(٢).

ولما كان القره خانيون يرتبطون بكشغر ارتباطا وثيقا فقد كانت منطلقهم ومقرا لخاناتهم ، وكانوا فى بعض الأحيان يطلقون عليها اسم « أردوكنت » أو مقر السلطان على نحو مايذكر محمود الكشغرى . فلابد إذن أن يكون القره خانيون قد انحدروا من شعب اليغما ، وهو من الأتراك التقوز أو غوز أو الايغوريين .

ثم يزداد أصل القرخانيين وضوحا ويلقى مزيداً من الضوء على أوليات تاريخهم ، إذ يشير محمود الكشغرى إلى شعوب التوخشى والجغيل من الأتراك الشرقيين (٣) . هذه الشعوب يحدد المؤرخون الفرس ديارها تحديداً واضحا إذ يذكرون أن التوخشى نزلوا بالإقليم الواقع إلى الشمال من نهر شو على حين نزل الجغيل إلى الشمال من بحيرة إيسك كول . ومن الغريب أن نجد السلاجقة

---

(١) Barthold; Hist. des Turcs p. 59.

(٢) Idem.

(٣) Barthold; Hist des Turcs p. 61.

فى عصر ملكشاه الذى قام بـ ... المشهورة فيما وراء النهر ، يطلقون على القره خانيين اسم الجغيل(١) . ويذكر محمود الكشغرى أن هؤلاء الأوغوز يطلقون اسم الجغيل على جميع الأتراك الذين ينزلون بين سيحون والصين .

إذاً القره خانيون من اليغما وهم من الجغيل الذين لعبوا دوراً هاما فى تاريخ آسيا الوسطى فى مستهل القرن الرابع الهجرى . وينتمون إلى نفس العنصر الذى انتمى إليه القرلوق الذين كانوا أقرب ما يكونون من دار الإسلام ، وأكثر تعرضا لإشعاعاته الحضارية . وتقترب بلادهم من طرازه ، وكانوا أول الأتراك الشرقيين اعتناقاً للإسلام .

ثم يفيض محمود الكشغرى فى معرفته بعالم الترك فيذكر أن الأوغوز « السلاجقة » أطلقوا على القرلوق أيضا اسم التركمان (٢) . وتلك كلمة ظهرت للمرة الأولى فى القرن الرابع الهجرى ، وهى فارسية الأصل « تورك مانند » ومعناها أشباه الترك . وفى القرن الثانى عشر كان صاحب مدينة بلاساغون وهو من سلائل القروخانيين يطلق عليه اسم التركمانى . . هكذا تعددت أصول القره خانيين فهم من اليغما وهم من الجغيل القرلوق والأغوز .

لكن الذى يعنينا من تاريخ القره خانيين هو إسلامهم . . كيف حدث ؟ ومتى تم ؟

يختلف المؤرخون فى السنة التى أسلم فيها هؤلاء . وفى أول الخانات دخولا فى الإسلام، والمؤرخان ابن الأثير(٣) ومسكويه(٤) يتحدثان عن سنة ٣٤٩ هـ . « ٩٦٠م » على اعتبار أنها فيصل فى تاريخ الإسلام فى تركستان ، فيذكران أنه فى تلك السنة تدافعت جموعهم نحو الإسلام تدخل فيه ، واعتنق الاسلام فى هذه السنة بعينها نحواً من مائتى ألف خيمة « خاركاه » من الأتراك الشرقيين(٥) ، أعنى ما يقرب من مليون نسمة دخلوا فى الإسلام فى عام واحد ، وهى صورة قل

---

(١) Idem

(٢) Hist. des Turcs p. 62.

(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٩١ .

(٤) تجارب الأمم جـ ٢ ص ١٨١ Barthold; Turkestan p. 254.

(٥) Barthold; Four studies, Vol. I p 98—100.

أن رأت حواليات الإسلام لهانظيرا . وعهدنا بعمليات التحول إلى الاسلام عمليات بطيئة لاتتخذ هذا المجرى السريع . ولعل ذلك يذكرنا بما سبق أن أشرنا إليه عند حديثنا عن أبي الحسن محمد بن سفيان الكلماتي النيسابوري الذي مات في ديار الأتراك الشرقيين سنة ٣٥٠هـ . ويبدو أن الكلماتي هذا هو الذي أدى نشاطه الكبير إلى إدخال هذه الجموع في الاسلام . وقد بذل جهوداً مماثلة فقهاء آخرون، نذكر منهم أبا الحسن سعيد بن حاتم الأسبانيكتي الذي رحل هو الآخر إلى ديار الأتراك الشرقيين في وقت سابق على سنة ٣٩٠هـ[١]، ٩٩٩م

ويشير المؤرخون ، وخاصة جمال قرشي الذي ينقل من كتاب عن تاريخ كاشغر ألف في القرن الحادي عشر الميلادي ، الخامس الهجري[٢] ، إلى أن أول خانات القرهخانيين اعتناقا الإسلام هو ستوق بغراخان عبد الكريم المتوفى سنة ٣٤٤[٣] (٩٥٥م) . وتؤيد هذه الأقوال كتب المناقب التي وضعت مؤخراً في آسيا الوسطى . ويبدو أن المنطق الطبيعي يقول بأن دخول هذه الجموع في الإسلام قد سبقه إسلام الخانات أنفسهم وأن الشعب أخذ يدخل في دين ملوكه . ولابد أن إسلام القرهخانيين تم قبل سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥م) إذ أن أقدم الروايات تذكر أنه توفى سنة ٣٤٤هـ ، ومعنى هذا أنه أسلم قبل وفاته . وليس بعيداً أن يكون قد اعتنق الإسلام في أواخر أيامه . ويؤيد هذه الحقيقة أن عاصمة القرهخانيين كانت مدينة إسلامية في السنة التي أسلم فيها ستوق بغراخان .

ولم يقف انتشار الاسلام بين الأتراك الشرقيين عند هذا الحد ، فقد انتشر بين الأتراك الشرقيين كلهم في نفس ذلك الوقت ، إذ أسلم قوم من الأوغوز النازلين عند مصب نهر سيحون . وافتتح خان الأوغوز عهده بأن حرر المدن الاسلامية التي كانت تدفع الجزية لغير المسلمين ، فكأن دخوله في الاسلام اقترن باشتراكه في معركة الجهاد ، كما أسلم القرلوق[٤] ، وأسلم من الأغوز السلاجقة . على كل حال ما كاد القرن الرابع الهجري ينتصف حتى كان الأتراك الشرقيون قد أسلموا كلهم وأسلم خاناتهم .

(١) Barthold; Turkestan p 259.

(٢) Idem

(٣) زامباور جـ ٢ ص ٣١٢ .

(١) Barthold: Hist. des Turcs p. 61.

والأمر الذى أبرز دور القرهخانيين فى الحياة الإسلامية ودفع المؤرخين إلى الاهتمام بهم والإفاضة فى الحديث عنهم هو اتجاههم إلى ما وراء النهر، حيث الحضارة العربية التى ازدهرت هنـاك وحيث الإشعاع الثقافى العظيم من مدارسه التقليدية التى تمت بالصورة التى أشرنا إليها فى عصر السامانيين .

والحقيقة أن احتكاك الأتراك الشرقيين بالسامانيين فى ما وراء النهر قديم، يرجع إلى مستهل القرن العاشر الميلادى ، بل قبل ذلك[١]. ففى القرن التـاسع الميلادى (الثالث الهجرى) والنصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، أنفذ السامانيون الجيوش إلى منـاطق البدو الترك لإخضاعهم . وقد استولى نوح بن أسد على أسفيجاب كما أرسل إسماعيل جيشا إلى مدينة طراز وأرسل نصر جيشا إلى شاوغر . هذا وقد أغار الأتراك الشرقيون على ما وراء النهر سنة ٩٠٤ م[٢] . (٣٩٢ هـ) فى عهد إسماعيل بن أحمد ، ثم استولى هؤلاء الترك على بلاساغون سنة ٩٤٢ م (٣٣١ هـ) وتصـــدى لهم السامانيون سنة ٩٤٣م (٣٣٢ هـ) وأسروا ابن خاقان الترك[٣] . وظل السامانيون يفرضون سلطانهم على الأتراك الشرقيين حتى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى ، يدل على ذلك ما كان من بنائهم الربط والحصون قرب ميركى[٤] .

لـكن يبدو أن أطماعهم فى أملاك السامانيين قد شد من أزرها إسلامهم فى عهد ستوق بغراخان ، وتأكد هذا الإسلام فى عهد حفيده هارون بن موسى ، الذى اتخذ لقب شهاب الدولة وظهير الدعوة ، ونقش هذا اللقب على السكة التى ضربها بايتاق سنة ٣٨٢ هـ (٩٩٢ م)[٥] . ولم يجد مقـاومة تذكر فى غزو ما وراء النهر . وكان قد تم الاتفاق سرا بين هرون وبين والى خراسان إذ ذاك أبى على أحمد بن محمد بن أمير الصغانيان على اقتسام أملاك السامانيين ، على أن

---

(١) Barthold; Turkestan p. 256.

(٢) الطبرى جـ ١٢ ص ٣٩٢-٣٩٤ .

(٣) ابن الأثير جـ ٨ ص١٤٧ .

(٤) Barthold : Turkestan I. 256.

(٥) لقبه شهاب الدولة على النقود « زامباور جـ ٢ ص ٣١٢ » Barthold; p 257 زامباور جـ ٢ ص ٣١٢ .

تترك بلاد ما وراء النهر لبغراخان وتطلق يد أبي على فى البلاد جنوب نهر جيحون(١) .

والمؤرخون يختلفون فى الكشف عن الأسباب الحقيقية التي دفعتهم صوب الغرب ، نحو ديار الأتراك الغربيين . فى الوقت الذى كان يجب عليهم أن يندفعوا صوب الشرق ليفتحوا للإسلام أفقا أرحب يمتد حتى حدود الصين . ونعتقد أن القرهخانيين لم يكن يمنعهم من الاتجاه صوب الشرق إلا خوفهم من الاصطدام بقوة الصين ، هذا والحضارة الاسلامية المزدهرة فى مدن الإقليم وما عرف به من وفرة الثراء ورقة الحضارة كان عاملا هاما فى جذب أنظار هؤلاء البدو ، كما اجتذبت بغداد البويهيين الديلم .

ويعلل هذا الاتجاه أيضا بأنه كان باغراء من طبقة الدهاقين فيما وراء النهر ، الذين أخذوا على السامانيين اتجاهاتهم الشعبية ؛ وهم الذين استدعوا الأتراك الشرقيين ويسروا مهمتهم وأطلعوهم على عورات البلاد . ويؤيد هذا أن الدهاقين جنوا الفائدة مضاعفة بعد أن تمت للقرهخانيين السيطرة على البلاد ، فقد احتفظوا بخاصرتهم القديمة فى كاشغر ، وأصبحت ماوراء النهر تابعة لهم تطلق فيها أيدى الدهاقين(٢) .

وهنالك تفسير آخر وهو أن بعض رجال الدين فى عهد السامانيين الأواخر ظنوا أن فى تغيير الحكم فائدة لهم ، لذلك مهدوا الطريق أمام القرهخانيين للتقدم صوب الغرب . يدل على ذلك موقف الفقهاء خلال أحداث الفتح . فقد أفتوا بألا يحمل الناس السلاح فى وجه الغزاة(٣) . وقد نال الفقهاء من الامتيازات فى عهد القرهخانيين أضعاف ما حصلوا عليه فى عهد السامانيين . وكان رجال الدين ينتظرون ظهور هؤلاء الفاتحين لتخليص العالم الإسلامى من نفوذ الشيعة .

على كل حال لم يلق هارون بن موسى معارضة تذكر من أهل البلاد أثناء

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٠٢ ، جـ ٩ ص ٣٧ .

(٢) Barthold ; Four studies Vol. I p. 21.

(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ٧٠ Barthold : Turkestan p, 258,

تقدمه إلى إسفيجاب وسمرقند وبخارى ودخوله حاضرة السامانيين فى ربيع الأول سنة ٣٨٢ هـ (مايو ٩٩٢)[1] . ولكن هارون ما لبث أن انسحب إلى سمرقند ثم مات فى طريق عودته لبلاده .

ولم تقف أطماع القرهخانيين رغم وفاة هرون ، فقد عاودوا غزو البلاد مرة أخرى فى سنة ٩٩٦ م (٣٨٦ هـ) وقد استنجد نوح آخر السامانيين بسبكتكين، فخف إلى نجدته ، وانضم إليه أمراء الجوزجان والصغانيان والختل ولكن سبكتكين صالح القرهخانيين على أن تكون الحدود الفاصلة بينهم وبين السامانيين بادية قطوان ، وتتم سيطرتهم على كل البلاد الواقعة شمال حوض ظفرستان . وبهذا احتفظ القرهخانيون بحوض نهر سيحون كله ولم يقيموا فى بخارى إنما احتفظوا بعاصمتهم القديمة وأصبحت ما وراء النهر ولاية تابعة لهم[2].

ولم يتوقف زحف القرهخانيين صوب الغرب .فقد تمكن أرسلان خان على ، الذى اتخذ لقب أرسلان أيلك ، من هزيمة بقايا السامانيين سنة ٩٩٩ . م[3] (٣٩٠ . هـ) واستولى على ماوراء النهر كله باسم القرهخانيين . ومات آخر السامانيين سنة ١٠٠٥ بعد محاولات عديدة لاسترداد أملاك الدولة[4].

ولم يغفل القرهخانيون دورهم كمبشرين بالإسلام وذادة عن تراثه . ولم يفتهم أن يسهموا بنصيب كبير من الجهاد فى أقصى الشرق رغم اهتمامهم بالغرب واستيلائهم على ما وراء النهر . والدليل على ذلك أن خان كاشغر ـ أرسلان خان على ـ مات شهيداً سنة ٩٩٨م وهو يحاول نشر الإسلام إلى الشرق من كاشغر[5].

وفى عام ١٠٤٣ م (٤٣٥ هـ) ، بفضل نشاط القرهخانيين ، اعتنق أتراك القرغيز الإسلام ، وكانت أعدادهم تربو على عشرة آلاف خيمة . وكانوا فى الصيف يقيمون قرب بلاد البلغار وإذا كان الشتاء أقاموا قرب بلاساغون .

---

(١) حسن إبراهيم ج ٣ ص ٨١ ، ابن الأثير ج ٩ ص ٣٥-٦٦ .

(٢) Barthold : Four studies, Vol. I p. 21 Turkestan p. 268,

(٣) Barthold : Turkestan p. 268.

(٤) حسن إبراهيم ج ٣ ص ٨١ .

(٥) Barthold ; Four studies Vol. I p, 21

ولم يكف القره خانيون عن الاتجاه صوب الشرق ، فقد سقطت فى أيديهم مدينة ختن فى عهد قيرخان يوسف الذى توفى سنة ١٠٣٢م(٤٢٤هـ) ، كما اتجهوا صوب الشمال إلى القبائل التى تقطن وادى نهر إيلى فأخضعوها لسلطانهم (١) .

على كل حال استطاع القره خانيون فى القرن العاشر والثانى عشر أن ينشروا الإسلام على جانبى جبال تيان شان التى توحدت بزعامة القره خانيين أو الأيلك خانيين . ولم يفتهم أن يكسبوا حكمهم طابعه الشرعى ، شأنهم شأن جميع الدول المستقلة التى ظهرت فى ذلك العصر ؛ فقد اتخذوا لقب موالى أمير المؤمنين ونقش اللقب على سكتهم وضربوا العملة باسم الخليفة القادر ودعوا له على منابر بلادهم . واتخذ إيلك خان نصر لقب ناصر الحق (٢) .

ورغم أن حياتهم ونظمهم لم تكن تختلف عن حياة البدو من الترك ، وذلك بانقسام دولتهم فى فترة ضعف السلطة المركزية إلى إقطاعات سرعان ما تستقل ، بعضها يتضاءل مساحة وبعضها الآخر ينفسح رقعة . وكانت هذه الإقطاعات فى حروب داخلية متصلة . وقد اختفت السلطة المركزية تماما فى القرن الخامس عشر واستقلت كل مدينة بأمير . وسرعان ما استقل ولاة ما وراء النهر متخذين لقب إيلك خان(٣) . ولكن إسلامهم وفتحهم بلاد ماوراء النهر كانت له نتائجه الهامة فى تاريخ الحضارة الإسلامية . ويكفى أنهم نبذوا الأبجدية الأيغورية القديمة ، واتخذوا الأبجدية العربية . وعملوا على توغل الحضارة العربية حتى حدود الصين . ولم يؤد استيلاؤهم على ما وراء النهر إلى الحد من التطور الثقافى للبلاد ، بل ظلت التطورات التى وضحت فى العصر السامانى مستمرة فى عهد القره خانيين. وظل الفقهاء يحظون بنفس العناية والرعاية . كما أن سقوط السامانيين جعل الدهاقين يستردون نفوذهم .ويحتمل أن يكون الدهاقين هؤلاء قد شاركوا فى الصراع بين الملوك وبين الأرستوقراطية العسكرية التى اشتدت سطوتها فى

---

(١) Barthold ; Four studies Vol. I pp. 98--100.

(٢) نقود بخارى بتاريخ ٣٩٠ هـ . Morkov ; Katalog ، زامباور جـ ٢ ص ٣١٢ .

(٣) Barthold ; Four studies Vol. I 22—23.

العصر القرهخانى . وكان الخانات يعتمدون على تأييد عامة الناس على حين كانت الأرستوقراطية يؤيدها الفقهاء .

على كل حال كان إسلام القرهخانيين وفتحهم ما وراء النهر إسهاما لاشك فيه فى الحضارة الإسلامية .

ولكن إسلام الأتراك الشرقيين لم تقتصر نتائجه على مجرد قيام إمارة تركية خالصة منهم، تنشر الإسلام حتى حدود الصين وتتطلع إلى ما وراء النهر فتستولى عليه ، وتنبذ أبجديتها الأيغورية وثقافتها الصينية لتكتسب طابعاً عربياً واضحاً ولترعى الثقافة العربية فى مدارس ما وراء النهر .

بل سرعان ما تدافع الأتراك الشرقيون نحو مزيد من الظهور ليكونوا جند الإسلام وسادته فى القرن الخامس الهجرى ، ونعنى بهم السلاجقة الأوغوز من الأتراك الشرقيين . وكانت جموع هؤلاء الأوغوز فى عهد الدولة السامانية قد وفدت على بلاد ما وراء النهر مهاجرة ، وسمح لهم بالإقامة فى المجرى الأدنى من نهر سيحون ، أوفى المناطق الواقعة إلى الغرب والجنوب الغربى من أسفيجاب(١) ثم بدأوا يعتنقون الإسلام الذى تفشى بين الأتراك الشرقيين جميعهم فى القرن الرابع الهجرى ، ثم انفصل فريق منهم بزعامة سلجوق بن دقاق . وقد اعتنق سلجوق وجماعته من الأوغوز الإسلام وحرروا مسلمى جند من دفع الجزية ، وقد مات سلجوق ودفن فى جند (٢) .

ولكن خلفاءه لم يطب لهم المقام بعد أن أساء عامل جند معاملتهم، فأنزلهم السامانيون قرب مدينة نور سنه ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) وفى القرن الخامس الهجرى عبروا نهر جيحون ودخلوا إيران جماعات متفرقة استطاعت أن تنتهز فرصة ضعف البويهيين وضعف الخلافة العباسية فسيطروا على إيران كلها .

---

(١) Barthold ; Turkestan p. 257, Four studies Vol. I p 22—23.

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ٣٢٢ .

ويصف البندارى(١) كيف دخل طغرلبك بغداد واستقر بها، وكيف استقبل بها، وكيف أسس سلطانه على أنقاض سلطان البويهيين، وكيف قضى على الملك الرحيم آخر سلاطين بنى بويه بالعراق.

لكن السلاجقة مالبثوا أن استداروا إلى الشرق فدخلوا ما وراء النهر وأخضعوا القره خانيين وخان كاشغر لسلطانهم واستولوا على خوارزم. وبلغ النفوذ السلجوقى القمة فى عهد ملكشاه(٢). وتوغل هذا النفوذ نحو أوزكند(٣). وأصبح الأتراك الشرقيون القوة الكبرى التى تسيطر على الخلافة وتوجه الحياة الإسلامية.

انتشار الاسلام صوب الغرب فى بحر الخزر وحوض الفولجا :

رأينا كيف انتهى الفتح العربى حتى بحر قزوين وكيف احتك العرب بالديلم. ثم كيف أطل الحكم العربى على بلاد القوقاز من الجنوب بفتحهم أردبيل وأذربيجان(٤). وقد وقف المد الإسلامى عند سلسلة الجبال التى تفصل إقليم القوقاز الحالى، عند حدود إيران الشمالية.

---

(١) تاريخ دولة آل سلجوق ص ٩ـ١٠.

(٢) أسر ملكشاه أحمد خان بن خضر. زامباور ج ٢ ص ٣١٢.

(٣) Barthold : Hist. des Turcs d'asia Centrale p. 63.

(٤) ولى عمر بن الخطاب المغيرة بن شعبة أذربيجان فقاتل أهلها وصالحوه على الجزية ثم عاود المسلمون غزو أردبيل فى ولاية عقبة بن فرقد السلمى. ويبدو أن أمر أردبيل لم يستقم للمسلمين بعد كل هذا، فقد بعث عثمان بن عفان الوليد بن عقبة سنة ٢٥ هـ، فحارب فى أذربيجان حتى طلب أهلها الصلح. وولى على بن أبى طالب أذربيجان سعيد بن سارية الخزاعى ثم الأشعث ابن قيس الكندى. ولم يقنع العرب بأسلوب الفتح فقد وطنوا العرب فيها خاصة أهل العطاء الديوان وأمروهم بدعوة الناس إلى الإسلام.

وبدت أذربيجان فى عهد على بلداً قد غلب عليه الإسلام، فقد مصرت وبنى مسجدها الجامع ونزحت إليها العشائر مهاجرة من مصر والشام. ولم تكف الدولة الإسلامية عن الاهتمام بثغر أذربيجان فقد وليها خازم بن خزيمة فى خلافة الرشيد فبنى سورها وحشد فيها المقاتلة. انظر البلاذرى ص ٣٢٩ـ٣٣٠، ٣٣٣.

حدث هذا كله أواخر عهد الراشدين ، لكن يبدو أن المد الإسلامى لم يستطع أن يدخل بلاد القوقاز عن طريق هذا النطاق الذى كان من الصعب اجتيازه . ولم تستطع الاتصالات بين العرب والخزر عن هذا الطريق أن تثمر ثمرات ذات قيمة . بل يبدو أن العلاقات لم تكن على ما ينبغى أن تكون عليه بين العرب والخزر . فكان العرب من ناحية لا يكفون عن الإغارة على مدينة داغستان العاصمة الخزرية القديمة (١) ، حتى إذا رأى الخزريون عاصمتهم مهددة بالسقوط فى أيدى العرب هجروها إلى عاصمة أخرى فى الشمال على مصب نهر الفولجا بعيداً عن متناول العرب وفى مأمن من غزواتهم . وكان الخزريون بدورهم لا يكفون عن تهديد مناطق الحدود العربية . وكان الحكام الخزريون كثيراً ما ينحدرون نحو الجنوب إلى الحدود العربية . ولم يجد العرب بدأ من أن يعتصموا بسياسة الدفاع بعد أن أعيتهم سياسة الهجوم .

وإذا كان الإسلام لم يمتد إلى بلاد القوقاز على نطاق واسع من الجنوب عن طريق الثغور العربية فى أذربيجان وقزوين، فإنه نفذ إلى بلاد القوقاز عن طريق بلاد ما وراء النهر ، واستدار حول بحر قزوين ، ثم انحدر إلى بلاد القوقاز نحو الجنوب .

وقد قام إقليم خوارزم بدور كبير فى هذا الصدد . وكانت خوارزم تقع على الطرف الشمالى العربى لإقليم ماوراء النهر . وكان الخوارزميون قد وطدوا صلات قوية مع الجماعات البدوية على حدود ما وراء النهر ، وارتبطوا بهم بعلاقات تجارية وطيدة .

ولما تدفق النفوذ الإسلامى إلى هذا الإقليم لم يجد الخوارزميون بدأ من أن يذعنوا بالطاعة للحكم العربى حرصاً على تجارتهم . ويذكر البلاذرى(٢) أن بعض ملوكهم كاتب قتيبة بن مسلم بعد توغله فى البلاد ، يستعين به فى تخليص العرش من أخ له ينافسه .

ويبدو أن هذه العلاقات بين العرب والخوارزميين أثمرت ثمراتها وانتهت باسلامهم . ولا نستطيع أن نحدد بالضبط الفترة التى شهدت هذا التطور الخطير

(١) البلاذرى ص ٣٢٩ـ٣٣٠ .
(٢) البلاذرى ص ٣٢٩ـ٣٣٠ .

وإن كنا نرجح أن ذلك تم فى أيام السامانيين وأصبحت خوارزم بلدا إسلاميا ، بل شهدت قيام دولة إسلامية مستقلة ، فقد حكمتها أسرة مسلمة فى الفترة الممتدة من سنة ٣٤٠ هـ إلى ٤٠٧ هـ[١].

وقد اتجه الخوارزميون بنشاطهم صوب الغرب ، صوب حوض الفولجا والقوقاز ، ونشأت بينهم وبين بلاد الخزر صلات قوية[٢]. وانتشر التجار الخوارزميون فى إقليم القوقاز ، بل اشترك جنود من خوارزم فى جيش خاقانات الخزر وقاتلوا معهم . إنما كانوا يكفون عن الاشتراك فى القتال إذا اشتبك الخزريون مع القوات العربية عند ثغور إيران الشمالية . ويبدو أن التجار الخوارزميين الذين انتشروا فى القوقاز قاموا بنشاط كبير فى ميدان الدعوة إلى الإسلام واستغلوا صلاتهم القوية فى نشر الإسلام .

ولا نستطيع بالضبط أن نقدر الجهود التى بذلها الخوارزميون فى هذا الميدان ولا حقيقة النتائج التى تمخضت عنها هذه العلاقات . هل انتهت هذه الجهود بإسلام الخزر على نطاق واسع ؟ .

والمؤرخون يختلفون فى ذلك كله ، فالمؤرخ بارتولد لا ينكر حقيقة انتشار الإسلام بين أهل الخزر . ويرى أن الحركة الإسلامية بلغت غايتها فى القرن الرابع الهجرى الذى شهد توطد الصلات بين خوارزم والخزر إلى أبعد الحدود . كما يرى أن الجماعات الإسلامية لعبت دوراً كبيراً جداً فى نضال الخزر ضد الروس ، فيقول « إن الخاقان أذعن لرعاياه المسلمين وأذن لهم بمهاجمة الروس وانضم إلى المسلمين التجار النصارى والمتوطنون فى إيديل والمهتمون بأن تظل تجارة المدينة فى مأمن من الغارات[٣]» ثم يستدرك فيقول « إنه إذا كان الشعب قد اعتنق الإسلام فإن الملوك لم يدخلوا فى هذا الدين وشايعتهم الطبقة الارستوقراطية فى البلاد وأنهم ظلوا على اليهودية التى أصبحت ديانة رسمية للملوك »[٤].

على حين تؤكد الرواية الإسلامية إسلام الخزر جميعهم وتؤكد أن وقوف

---

(١) Barthold ; Four studies, Vol. I p. 30- 32

(٢) Idem

(٣) Barthold ; Hist. des Turcs pp. 51—52.

(٤) Ibid p. 52

الخوارزميين مع الخزر فى وجه الروس هو الذى أدى إلى هذا التحول الكبير إلى الإسلام ؛ لأن أهل خوارزم اشترطوا الثمن لهذه المعونة أن يعتنقوا الإسلام .

وإذا سلمنا بصحة ما يقوله بارثولد، فإن تمسك الملوك بعقيدتهم القديمة ليس معناه أن الخزر جميعهم صدوا عن الإسلام . والمراجع الإسلامية صريحة فى تأكيد هذه الحقيقة فى الوقت الذى يغض فيه بارثولد من قيمة هذا الرأى بقوله « وعلى هذا فإن الإسلام لم يستطع أن يسود بلاد الخزر »(١).

ثم ظهر الروس على المسرح السياسى منذ سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٣ — ٩٤٤) وكانوا فى عنفوان البداوة والقوة . وقد وصفهم مسكويه بقوله « هؤلاء أمة عظيمة لهم خلق عظام ولهم بأس شديد ولا يعرفون الهزيمة ولا يولى الرجل منهم حتى يقتل أو يقتل . ومن عادة الواحد منهم أن يحمل آلة السلاح ويعلق على نفسه أكثر آلات الصناع من الفأس والمنشار والمطرقة وما أشبهها ويقاتل بالحربة والترس ويتقلد السيف ويعلق عليه عموداً وآلة كالدشنى ...»(٢)

وقد شرعوا يهددون أذربيجان فأغاروا على عاصمتها بردعة واتجهوا صوب مراغة ، ودعا المرزبان محمد بن مسافر أمير أذربيجان إلى الجهاد لوقف عدوانهم وصد خطرهم (٣).

* * *

(١) Barthold ; Hist. des Turcs p. 52

(٢) تجارب الأمم ج ٢ ص ٦٢ ، انظر ابن خرداذبة ص ١٥٤ .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ١٤٦ .

نص ما ورد فى ابن الأثير ج ٦ ص ١٤٦ .

« وفى هذه السنة خرجت طائفة من الروسيـــة فى البحر إلى نواحى أذربيجان وركبوا فى البحر فى نهر الكر وهو نهر كبير ، فانتهوا إلى بردعــة فخرج إليهم نائب المرزبان ببردعة فى جمع من الديلم والمطوعة يزيدون على خمسة آلاف رجل فلقوا الروس ، فلم يكن إلا ساعة حتى انهزم المسلمون منهم وقتل الديلم عن آخرهم وتبعهم الروس إلى البلد فهرب من كان له مركوب وترك البلد فنزله الروس ونادوا فيه بالأمان فأحسنوا السيرة ، وأقبلت العساكر الإسلامية من كل ناحية فكانت الروس تقاتلهم فلا يثبت المسلمون لهم ، وكان عامة البلد يخرجون ويرجمون =

هذا هو الدور الذى لعبــــه الأتراك فى تاريخ الإسلام . اتصل الأتراك الغربيون بالعرب ثم أسلموا فى عصر بنى طاهر . واتصل السامانيون بالأتراك الشرقيين حتى اعتنقوا الإسلام وتكونت منهم دولة استولت على ماوراء النهر ، بل ظهروا فى الحياة الإسلامية كلها حين اندفع السلاجقة إلى بغداد .

وقد تأثر الترك بالثقافة العربية الخالصة فى الدور الذى يمكن أن نسميه بالدور العربى، الذى استمر منذ فتوح الأمويين حتى قيام السامانيين . وفيه كانت الثقافة الشائعة فى مدارس خراسان وما وراء النهر كلها ثقافة عربية خالصة كتب عنها بالتفصيل الثعالبى فى يتيمته . وأسهم الترك فى الحياة الإسلامية وأضافوا إلى الحضارة العربية . يتحدث الثعالبى عن مدرسة بلخ وما أسهمت به فى الثقافة العربية بقوله «كان يقال أخرجت بلخ أربعة من الأفراد : أبا القاسم الكعبى فى علم الكلام وأبا زيد البلخى فى البلاغة والتأليف وسهل بن الحسن فى شعر الفارسية ومحمد بن موسى فى شعر العربية»[١].

أما فى الدور الفارسى دور إحياء الفارسية فبدأ بظهور السامانيين واستمر حتى ظهور السلاجقة. وقد تأثروا بالنهضة الفارسية التى نبعت من بلاط السامانيين فى ما وراء النهر . وتذوقوا الشعر الفارسى الجديد وانفعلوا به وظهر منهم شعراء ساهموا فى هذه النهضة الأدبية .

معنى هذا أن صلة تركستان بإيران كانت صلة قوية، أخذت عن إيران الكثير وأعطتها الكثير . وإذا كانت تركستان قد تأثرت بما صدر عن إيران من تيارات ثقافية وفكرية فإنهم أثروا فى تاريخ إيران السياسى بالسلطان الذى وصلوا إليه فى عصر السلاجقة .

وقد ظهر أثر كل من إيران وتركستان فى إقليم ثالث هو إقليم الهند .

= الروس بالحجارة ويصيحون بهم فينهاهم الروس عن ذلك فلم ينتهوا ، سوى العقلاء فإنهم كفوا أنفسهم ، وسائر الرعاع والعامة لا يضبطون أنفسهم ، فلما طال ذلك عليهم نادى مناديهم بخروج أهل البلد منه وأن لا يقيموا بعد ثلاثة أيام ، فخرج من كان له ظهر يحمله وبقى أكثرهم بعد الأجل فوضع الروسية فيهم السلاح فقتلوا منهم خلقاً كثيراً وأسروا بعد القتل بضعة عشر ألف نفس وجمعوا من بقى بالجامع وقالوا اشتروا أنفسكم وإلا قتلناكم وسعى لهم إنسان نصرانى فقرر عن كل رجل عشرين درهما فلم يقبل منهم إلا عقلاؤهم ، فلما رأى الروسية أنه لا يحصل منهم شيء قتلوهم عن آخرهم ...»

(١) الثعالبى : اليتيمة ج ٤ ص ٢١ .

الباب الثالث

انتشار الإسلام في شمال الهند

الفصل الأول

أحوال الهند قبيل الفتح العربي

إن بلاد الهند رغم وضعها الجغرافى المتطرف نحو الجنوب شاركت بنصيب كبير فى أحداث العالم الذى نعرض له بالدراسة ، أى عالم الشرق الأوسط وآسيا الوسطى ، إذ تأثرت بالأحداث الكبيرة التى وقعت فى الشرق الأوسط وآسيا الوسطى . ذلك أن الهند فى الحقيقة غير معزولة جغرافيا عن بقية آسيا ، رغم هذه الجبال الشامخة التى تحيط بها من الشمال ، فإن جبال الهملايا هذه بها مسارب ضيقة تؤدى إلى التبت وتركستان . وفى الحدود الشرقية الجبلية بعض المسالك التى تصل أرض الهند بالصين الغربية وشرق آسيا . وفى الغرب تمتد جبال هندكوش فى الشمال حتى البحر جنوبا . ولكن تخترقها مسالك تصل إلى التركستان وأواسط آسيا عبر أفغانستان وتنفذ إلى إيران عبر بلوخستان .

هذه الممرات الجبلية إذن تصل الهند بالشرق الأوسط وآسيا الوسطى ومكنتها من أن تستجيب لما فيها من أحداث وتطورات .

فمن طريق هذه الممرات نفذ الغزاة والمهاجرون من آريين وإغريق وهون وفرس وأتراك ومغول فتركوا أثراً كبيراً فى الشمال والشمال الغربى . وكانت الثقافة البوذية منافساً قوياً لإيران فى عالم آسيا الوسطى ، وظلت كذلك حتى ارتفع شأن الحياة الثقافية فى عهد الساسانيين وانتشرت المؤثرات الساسانية فى تركستان وأفغانستان .

ولما خضعت إيران للنفوذ العربى دخلت إليها موجات الفتح وازدادت الهند صلة بالشرق الأوسط والعالم الإسلامى ، وغدت الثقافة الهندية منبعاً هاماً من المنابع التى تأثرت بها الحضارة الإسلامية . حتى إذا تجاوب الشرق الإسلامى باصداء الحركات الاستقلالية فى القرن الرابع الهجرى تأثرت السند بها وامتدت إليها أطماع محمود الغزنوى . بل تأثرت الهند بالتيار المغولى الدافق على الشرق .

ذلك أن المغول سيطروا على إيران وتركستان ، ودخلوا الهند مسلمين ليؤسسوا إمبراطورية المغول .

وفى الحقيقة نريد إخضاع الهند لنفس المقاييس التى أخضعنا لها انتشار الإسلام فى إيران وتركستان . كانت أحوال الهند فى الواقع تشبه إلى حد كبير أحوال إيران ، بل سارت فى نفس الخط والاتجاه : إمبراطورية قوية مسيطرة تنخر فيها عوامل ضعف معينة تنتهى بها إلى صورة من الفرقة زمن الفتح .

وظهور أسرة كبتا الثانية فى الهند مستهل القرن الرابع الميلادى يشبه ظهور آل ساسان فى إيران فى القرن الثالث الميلادى . وكانت بطولات شندرا كبتا الأول (٣٢٠ — ٣٢٥) وخليفته سامودرا كبتا (٣٢٥ — ٣٨٥) أشبه ببطولات أردشير وسابور . فقد استطاع شندرا كبتا الأول أن يؤسس الملك الحقيق للكبتيين واتخذ فى نقوشه لقب ملك الملوك(١) . وقد تمكن من طرد السيث أصحاب كنشكا من الهند(٢) ، ومد نفوذ دولته حتى نهر الكنج(٣) . وأدركت غزواته شرق الهند ، وأجبر الإمارات القائمة هناك على أن تعلن الولاء وتدفع الجزية . واستطاعت الأسرة أن تبعد عن حدودها ستاربة السكا . ووطدت نفوذها فى الشمال والوسط والغرب بل أخضعت الدكن والبنغال وآسام لنفوذها (٤) .

واعتمد آل كبتا فى مد هذا النفوذ وتأكيد هـــذا السلطان على البرهمية الجديدة (٥) كما اعتمد الساسانيون على كهنة زردشت . وكان البراهمة عمادهم فى النفوذ والسلطان . وقد تحدث الرحالة الصينى فاهيان عن بلاطهم ومظاهر النهضة التى تجلت فى أيامهم وأشار إلى المدن الكبيرة الزاخرة بالحركة والحياة ، والأديرة المزدحمة بالرهبان والمدارس والجامعات .

وكما كان العهد الساسانى انطلاقا للفكر الإيرانى كان العهد الكبتى يحتل نفس المكانة من تاريخ الهند . ففى عهد آل كبتا تطور الفن والأدب واكتملت

---

(١) Advanced History of India p. 149.

(٢) السادانى ج ١ ص ٣٢ .

(٣) Advanced History of India p. 45.

(٤) السادانى ج ١ ص ٣٢ .

(٥) Price ; History of India p. 71,

اللغة السنسكريتية (١) . وفى أيامهم عاش شاعر الهند العظيم وقصاصها الكبير كاليداسا مؤلف ملحمة ساكونتالا المشهورة . وبلغ الأدب السنسكريتى الذروة (٢) .

وإذا كان الساسانيون قد أضعفت من قوتهم معاركهم مع البيزنطيين حيناً ومع الترك فى آسيا الوسطى حيناً آخر . فإن ملك آل كبتا ما لبث أن أطاح به خطر جديد لم يقف عند حدود الهند بل اقتحمها ، إذ دخل الهون الهند مغيرين فى القرن الخامس الميلادى منحدرين من بلادها وراء النهر (٣) .وفى الوقت الذى كانت فيه جموعهم تهدد أوروبا كانت بعض هـــذه الجموع تقضى على حضارة الكبتيين الزاهرة . لقد وقف ساكندرا كبتا (٤٠٥ — ٤٣٠) فى وجههم ولكنهم ما لبثوا أن أطاحوا بالإمبراطورية بعد وفاته . وفى آخر القرن الخامس ومستهل السادس امتد نفوذ الهون فى كل ناحية . لكنهم لم يستطيعوا أن يتسربوا إلى قلب الهند ؛ فقد وقف لهم الأمراء الإقطاعيون فى العهد الكبتى وتقلص نفوذهم فأصبح مقصوراً على رقعة فى شمال غرب الهند وفى مالوة . وظلوا فى حروب متصلة مع الأمراء المحليين حتى فنيت دماؤهم فى دماء الشعوب الهندية (٤) .

ولكن يبدو أن الهند كانت تملك من عناصر المقاومة والصمود ما مكنها من ابتلاع الهون والتخلص من آثارهم . ودبت الحياة فى شمال الهند مرة أخرى لكنها صحوة كانت أشبه بصحوة الموت . لقد أدت غارات الهون إلى تفكك دولة آل كبتا الثانية . ونشأت على أنقاضها إمارات محلية صغيرة مثل إمارة تانسر التى كانت تتحكم فى مدخل وادى الكنج (٥) ، ولكن إمارة قنوج هى التى انطلقت منها الصحوة الجديدة فى عهد الملك هرشا من سلائل الكبتيين ، عندما انطلق نفوذه من إمارة قنوج ، وخاض معارك متصلة من سنة ٦١٨ إلى سنة ٦٢٧

---

(١) Price p. 75.

(٢) Ibid p. 76.

(٣) Price p. 78; Advanced Hist. of India p. 158.

(٤) Price p. 78; Advanced Hist. of India p. 154.

(٥) Price p. 79.

ليعيد شيئاً من أمجاد آل كبتا الغابرة . فأخضع ملوك مالوة واستولى على إمارة تانسر واهى شاشترا وشرافستى وبرايانجا (١) وانتشر نفوذه فى شمال الهند كلها واتخذ نفس الألقاب الملكية التى اتخذها آل كبتا من قبل (٢) .

ولكن عوامل الضعف التى بثها الهون لم يقض عليها تمـــاما فما لبثت أن أطلت من جديد بعد وفاة هارشا بقليل سنة ٦٤٧(٣) . وتفكك ملك هارشا عقب وفاته مباشرة . ولم يستطع خلفاؤه الضعاف أن يقفوا فى وجه قبـائل الهون التى أخذت تتدفق من جديد على الهند (٤) . وعمت الفوضى البلاد وقامت الحرب الأهلية بين الإمارات . وكان البراهمة يؤججون هذه الحرب احتفاظاً بنفوذهم وإمعانا فى محاربة البوذية والقضاء عليها (٥)

واستطاعت إمارة قنوج رغم انسلاخ الجزء الأكبر من إمبراطورية هارشا الواسعة عنها أن تمسك رمقها (٦) وأن تقـاوم غزوات أمراء كشمير والبنغال وما حولها ، وهى التى سيقدر لها أن تتصدى للزحف الإسلامى الدافق من السند.

ثم إمارة دهلى التى ظل بسال ديو وأحفاده يسيطرون عليها . وكانت أملاكها تمتد بين الهملايا والوندهايا (٧) . أما إمارة مالوة فقد نهض بها راجا كرسنا واشتهر خلفاؤه بالبطولة فى الحرب ورعاية الفنون والآداب السنسكريتية . واشتهر من بين حكام الكجرات مولراجا الذى بنى معبد سومنات (٨) . وإمارة كشمير (٩) التى أتيح لها فى القرن الخامس الميلادى أن توسع من رقعتها حتى اشتهر أمرها . وقد خضعت لنفوذ الصين فى القرنين السابع والثامن . بل استطاعت الصين أن تغزو كشمير عام ٧٤٠ م (١٠) لتضاعف الفوضى السياسية

(١) Advanced History of India pp. 156—159

(٢) Ibid p. 157.

(٣) Advanced History of India p. 157.

(٤) Price p. 83.

(٥) الساداتى ج ١ ص ٣٥ .

(٦) Price p. 83.

(٧) الساداتى ج ١ ص ٣٥ .

(٨) الساداتى ج ١ ص ٣٥ .

(٩) Advanced Hist. of India p. 157 —

(١٠) Price p. 83.

التي أصابت البلاد إذ ذاك . كذلك ظهرت إمارة بهار والبنغال، ثم إمارة السند التي قدر لها أن تواجه الزحوف العربية التي قادها محمد بن القاسم . فقد خضع هذا الإقليم طويلا بعد وفاة هارشا لقبائل الآرية . وكان هذا الإقليم في عهد الرحالة الصيني هيوان تسانغ تحكمه أسرة من الشدرا . ثم انتقل ملكها إلى رجل من البراهمة يقال له شاش ثم خلفه ابنه داهر(١).

هكذا ظل تاريخ شمال الهند حتى الفتح موسوماً بالبعثرة والفرقة فقد انقسمت البلاد كما رأينا إلى إمارات متنازعة يحارب بعضها بعضا . كانت أحوال الهند قبيل الفتح العربي من الفرقة والانقسام(٢) مثل ما كانت عليه الإمارات التركية في ما وراء النهر ، هذه الفرقة التي استغلها العرب وتسللوا منها إلى البلاد .

وقد شهدت الهند نفس التطاحن المذهبي الذي شهدته إيران . فقد شهدت إيران حربا بين الزردشتية والمانوية والمزدكية هزت كيانها العقيدي ، وشهدت الهند نفس هـــذا التطاحن بين البرهمية والبوذية . وكما غلف الزردشت إيران بطبقية جامدة عنيفة سار البراهمة في نفس الطريق .

فقد استطاع البراهمة بعد العصر الويدي أن يستعيدوا السلطة والنفوذ فثبتوا نظام الطبقات الذي كانوا قد أقاموه من قبل ،ووضع قديسهم الأعظم منو شرائعه وفقهه الذي أصبح يسير أمور الهنــد في كافة نواحيها(٣) وشرائع منو تعطي البراهمة امتيازات تجعلهم فوق الملوك أنفسهم . فقـد كان الملك لا يقطع أمراً دون الرجوع إليهم وكان يجيب مطالبهم كاملة . وأباحت شريعته للطبقات الثلاث الأولى الحق في أن يصاهر بعضها بعضاً على ألا يخالفوا طبقة الشودرا، وإن فعلوا نبذوا وأصابهم الخزي في حياتهم ومماتهم(٤).

---

(١) Advanced Hist. of India p. 164—169.

(٢) يقول المسعودي في مروج الذهب ج ١ :

« اختلفت الهند في آرائها فتحزبت الأحزاب وتحيزت الأجيال ، وانفرد كل رئيس بناحيــة فتملك على أرض السند ملك وتملك على أرض القنوج ملك وعلى أرض القشمير ملك وتملك على مدينة المانــكير ملك يسمى البلهرى » .

(٣) الساداتي ج ١ ص ١٥–١٧ .

(٤) الساداتي ج ١ ص ١٥–١٧ .

وقد فقد البراهمة نفوذهم فى العهد الكوشانى (٢٥ ق ٠ م – ١٥٠ م)[١] ، وبدأت دعائم شرائعهم تهزها الدعوة البوذية لتقلل من سلطانهم وتحد من سطوتهم . لكن ما لبثوا أن استعادوا سلطانهم فى عهد آل كبتا (٣٢٠–٥٠٠ م)[٢]. فظهرت برهمية جديدة . وفى نقوش قنوج ودهلى ومهوبا ذكر للعودة إلى هذه المعتقدات القديمة[٣]. وقد ساعد على استرداد سلطانهم القديم ما وجدوه عند الأمراء الراجبوتيين من مناصرة وتشجيع . وسيطر البراهمة على التعليم[٤]، وتمركزت السلطة فى أيدى الملوك الذين دانوا بدينهم وخضعوا لسلطانهم . وكان على البراهمة ليؤكدوا هذا النفوذ أن يعملوا على تقويض صرح البوذية المتسامحة التى ناوأت سلطانهم وتسربت إلى نظم الهند الاجتماعية والسياسية[٥]. وتغلغلت بين الطبقات الشعبية وزاد اتباعهم وعظم نفوذهم . ولم يعمد البراهمة إلى الاضطهاد المذهبى فحسب بل عمد رؤساؤهم إلى إدخال قدر كبير من التطور والتسامح فى شعائرهم فى وقت كان الكهنة البوذيون قد تنكبوا الطريق السوى وانحرفوا بمبادىء العقيدة فمكنوا للبراهمة من مقاتلتهم .

ومما يدل على تقدم البرهمية وتقهقر البوذية، المقارنة بين ما ذكره فاهيان الرحالة الصينى الذى زار الهند مستهل القرن الخامس الميلادى وبين ما ذكره هيوان تسانغ الذى زار البلاد فى النصف الأول من القرن السابع . فما ذكره فاهيان يتبين كيف كانت البوذية فى القرن الخامس مستهل عهد آل كبتا بالغة الذروة فكانت بلاد البنجاب والكنج عامرة بالأديرة التى يقصدها ألوف الرهبان ليتعلموا فيها أسرار الدين ويعيشوا عيشة الزهد والنسك . وكانت تلك الأديرة تعيش على صدقات المؤمنين وهبات الملوك ، وكانت مراكز المعرفة والزهد ، وفى تلك الأديرة حل فاهيان ضيفا[٦].

---

(١) Price p. 71.

(٢) Price p. 78.

(٣) Price p 77.

(٤) Price 76.

(٥) Price p. 77.

الساداتى جـ ١ ص ١٧ .

(٦) لوبون : حضارة الهند ص ٣٩٠ .

أما هيوان تسانغ فإنه يستخلص مما شاهده كيف عقد النصر للبراهمة وأسفر ذلك عن خراب المعابد والأديرة البوذية فى كثير من الولايات ، كما خربت باتلى بواترا عاصمة البوذية وأخذ نجم البوذية يأفل من الهند بسرعة. وكانت المعابد التى أقيمت فى القرن السابع قليلة جداً . وفى القرن الثامن اضمحلت البوذية تماما وفقدت على الأقل سلطانها السياسى ولم تعـــد لها السيطرة إلا فى نيبال شمالا وسيلان جنوبا(١).

وشهدت الهند حرباً خفية وتناحراً عميقاً بين البرهمية المتقدمة والبوذية المتقهقرة ، فليس من الغريب أن ينحاز القساوسة البوذيون إلى محمد بن القاسم فى المعركة الفاصلة ، ليس خيانة منهم كما يذكر ما جيومبار(٢). إنما انتقاما لما نالهم من البرهميين المتسلطين .

ولم يؤد انتصار البرهمية إلى انشقاق دينى وصراع طائفى أضعف من مقاومة عقائد الهند وهى تتصدى الإسلام ، وإنمـا أدى إلى صراع طبقى عنيف ، فقد كانت الطبقية البرهمية التى تطل من أقوال فاهيان وهيوان تسانغ(٣)، والامتيازات الاجتماعية التى تمركزت فى يد كهنتها ، وقصرها المصاهرة على أبناء الطبقات الممتازة سبباً فى تبرم الطبقات الأخرى من هذه الطبقية الجامدة . يقول السير توماس أرنولد(٤)، مبينا الأوضاع الاجتماعية السيئة التى خلفها البراهمة « إن الاهانات والاحتقار الذى انصب على الطبقات المنحطة من الهندوكيين على أيدى إخوانهم فى الدين ، والعراقيل التى لا يمكن التغلب عليها والتى وضعت فى سبيل فريق من هذه الطبقات يرغب فى تحسين حالته ، ليوضح لنا فى هذه المقارنة الصحيحة فوائد النظام الدينى الذى لا يفرق بين منبوذ وسيد ، والذى يهيء مجالا حراً للتمتع بأى مطمح .. فكان الخلاص الذى يقدمه الإسلام إلى الهندوكية من نظام الطبقات العليا ».

---

(١) نفس المصدر ٣٧٣ ، ٣٩٣ .

(٢) Advanbced History. of India 182.

(٣) Advanced History of India p. 196..

(٤) الدعوة إلى الإسلام ص ٣٢٣ .

ولا يمكن أن تكون الأوضاع الاقتصادية وقت بداية الفتوح العربية أحسن حالا من الأوضاع السياسية والدينية والاجتماعية ، فلم تعرف الهند فى تلك الأيام الاستقرار السياسى أو الدينى أو الاجتماعى ، فما بالنا بالاستقرار الاقتصادى .

ولبيان الهوة الاقتصادية التى تردت إليها الهند لابد من المقارنة بين ماذكره الرحالة الصينى فاهيان الذى زار الهند بين سنتى ٤٠٥ و ٤١١ ووصف الحياة الهندية(١). وكان فاهيان بوذيا، حج إلى وطن البوذية ليعرف الكثير من أديرة البوذيين . وقد رحل من الصين عبر الطريق القديم الواقع جنوب صحراء جوبى عبر ختان وكاشغر . قد عبر جبال يامير ثم عن طريق يشاور رحل إلى قنوج . وأخيراً عبر البحر إلى سيلان ثم عاد بطريق البحر إلى الصين .

وقد أعطى فاهيان صورة براقة عن عهد الملك الكبتى شندرا كوبتا الثانى(١) لمجتمع سعيد مستقر حضارياً واقتصاديا .

أما الرحالة الآخر هيوان تسانغ فكان عالماً صينياً جليل الشأن رحل من الصين سنة ٦٢٩ . وقد رحل إلى طشقند وسمرقند وحج إلى الهند ومكث بها أربعة عشر عاما وجابها كلها . وكان يقابل بالترحاب أينما حل ، وعنى به الملك هرشا كثيرا وعقد له مجمعا فى قنوج . وقد أعطانا صورة مغايرة تماما للصورة التى أعطاها فاهيان . فالمساحات الواسعة فى الأرض فى شرق الهند والتى كانت يانعة الخضرة رآها هيوان جرداء(٢) والمبانى الجميلة التى كانت تزينها خربت ،والسبل لم تعد آمنة ، وكاد الرحالة نفسه يقع ضحية لقطاع الطرق(٣) . وكانت الطبقية على أشـــدها وخربت مدينة باتليبترا ومؤسساتها الثقافية .

فلا عجب إذا كان مجتمع شمال الهند قد تحول إلى مجتمع يطرد العناصر التى

---

(١) Price pp. 74—75.
(٢) Advanced History of India p, 197.
(٣) Ibid p. 197—198
(٤) Price p. 82.

لايقدر على أن يعولها . ولعل ذلك يفسر هجرات قبائل الجات (الزط) الذين عرفوا بالشجاعة والمهارة فى التجارة والخبرة بالزراعة . هاجروا إلى إيران . وقيل إن علىّ بن أبى طالب استخدمهم فى حراسة أموال البصرة فى موقعة الجمل. وأنزلهم الأمويون ثغور الشام للمشاركة فى حمايتها . ووطنهم الحجاج فى سهول العراق ليقوموا بإصلاح بطائحها وزراعتها .

وليس أصدق فى وصف أحوال الهند ساعة الاشتباك مع العرب وتأكيدا لما ذكرت من تعليق المؤرخ الهندى السردار بانيكار(١) بقوله « ظلت بلاد الهند بعامة فى مأمن من الغزو الخارجى بعد أن خفت وطأة الهون . وأدى هذا الأمان من التهديد الخارجى إلى ضعف الروح القومية عند الهنود ، وضعف الروح المحاربة . فالروح المحاربة للهند لاتستيقظ إلا فى وقت الخطر والغزو . وعاشت الهند تتجرع كأس العزلة ، والانزواء فقد قطعت علاقتها بالصين بسبب تطور الأمور فى آسيا الوسطى وسيطرت سيلان على مضيق مالقة . وتوقفت الأمة الهندية عن النمو واضمحلت الحضارة بسبب الافتقار إلى الدماء الجديدة أو الاحتكاك بالحضارات الأخرى ، وأصيب المجتمع بالجمود .

وكان هذا الاضمحلال جليا فى كل ناحية حتى فى النواحى الأدبية والثقافية انحط الذوق الأدبى. وتمثل ذلك فى ما كتبه الأدباء ماغا وهرشا . حتى المعنويات أصابها الانحطاط وأصبح وصف أعمال الوحشية والعنف أمراً يتغنى به الشعراء ، كما سعى الاضمحلال إلى العمارة وعدمت الحوافز العظيمة التى أنتجت معابد شمال الهند . وأصبحت الأعمال المعمارية تصور الانحراف الخلقى الذى تردت فيه الطبقة العليا صاحبة النفوذ . وامتد الضعف إلى العقيدة والأخلاقيات ، وشهدت البلاد تفاوتا كبيراً فى توزيع الثروة فأشار مؤرخو العصر إلى أخوين تصدقا بعدة ملايين ، كما أشاروا إلى الثروة الطائلة التى جمعها بيمال شاه الذى بنى معبدا من المرمر الخالص .

---

(١) A Survey of Indian History, pp. 104 – 110.

كان الأثرياء يتصدقون ، لـكن لبناء المعابد وتزيين أماكن الحج وإغداق الهبات على المؤسسات الدينية ، بينما غلب الفقر على الفلاحين البسطاء . وتحكمت البيروقراطية الوراثية المتعفنة فى مقدرات الناس . هذه البيروقراطية التى سخر منها الأديب الهندى كشمندرا فى قصته (نارما مالا) وديسوا باديسا . هـذه أحوال الهند قبيل الفتح فننظر كيف أثرت فى وقائع الفتح ، وكيف يسرت من توغل العرب فى البلاد .

الفصل الثانى

الفتوح العربية فى السند والملتان

فى عرضنا للفتوح العربية فى الهند سنطبق نفس المنهاج الذى التزمناه عند دراسة نفس هذا الموضوع فى إيران وتركستان . فمثلا لم يكن هذا الفتح فتحاً عسكرياً فحسب إنما كان شأنه شأن التوسع العربى فى إيران وفى غيرها من البلاد، وأعقبت الانتصارات العسكرية هجرات العشائر العربية التى تجمعت فى منطقة مكران أو بلوخستان لتنتشر فى البلاد ، وحمل العرب إلى البلاد نفس أسلوبهم فى الحياة ونفس خلافاتهم التقليدية ونزاعهم القبلى بين القحطانية والعدنانية . وفى أعقاب الفتح أيضاً انتشرت الثقافة العربية منطلقة من المدن العربية التى أسست فى عهد الأمويين والعباسيين . بل هاجرت إلى الهند نفس الصور الفكرية التى طبعت العالم الإسلامى فى القرن الأول. وانتقل إليها الخوارج بفرقهم ودعاياتهم وانتقل إليها الشيعة الاثنا عشرية والإسماعيلية .

وقد تم هذا الفتح أيضاً فى ظل الوحدة التى أظلت العالم الإسلامى فى عهد عبد الملك والوليد . وكانت الدولة العربية التى استردت قوتها تضرب بأقصى شدة فى بلاد ماوراء النهر والسند بنفس الطريقة والأسلوب .

وكان الحجاج بن يوسف نفسه هو القوة الدافعة الموجهة . فليس غريبا أن تجد شبها كبيراً بين فتوح السند وفتوح ما وراء النهر ، لأن الأيدى المحركة والعقلية المدبرة واحدة ، ومحمد بن القاسم فاتح السند لايكاد يختلف فى كثير عن قتيبة بن مسلم ، كلاهما من أتباع الحجاج وأركان حربه الذين يأتمرون بأمره .

وثمة أمر آخر يقرب أوجه الشبه بين فتوح السند وغيرها من الفتوح التى تمت فى عهد بنى أمية على الخصوص ، وهو كون الفتوح مسبوقة بفترة طويلة من الغارات الثغرية الخاطفة بنفس التخطيط الذى رأيناه فى بلاد ماوراء النهر وبلاد المغرب ، والغارات الخاطفة التى لا تحفل بالنصر أو الهزيمة والتى يعنيها أن

تتدرب على طبيعة البلاد وتكتسب مزيداً من المعرفة ومزيداً من الخبرة استعداداً للمعارك الحاسمة .

ثم تحولت هذه الغارات الثغرية إلى فتح منظم بنفس الكيفية ، وفى الوقت المناسب . وتجسد هذا التحول على يد فاتح عربى أشبه بالفاتح العربى الذى تحول بالغارات الثغرية على بلاد ما وراء النهر إلى فتح منظم .

الغارات الثغرية على اقليم السند : تعرضت إمارة داهر فى السند لسلسلة من الغارات الثغرية منذ أيام عمر بن الخطاب حتى عهد الوليد بن عبد الملك ، وهذه الغارات الثغرية وأساليبها وتفاصيلها تكاد تجعل معركة الهند أقرب شبهاً بمعركة أفريقية والمغرب من حيث اشتراك العنصرين البرى والبحرى معاً فى عمليات عسكرية واحدة .

كانت الغارات الثغرية فى بلاد المغرب تجرى فى البر والبحر على حد سواء . وفى الوقت الذى كانت فيه الجيوش البرية تتوغل فى أفريقية وتعدوها صوب الغرب ، كانت البحرية العربية تكتسب مزيداً من الخبرة فى حوض البحر الأبيض المتوسط استعداداً للتحول الذى شهده عصر عبد الملك ، والذى قاده حسان بن النعمان فى معركة قرطاجنة حين ركز العرب الهجوم على المدينة من البر والبحر على حد سواء .

كانت الغارات الثغرية على السند مجالها برى بحرى حتى إذا تم التحول إلى الفتح المنظم اشتركت القوتان معاً فى إحراز النصر .

وقد رأينا كيف ظهرت البحرية العربية فى معركة إيران فى عهد عمر ابن الخطاب (١) وكيف اشتركت فى إحراز النصر فى راشهر (خرمشهر) . وكيف أدى ذلك إلى استيلاء العرب على جنوب إيران . وقلنا كيف كان ذلك تطوراً هاما فى تاريخ البحرية الإسلامية فى المحيط الهندى وأن هذا كان بداية للظهور الإسلامى فى ميدان البحر .

---

(١) انظر البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٣٨ ، ولى عمر بن الخطاب عثمان بن أبى العاص الثقفى البحرين وعمان سنة ١٥ هـ فوجه أخاه الحكم إلى البحرين وأغار على تانة وبروص ، كما وجه المغيرة بن أبى العاص إلى خور الديبل .

والبحرية العربية لم تكد تفرغ من معركة إيران فى عهد عمر حتى بدأت تغير غارات ثغرية خاطفة على ثغر الديبل. ولاندرى أكان ذلك تطلعا عربيا إلى إقليم السند أم كان رداً على غارات مماثلة قامت بها بحرية الهند على سواحل إيران.

على كل حال اشتبكت البحرية العربية بقيادة المغيرة بن أبى العاص بالبحرية الهندية قبالة الديبل ، وأحرزت انتصاراً كبيراً ترك أثراً فى ظهور هذه البحرية وفى نموها الأمر الذى جعل هذا النصر أشبه بنصر المسلمين فى معركة ذى الصوارى فى حوض البحر الأبيض. لم تكن غارات عهد عمر فتحا عربيا إنما كانت غارات خاطفة تمهد لتطور كبير(١).

ويبدو من رواية البلاذرى (٢) أن الغارات البحرية فترت نوعا ما فى عهد عثمان بن عفان رغم اهتمامه بتقصى أحوال السند. وأغلب الظن أن ذلك لم يكن كرها فى الاشتباك بقدر ما كان خوفا من مغبة الاشتباك مع بحرية كانت لا تزال قوية كبحرية الهند.

وعاود المسلمون الاشتباك البحرى فى أيام الحجاج بن يوسف الثقفى ، فقد قامت من ثغر الديبل بوارج هندية استولت على بعض السفن التجارية العربية وأسرت بعض النساء المسلمات. وقامت البحرية العربية تتعقب هذه السفن ، وأرسلت حملة بحرية إلى ثغر الديبل بقيادة عبيد الله بن نبهان وبديل بن طهفة البجلى الذى قتل فى الميدان(٣)، لأن البحرية الهندية كانت لا تزال على شىء من القوة والقدرة على المناورة.

على كل حال خلص المسلمون فى عهد عبد الملك من هذه الغارات الثغرية بتجارب واسعة ودربة على النضال والمقاومة ، ومعرفة بأساليب العدو وفنونه ، ومعرفة أوثق بأحوال المحيط الهندى ومسالكه. مظهر هذا كان تحول الغارات الثغرية البحرية إلى هجوم بحرى سافر قوى على يد أمير البحر العربى محمد ابن هارون(٤)، كما تحولت الغارات البحرية إلى زحف يقوده محمد بن القاسم.

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٣٨ .

(٢) البلاذرى ص ٤٤١ .

(٣) البلاذرى ص ٤٤١ .

(٤) البلاذرى ص ٤٤٢ .

ولم تكن الغارات الثغرية ميدانها البحر فقط ، إنما كانت تجرى فى المجال البرى . فقد أصبحت منطقة مكران فى أقصى الحدود الشرقية لإيران تؤدى نفس الدور الذى أداه إقليم خراسان . أصبحت قاعدة كبرى تتجمع فيها المقاتلة والعناصر العربية المهاجرة ، وكانت هذه القاعدة تتهيأ عبر الأيام حتى بلغ الاستعداد قمته فى عهد الحجاج بن يوسف .

المهم أن هذه القاعدة أدت فى تاريخ السند نفس الدور الذى أدته خراسان فى تاريخ ما وراء النهر . خرجت منها الحملات الخاطفة التى كانت تحرز نصراً سريعا ثم تعود فى سرعة خاطفة ، فهى أشبه بحملات سلم بن زياد وعبد الله بن خازم فى ماوراء النهر أو عقبة بن نافع فى المغرب الأقصى . . النصر لايؤدى إلى فتح دائم والهزيمة لاتثبط الهمة ولا توهن العزيمة . وكان العرب يستخرجون من النصر والهزيمة التجربة المفيدة .

واستمرت هذه الغارات البرية تتلاحق منذ أيام عثمان حتى آخر عهد عبدالملك ونستطيع أن نستخرج الصورة الحقيقية لهذه الغارات ، مما ورد فى كتاب البلاذرى(١) . أولها تفكير فى الغزو فى عهد عثمان حينما طلب من عبد الله بن عامر ابن كريز عامل العراق أن يوجه إلى ثغر الهند ، ثم محاولة أخرى فى عهد على بن أبى طالب آخر سنة ٣٨هـ وأول سنة ٣٩هـ ، حين قام الحارث بن مرة العبدى بغارة ثغرية فظفر وأصاب مغنما وسبيا ، وقسم فى يوم واحد ألف رأس .وقتل ومن معه بأرض القيقان سنة ٤٠هـ(٢) وهى أشبه بحملات عبد الله بن سعد فى برقة فى عهد عثمان .

ثم كانت غزوات المهلب بن أبى صفرة أيام معاوية سنة ٤٤هـ ، فقد انحدر من ناحية كابل فقاتل وغزا (٣)وهى أشبه بحملات عقبة بن نافع الفهرى فى المغرب الأقصى .

وفى نفس هذا العهد أيضا كانت غارة عبد الله بن سوار العبدى الذى ولى

---

(١) البلاذرى ص ٤٣٨ .

(٢) البلاذرى ص ٤٣٨ .

(٣) البلاذرى ص ٤٣٨ .

ثغر السند . والبلاذري يتحدث عن تحالف بين الهنود وبين الأتراك فى أيام المهلب ، وكان هذا التحالف من وراء المقاومة العنيدة التى لقيها[١] . وتلاحقت حملات معاوية فأغار عبد الله بن سوار وسنان بن سلمة بن المحبق الهذلى ، فأتى الثغر ففتح مكران عنوة ومصرها وأقام بها[٢] » .

والحملات الثغرية لم تكن تخرج من جنوب إيران فحسب إنما كانت تغزو الهند من سجستان فى الشمال[٣] ، مثل غزوة عباد بن زياد . ويظهر أن عهد زياد ابن أبى سفيان هو عنصر اشتداد الغارات الثغرية حقا ، فقد ولى المنذر بن الجارود العبدى ثم عبيد بن زياد الباهلى . وظلت الحملات الثغرية مستمرة حتى عهد الحجاج ابن يوسف وطوال أيام عبد الملك . من هذه الحملات حملة سعيد بن أسلم بن زرعة ومجاعة بن سعر التميمى ، وتوالت المناورات الثغرية فى عهد الحجاج ، فقد ولى سعيد بن أسلم بن زرعة الكلابى مكران ثم ولى مجاعة بن سعر التميمى حتى إذا كان عهد الوليد كان التحول العظيم إلى الفتح .

إذن التزمت تلك الغارات الثغرية نفس الأسلوب الذى عرفته الحياة الإسلامية ؛ فالحارث بن مرة يشبه عبد الله بن سعيد بن أبى سرح ؛ والمهلب بن أبى صفرة يشبه عقبة بن نافع وسلم بن زياد ، وحملات الحجاج أشبه بحملات أبى المهاجر دينار فى المغرب .

وأسفرت الحملات العربية الأخرى خصوصا فى بلاد ماوراء النهر عن عزل الأتراك عن المعركة ، إذ لولا جهود عبد الله بن خازم وولده موسى لكان التحالف التركى الهندى خطراً فادحا على العرب فى إقليم السند كما ازداد العرب خبرة ومعرفة بأحوال الهند ، وفى هذه الفترة تم تعرف العرب على قطاعات من الرأى العام سيكون لها أثرها فى معركة الفتح ، فقد وضحت جذور التحالف بين العرب وبين الهنود المعروفين بالجات (الزط)

الفتوح المنظمة :

ثم قدر لهذه الغارات الثغرية على إقليم السند أن تتحول إلى فتح منظم كما

(١) البلاذرى ص ٤٣٩ .
(٢) البلاذرى ص ٤٣٩ .
(٣) البلاذرى ص ٤٤٠ .

تحولات الغارات الثغرية فى مختلف ميادين التوسع الإسلامى . فقد اكتسبت الدولة العربية وحدتها الكاملة فى عهد عبد الملك والوليد ، وبدا الحجاج بن يوسف فى هذا الميدان الشرقى وقد سيطر على زمام الأمور سيطرة كاملة وإذا به يوجه القوات العربية إلى غاياتها توجيه القائد الماهر . وكانت إجراءات تسليح قاعدة الزحف وإعدادها للتحول الكبير قد تمت واكتملت . والمؤرخون يتحدثون عن ثغر مكران وعن إعداده فى عهد الوليد بن عبد الملك ليصبح قاعدة للزحف العربى ، تجمعت فيه القوات العربية المقاتلة من جند البصرة والكوفة ومن جند الشام وجمع العتاد وتكدست الأسلحة وحرص الحجاج على أن يهيء للقوات العربية كل ماتحتاج إليه إذا بدأت عملياتها العسكرية(١) .

وقد صحب ذلك كله تطور فى الاستراتيجية العربية ، فقد سلحت القوات الأموية بنوع جديد من المجانيق لم يعرفه العرب من قبل ، إذ يتحدث البلاذرى عن استخدام محمد بن القاسم لنوع منها يعمل فيه نحوا من خمسمائة من الجنود فى وقت واحد(٢) . وهذا النوع من الأسلحة لم تعرفه الهند من قبل وقد تسبب فى إيقاع الذعر فى القوات المدافعة عن ثغر الديبل .

وشمل هذا التطور الجانب البحرى ، وإذا بالسفن العربيـة فى عصر الوليد تتسم بالجرأة والإقدام وتتخذ دور المبادأة بالهجوم . وليس معنى ذلك إلا أن العرب قد استفادوا من حملاتهم البحرية السابقة ومن احتكاكهم ببحرية الهند . ولا يبعد أن يكون العرب قد أعدوا نوعا جديدا من السفن المقاتلة قادرة على السيطرة على المحيط الهندى ومواجهة أساطيل السند .

وهناك شبه بين هـذا التطور فى ميدان المحيط الهندى وبين ما حدث فى غرب البحر الأبيض المتوسط وما كان من اشتراك البحرية العربية فى معركة قرطاجنة .

ومن مظاهر الاستعداد لحملة السند ما كان من استخدام الحكومة العربية

---

(١) البلاذرى : الفتوح ص ٤٢١ ، جهز الحملة بكل ما احتاج إليـه حتى الخيوط والمسال والقطن المحلوج المنقوع فى الخل .

(١) يقول البلاذرى « ص ٤٤٢ » « ونصب منجنيقا تعرف بالعروس كان يمد فيها خمسمائة رجل » .

الطوائف من الهنود تطلق عليهم المصادر العربية اسم الزط (الجات) وكانوا عدة العرب فى الفتح، وكانوا من أشد الهنود إخلاصا للحكم العربى ومعاونة للعرب على إحراز النصر . وقد تم الاتصال بين العرب وبين جماعات الجات فى مستهل خلافة عبد الملك بن مروان عندما هاجروا من الهند هربا من الأوضاع الاجتماعية السيئة التى فرضها البراهمة . وقد اتجهوا صوب الغرب. وكانت الدولة الأموية بصدد الاتجاه إلى ميدان جديد من ميادين الإنتاج الزراعى وهو إصلاح الأرض البور وزراعتها لحساب الدولة للحصول على مزيد من المال . وعملت الدولة على ردم المستنقعات وأنفقت الأموال الكثيرة فى تلك السبيل . وقد عمل الحجاج ابن يوسف على توطين المهاجرة الهنود فى الأرض المستصلحة وإمدادهم بالبذور والسائمة . وتوثقت عرى التحالف بين الجات والعرب حتى إذا كان فتح السند اشتركوا فى فرق المرتزقة(١).

واكتملت هذه الاستعدادات كلها للفاتح محمد للقاسم بن محمد الثقفى ابن أخى الحجاج الذى اختير ليقود معركة السند، كما اختير قتيبة بن مسلم ليقود معركة ما وراء النهر . وقد عقد لمحمد بن القاسم على ثغر الهند وضم إليه ستة آلاف من خيرة جند الشام(٢)، وانضم إليه مجندون من محاربى البصرة والكوفة وجهزت حملته بكل ما تحتاج إليه .

وكان التجمع لهذه الحرب يتم فى مدينة شيراز (٢) . حتى إذا اكتمل الاستعداد أصدر الحجاج بن يوسف أمره بالتحرك صوب الجنوب ، فدخلت قوات محمد بن القاسم ثغر مكران وفى أعقابها فرق المطوعة والمرتزقة من قبائل الجات الهندية ، ثم كان الأمر بالتقدم صوب إقليم بلوخستان لدخول أرض الهند .

ويضفى البلاذرى تقديرا خاصاً على الحجاج بن يوسف الذى كانت له القيادة العليا، وكان كل من محمد القاسم وقتيبة بن مسلم ينفذان ما يأمر به . وكان

---

(١) السادانى ج ١ ص ٥٩ .

(٢) Price; p. 99

الحجاج علما بأحوال البلاد مسيطرا على القوات العربية يحركها كما يشاء . وكان يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة ويرسم الخطة ويصدر الأمر بالقتال . وكانت الرسائل ترد إليه فى مقر قيادته كل ثلاثة أيام تحمل أنباء القتال . وبلغ من تدخله فى حملة السند أنه كان يوجه القادة العرب إلى أفضل الطرق لاستخدام المجانيق الكبيرة التى سلحت بها القوات المهاجمة(١) . وفى نفس الوقت تقريبا كانت استعدادات مماثلة تجرى فى البحر ، كانت سفن أمير البحر محمد بن هارون تتجمع وتشحن بالرجال والأدوات .

وتركز الهجوم العربى على أول أهداف الحملة على ثغر الديبل الذى كانت تخرج منه سفن داهر على السفن العربية فى البحر . واشتركت القوات البرية والبحرية فى المعركة وفى إحراز النصر . وظهر تفوق العرب فى العدد والعدة وعملت المجانيق عملها فى دك المدينة وهدم قلاعها . وضربت البحرية الحصار على الثغر . واستسلمت المدينة وأصبحت أول مدينة عربية فى السند ، إذ جعلها محمد بن القاسم أول الخطط العربية فى البلاد . إذ أنزل بها أربعة آلاف من العرب وبنى بها المسجد الجامع ودار الإمارة . وأصبحت الديبل قاعدة بحرية للمسلمين فى المحيط الهندى كما كانت قاعدة العمال ومقر الحكومة .

ويتبين مما ساقه البلاذرى من أحداث ما بعد الديبل أن أمير السند داهر لم ينسحب من الديبل انسحاب المهزوم ، إنما توغل نحو الداخل ليختار مكانا للبقاء يتيح له مزيدا من المقاومة ولم يقف محمد بن القاسم بعد الديبل بل أخذ يتقدم صوب الداخل .

وصدقت ظنون العرب فى الجبهة الداخلية ، فبدأت قطاعات من السكان تؤيد العرب وتستجيب لهم وتوفر لهم المؤن ، وهذا أشبه باعتماد العرب على طبقة الدهاقين فيما وراء النهر . ويبدو من النزر اليسير من الأخبار التى ذكرها البلاذرى أن عقوداً للصلح عقدت ولابد أن مدنا استسلمت بموجب هذه العقود ، كما أشار

---

(١) البلاذرى ص ٤٤٢ .

(٢) البلاذرى ص ٤٤٣ ، يذكر البلاذرى البلاد التى استولى عليها محمد بن القاسم قبل الديبل ومنها فنزبور وأرمائيل , Price p. 99.

البلاذرى إلى فرض الخراج والجزية الأمر الذى يدل على أن هذه البلاد فتحت صلحا بموجب اتفاقيات عقدت .

وتقدم محمد بن القاسم على الضفة اليمنى لنهر السند بحثا عن قوات العدو الرئيسية . ولكنه تبين أن داهر اختار مكانا للقاء فى موضع يقع شرق مصب السند مباشرة ، معتقداً أن النهر قد يعوق العرب عن العبور أو قد يؤخر عمليات الزحف ويتيح له مزيداً من المقاومة . وقد عبر محمد بن القاسم النهر على جسر من الزوارق . وفوجىء داهر فى مكانه فارتد إلى حصن روار حيث كان أول لقاء بين العرب وبين مقاتلة الهندوس الذين تمرسوا على استخدام الفيلة والرمى بالنبال واستخدام النفط (١) . ونشبت معركة من المعارك الفاصلة . يقول البلاذرى « واقيه محمد والمسلمون وهو على فيل وحوله الفيلة ومعه التكاكرة ، فاقتتلوا قتالا شديداً لم يسمع بمثله ، وترجل داهر وقاتل وقتل عند المساء ، وانهزم المشركون فقتلهم المسلمون كيف شاءوا » (٢). ولا يقل هذا النصر البرى عن النصر الذى أحرزه العرب عند الديبل . وتكاد أنباء القتال فى السند بعد ذلك أن تكون استسلاما بعد ذلك القتال العنيف وبعد مصرع داهر . فقد تقدمت القوات العربية صوب الشمال فدخلت العاصمة برهمناباد العتيقة (٣) . وقد قاومت مقاومة عنيدة لأنها لم تفتح صلحا إنما فتحت عنوة وكانت خسائر الأرواح لم يسمع بمثلها من قبل . ويذكر البلاذرى أن قتلاها بلغوا ثمانية آلاف . ورغم هذه المبالغة فإن الدلالة لا تخفى (٤) .

وواصل العرب تقدمهم صوب الشمال يكتسحون المدن التى تقع فى سبيلهم . ويبدو أن أغلب المدن الواقعة فى الطريق قد فتحت صلحا على الشروط العربية المعروفة . فقد استولى محمد بن القاسم على مدينة الرور عاصمة أمارة السند البرهمية ، وكان ابن داهر قد تحصن فيها من جديد ليبدو جهداً أخيراً فى المقاومة . ولكنه

---

(١) Lane-Poole ; Medieval India p. 5.

(٢) البلاذرى ص ٤٤٤ .

(٣) البلاذرى ص ٤٤٤ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

هزم . وعبر العرب نهر بياس رافد السند ، وحاصروا الملتان أعظم مدن السند الأعلى (١) . وكانت مدينة الملتان ليست مجرد مدينة عادية من مدن الإقليم . إنما كانت أشبه بعاصمة دينية كبيرة تركزت فيها المعابد الشهيرة . وكان الناس يحجون إليها ، وكان بد الملتان بدا تهدى إليه الأموال وتنذر له النذور ويحج إليه السند فيطوفون به ويحلقون رءوسهم ولحاهم عنده ... » (٢) . والملتان لم تفتح صلحا إنما فتحت عنوة وكانت مقاومتها عنيدة ، مقاومة البوذية المتمسكة بأمجادها وتقاليدها ؛ لأن محمد بن القاسم قتل المقاتلة وسبى الذرية وصادر الأموال ، وهى معاملة المدن التى تفتح عنوة . وأصاب العرب فى الملتان مغانم تقرب مما أصابوه فى مدائن كسرى . يتحدث البلاذرى عن الذهب الذى أصابوه والذى قدمه الحجاج بنحو من مائة وعشرين مليونا من الدراهم (٣) .

واتخذ الأمويون إجراء كان له صدى كبير فى البلاد بأسرها ، إذ اعتبر البوذيون أهل ذمة لهم ما لأهل الذمة من الحقوق والواجبات « وما البد إلا ككنائس النصارى واليهود وبيوت نيران المجوس » (٤) . وقد أصبح وادى السند بأسره فى قبضة الفاتح العربى ، وجاءت القبائل « تقرع الأجراس وتدق الطبول هاتفة مرحبة » فقد استبد بهم الهندوس واستنزفوا دماءهم . وكان على رأس هؤلاء المرحبين الميد والجات الذين أمنوا على أنفسهم وأموالهم (٥) .

وظل الفتح العربى بعد ذلك يتجه اتجاهاً طبيعياصوب الغرب بقصد السيطرة على شمال الهند كله بإخضاع الإمارة الأخرى ، إمارة قنوج . وكان فى استطاعة العرب فى تلك الأيام أن ينالوا من قنوج ، كما نالوا من السند وهم مندفعون فى فورة النصر والحماسة . وقد استقامت لهم الأمور وأيدتهم قطاعات من الرأى العام وثبتت أقدامهم فى البر والبحر على حد سواء . وكان محمد بن القاسم قد بيت النية

---

(١) البلاذرى ص ٤٤٥ .

(٢) البلاذرى ص ٤٥٤ .

(٣) البلاذرى ص ٤٤٥ .

(٤) البلاذرى ص ٤٤٤ .

(٥) Lane-Poole ; Medieval India p. 6

لمهاجمة إمارة قنوج لولا أنه حدث فى السند مثل ما حدث فى العالم العربى فى نفس الوقت . مثل ما حدث لقتيبة بن مسلم وموسى بن نصير حين آلت الخلافة إلى سليمان الذى كان حريصا على أن يسىء إلى الحجاج، فقد استدعى محمد بن القاسم من السند وولى غيره وحمل مقيداً من الأصفاد .

تثبيت الفتوح

وإذا كان الأمويون قد كسبوا معركة السند فى عهد الوليد بن عبد الملك فإنهم ما لبثوا أن خاضوا معركة تأمين هذه المكاسب وتثبيتها ، واضطروا إلى القضاء على ثورات الأمراء الهنود بعد عزل محمد بن القاسم ومصرعه، فقد استطاع ابن ملك السند أن يدخل العاصمة وأن يستردها (١) . واضطر الأمويون إلى معاودة القتال فى عهد ولاة السند أمثال يزيد بن أبى كبشة وسليمان بن عبد الملك ابن حبيب وحبيب بن المهلب (٢) .

وظلت هذه الفتن متلاحقة ، والأمويون لا يتمكنون عن القضاء عليها حتى خلافة عمر بن عبد العزيز الذى أراد أن يهدىء من الفتنة وأن يدعو الهنود إلى الإسلام . فكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، فإذا ضمن إسلامهم وولاهم احتفظوا بسلطانهم كاملا « ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم » . ويشير البلاذرى إلى أن قوما كثيرين استجابوا لنداء الخليفة عمر ودخلوا فى الإسلام . واستشعرت ولاية السند مزيداً من الاستقرار فتمكن عاملها عمرو بن مسلم الباهلى من أن يعاود الغزو .

ولم يكف الأمويون عن الاهتمام بولاية السند وإقرار الأمور فيها وحل مشاكلها فى عهد الجنيد بن عبد الرحمن المرى الذى ولى السند من قبل هشام بن عبد الملك . وقد واجه الجنيد تمرد بعض من كانوا قد استأمنوا فى عهد عمر بن عبد العزيز . فقد تمرد ابن داهر بعد أن كان قد استقام على الطاعة ، حارب الجنيد وهزمه، وتصدى بالحرب لكل من نقض العهد والميثاق . وبدا سلطان العرب قويا فى عهد الجنيد ، فقد أرسل العمال إلى مدن مرمد والمندل ودهنج

---

(١) البلاذرى ص ٤٤٦

(٢) البلاذرى ص ٤٤٦ .

وبروص وازين وكجرات ومالوة ، وحاول خليفة تميم أن يغزو الدكن[١] وبهر يمد والبيلمان والجزر . وأدرك الأمويون أن كسب معركة التثبيت لن يكون إلا بإنشاء القواعد العربية لتكون مراكز لتجمع العنصر العربي وقلاعا حصينة تحمي المكاسب التي أحرزوها . ومن أجل هذا أنشئت مدينتا المحفوظة والمنصورة ولعل هذه الحصون التي شيدها العرب هي التي مكنت ولاة العصر الأموي الأخير من المحافظة على النفوذ العربي في السند حتى قيام الدولة العباسية (٢).

ولم يكن العصر العباسي عصر تجميد للفتوح على نحو ما يذهب بعض الدارسين . فقد اندفع العباسيون في تيار الفتح بنفس قوة الأمويين . ويكفي أن نشير إلى ما أحرزوا من نصر في بلاد ما وراء النهر ومن هزيمتهم للصين وقضائهم على تدخلها في شئون ما وراء النهر . ولما استقام الأمر للدولة العباسية كانت أحرص ما تكون على أن يمتد سلطانها على ولاية السند ، فقد اضطربت أمورها آخر أيام بني أمية . ويبدو أن أمور السند كانت في عهد أبي العباس السفاح قد وكلت إلى أبي مسلم أمير خراسان. فهو الذي ولى العمال وبعثهم للقضاء على منصور ابن جمهور الكلبي ، فبعث مغلسا العبدي لاستعادة النفوذ بالسند ولكنه هزم ، ثم أتبعه بموسى بن كعب التميمي الذي هزم منصوراً وثبت أقدام العباسيين في البلاد . وشرع العباسيون يزيلون أسباب الفتنة حتى هدأت الأحوال وأعيد تحصين مدينة المنصورة وزيد في مسجدها الجامع . ويبدو أن موسى بن كعب بعد أن اطمأن لاستتباب الأمور بدأ يتوسع من نفس النقطة التي وقف عندها محمد بن القاسم من قبل .

وبلغ النشاط العباسي الذروة في عهد المنصور ، عهد تحقيق النمط المركزي للخلافة العباسية . ففي نفس الوقت الذي كانت فيه قواته تثبت النفوذ العباسي في المغرب وما وراء النهر إذا به يفعل نفس الشيء في السند . وبلغ هذا النشاط الذروة في ولاية هشام بن عمرو التغلبي الذي عاود الجهاد في البر والبحر واستغل نشاط البحرية العباسية في بحر العرب والمحيط الهندي ، فبعث عمرو بن جميل يقود

---

(١) Panikar p. 112.

(٢) Ibid.

الأسطول إلى نارند ، واستعاد الملتان من بعض القبائل العربية المتغلبة بل طردهم منها . كذلك وجه الأسطول إلى القندهار وأسفر هجوم الأسطول عن تدمير معبدها البوذى . ويبدو أن الوالى العباسى من قبل المنصور لم يكتف بتهدئة الفتنة فى ولاية السند وإقرار النفوذ العباسى بها ، إنما بدأ يناوش إمارة قنوج ليخط للغزو العربى طريقاً صوب الشرق . وقد أحرز بعض النجاح ، إذ يشير البلاذرى إلى فتح قشمير بقوله « وأخصبت البلاد فى ولايته فتبركوا به ودوخ الثغر وأحكم أموره » (١).

وكانت هذه الجهود من العمق بحيث استقامت أمور السند فى عهد عمر بن حفص بن عثمان هزارمرد وداود بن يزيد بن حاتم . واستمرت معركة المسلمين مع الإمارات الشرقية فى عهد الخليفة المأمون وعهد عامله موسى بن يحيى بن خالد ، فواصل الجهاد فى الشرق وقاتل الإمارات الشرقية « فقتل باله ملك الشرق وقد بذل له خمسمائة ألف درهم على أن يستبقيه . وكان باله هذا التوى على غسان بن عباد وكتب إليه فى حضور عسكره فيمن حضره من الملوك فأبى ذلك » (٢) . وعاود الاستقرار إقليم السند مرة أخرى حتى توفى موسى سنة ٢٢١ هـ وخلفه ولده عمران بن موسى . وأقره المعتصم على ولاية السند . وقد بذل نشاطا يماثل ما بذل أبوه . فقد ثار الجات بمدينة القيقان فقاتلهم حتى هزمهم(٣).

وتابع العباسيون فى عهد المعتصم سياسة إنشاء المدن وبناء القواعد الحصينة، فأمر عمران بن موسى ببناء مدينة البيضاء وأسكنها الجند . ويبدو أن مدينة المنصورة قد خرج بها بعض الثوار من العرب فدخلها عمران بن موسى كما دخل قندابيل وقضى على محمد بن الخليل الذى كان قد أعلن الثورة بها . ولا ندرى لماذا بدأ الميد والجات يثورون على العباسيين فى ذلك الوقت . أكان ذلك لتنكر الولاة العباسيين لشروط المصالحة الأولى التى وضعت فى عهد محمد بن القاسم . يشير البلاذرى إلى غزو عمران بن موسى قبائل الميد ، وقد قتل منهم ثلاثة آلاف ثم

---

(١) البلاذرى ص ٤٤٩ .

(٢) البلاذرى ص ٤٥٠ .

(٣) Panikar p. 112.

عسكر عند مدينة الرور وجبى الجزية من الجات . ويبدو أنهم كانوا قد كفوا عن دفعها وأنهم كانوا على دينهم القديم . وقـــد صالح الجات مرة أخرى واستخدمهم فى حروب الميد .

وفى الحق أن دور العباسيين فى معركة تثبيت الفتح بلغ الذروة من حيث القوة والوضوح فى عهد المأمون والمعتصم .

ولم يكن دور العباسيين فى معركة تثبيت الفتح قاصراً على ذلك النشاط البرى فقد لعبوا فى ميدان البحر دورا مشابها ، فتابعوا الجهود التى بذلها الأمويون . وكانت معركة الديبل فى العهد الأموى بداية التفوق البحرى الإسلامى فى المحيط الهندى وجنوب شرق آسيا وبحار الصين .

وعمد العباسيون إلى المحافظة على السيادة البحرية فى المحيط الهندى. وكانت سياستهم تتجه إلى الحصول على مزيد من القواعد البحرية على طول الساحل العربى للهند . ويشير البلاذرى إلى اشتباكاتهم المتواصلة مع شعوب الهند المطلة على المحيط الهندى ، فهو يتحدث عن أمير البحر عمرو بن جميل الذى قاد البوارج العربية إلى موضع على الساحل يدعى نارند . وعاود الأسطول العربى التقدم على طول الساحل الهندى منحدراً إلى الجنوب فى عهد الخليفة المأمون* فقد سار أمير البحر محمد بن الفضل بن ماهان فى سبعين بارجة لمحاربة القبائل الهندية المسيطرة على المناطق الساحلية .

ثم غلبت على السند نفس الظروف التى غلبت على العالم الإسلامى كله بعد الواثق ، من ضعف الخلافة وسيطرة الجند الأتراك . وفقدت الخلافة ما كان لها من نفوذ وسلطان، ووقعت الحروب بين النزارية واليمانية . ولم يبق على السند فى يد المسلمين غير ضعف إمارة قنوج وعجزها عن الحركة استغلالا لظروف الخلافة العباسية المضطربة .

الفصل الثالث

انتشار الإسلام فى السند والملتان

نعتقد أن سنة ٣٩١هـ من السنوات الهامة فى تاريخ الإسلام فى الهند ، ففيها بدأت فتوح محمود بن سبكتكين لتتم الجهود التى بذلها المسلمون من أيام محمد ابن القاسم حتى هذا الوقت . فقد استطاع محمود فى نحو ستة وعشرين سنة أن يخضع إمارة قنوج وأن ينشر الإسلام فى شمال الهند كله ، وهو الأمل الذى كان يتطلع إلى تحقيقه الجيل الأول من الفاتحين العرب . ونعتقد كذلك أن فى ذلك الوقت كانت الحركة الإسلامية فى السند والملتان قد قاربت الاكتمال وغلب الإسلام على البلاد . وشاركت الأقطار الإسلامية الأخرى سنة التطور فشهدت الحركات الاستقلالية وقيام الإمارات وهى الظاهرة التى عرفتها الحياة الإسلامية منذ القرن الثالث الهجرى فصاعدا .

معنى هذا أن دراستنا لانتشار الإسلام فى السند تقع بين بداية ونهاية ، البداية هى بداية التوسع العربى الذى استهله محمد بن القاسم والنهاية هى سنة ٣٩١هـ بداية فتوح محمود بن سبكتكين فى بلاد السند .

وسنلتزم فى هذه الدراسة نفس الخطة التى التزمناها فى البلاد الأخرى ، أعنى دراسة العوامل والأسباب التى ساعدت على نجاح الحركة الإسلامية ، ثم مظاهر هذه الحركة وإمكانية الوقوف على تفاصيلها ، ثم النتائج التى حققتها فى النواحى السياسية والاجتماعية والثقافية .

وفى دراستنا لعوامل نجاح الحركة الإسلامية فى الهند سنحاول أن نبين أوجه الشبه أو الاختلاف بين عوامل انتشار الإسلام فى الأمصار الأخرى ، خصوصاً فى إيران وما وراء النهر ، محاولين أن نكشف عن الانطباعة التى تركتها بيئة الهند وتركها تراث الهنود . وأهم العوامل وأقواها ما يمكن أن نسميه بسياسة الدولة الاسلامية فى حكم الهند ، ومدى حرص الدولة العربية على المطابقة بين المثالية والواقع ، والأمانة فى تطبيق هذه السياسة تطبيقاً صحيحاً .

وفى مقدمة هذه السياسة موقف العرب من موضوع أهل الذمة ، وقد سبق أن أشرت إلى أهمية هذا الموضوع لفهم التفكير العربى فى بناء الدولة ؛ فهى دولة لاتقوم على أساس عنصر سيد وعنصر مسود ، إنما تقوم على أساس تعاون وتعايش سلمى بين جماعات المؤمنين وجماعات المعاهدين الذين ارتبطوا بالدولة العربية بعهود ومواثيق ، وهذه العهود والمواثيق تنظم صورة هذا التعاون وشكله ، وترتب الحقوق والواجبات وتنظيم موضوع التسامح الدينى واحترام حرية العقيدة وحرمة بيوت العبادة وحماية رجال الدين وتمكينهم من إقامة شعائرهم فى حرية وطمأنينة وتنظيم أمر الدفاع عن البلاد ، وفرض الجزية على المتعاونين مع العرب الداخلين فى طاعتهم وتحديد قدر الجزية وكيفية جبايتها ، ومواعيد هذه الجباية ، وتنظيم الخراج ومايتضمنه من حيازة الأرض أو ملكيتها ، وهو أمر كانت تشعر الشعوب الداخلة فى طاعة العرب بأنها تشارك فى الحياة العربية الإسلامية مشاركة فعالة فى الحدود المرسومة ، وهى لاتنزلهم إلى مرتبة العبيد إنما ترفعهم إلى مرتبة الأخوة وتدنيهم من جماعات المؤمنين فإذا اختاروا الإسلام طواعية واختيارا وانضموا إلى جماعة المؤمنين كانت لهم نفس الحقوق والواجبات .

والعرب بهذا الأسلوب فى تنظيم الدولة أحدثوا ثورة بعيدة المدى فى الأفكار السياسية المعاصرة ، وقضوا على الأنماط القديمة الجامدة التى كانت تقوم على أساس الامتياز العنصرى أو الامتياز الدينى .

ولسنا بحاجة إلى أن نذكر أن هذه السياسة كانت لها نتائج تحريرية بعيدة المدى ، تحرير ملايين الناس فى الشرقين الأدنى والأوسط وفتح آفاق التعاون والتقريب النفسى بين العرب وبين هذه الشعوب فى كل ناحية ، فى الحياة الاجتماعية وفى وظائف الحكومة وفى عملية الإنتاج الحضارى بمظاهرها المختلفة .

وقد شهدنا ألوانا من تطبيق نظام المعاهدين هذا فى إيران أو فى ماوراء النهر ونريد أن نبين مدى تطبيق هذا النظام فى إقليم السند والملتان على قلة المادة وندرتها ، مبينين أثر ذلك فى دفع الحركة الإسلامية .

وواضح مما ذكره المؤرخون أن الأمويين إبان فتح السند فى عهد محمد بن

القاسم قد ارتفعوا بالبوذية إلى مصاف أهل الكتاب كما ارتفعوا بالزرادشتية في إيران إلى نفس المستوى ، فقضى بأن ينضم جماعات البوذيين إلى الدولة العربية وأن يتخذوا وضعية المعاهدين وأن يظفروا بنفس الحقوق ويؤدوا نفس الواجبات (١)

نلمح هذه المعاملة الجديدة في أعمال محمد بن القاسم وتصرفاته في بلاد السند وفي الإشارات الغامضة التي ترد في البلاذري عن مصالحة المدن .

والمصالحة هذه معناها أن المدن المذكورة فتحت صلحا بمقتضى ما نعرفه من قواعـــد وتشير إلى رؤوس الموضوعات التي تشير إليها عقود الصلح في أي بلد آخر .

ويشير البلاذري إلى أهل مدينة بيرون(٢) وإلى مصالحة محمد بن القاسم إياهم وإعطائهم العرب العلوفة وإلى إدخالهم المدينة وإلى وفاء أهل المدينة بعقود الصلح وإلى ما يترتب على هذا كله من فرض الجزية أو الخراج .

ويسترسل البلاذري(٣) في حصر أسماء المواضع المصالحة فيشير إلى سدوسان(٤) وإلى طلب أهلها الأمان والصلح وإلى فرض الخراج . وإلى أهل ساوندري(٥) الذين سألوا الأمان فأجيبوا طبقاً للتقاليد، وإلى مدائن الرور في السند التي فتحت صلحاً ونالت حرية العقيدة .

وهكذا يمضي البلاذري معدداً هذه المدن التي دخلت في الطاعة(٦) ، ومعنى هذا أن نفس السياسة التي طبقها العرب في إيران طبقت في بلاد السند والملتان مع نفس المظاهر والنتائج تقريباً .فظفرت معابد البوذيين بالحرية الدينية كاملة، وكان هذا موضع دهشة البراهمة(٧)، وفرضت الجزية بحدودها الشرعية على طبقات

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٤٤ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٤٣ .

(٣) صالحة سمينة سربيدس — كذلك سهبان ، البلاذري ص ٤٤٣ .

(٤) البلاذري ص ٤٤٣ .

(٥) البلاذري ص ٤٤٤ .

(٦) الرور وبهرور وبسمد البلاذري ص ٤٤٥ .

(٧) مادة سند : دائرة المعارف الإسلامية .

المعاهدين مع الإعفاءات التى عرفتها النظم العربية . وشمل هـذا التسامح الدينى الناس على اختلاف طبقاتهم ، لم يشمل البراهمة فحسب إنما شمل المنبوذين كذلك الذين استردوا حرياتهم الدينية إلى أبعد الحدود .

وتقضى هذه العهود بإقرار المبدأ الإسلامى، وهو مبدأ الحيازة لفلاحى الأرض الأصليين بعد القضاء على الإقطاعية والأسرات الحاكمة مقابل فرض الخراج ، وطبق هذا المبدأ على الهنود كلهم مهما كانت طبقاتهم الاجتماعية، وشعر المنبوذون للمرة الأولى بنعمة حقوق الإنسان .

فكأن هذه السياسة العربية فى الحقيقة قد أعطت حق الحياة لطبقات من الشعب كانت قد فقدت حق الحياة وبدأت تهاجر من السند إلى إيران لتقيم فيها بعيداً عن العبودية والأسر . وهذا قد يتبين مما يذكره المؤرخون من انضمام جماهير المنبوذين فى السند إلى الحكومة العربية وتأييدهم لمحمد بن القاسم وخصوصاً جماعات الجات الذين أيدوا الحكم العربى تأييداً كاملا ، ودفعت هذه المعاملة فئات من الأرستقراطية إلى تأييد الحكم العربى (١) : وإذا كانت التقاليد الإسلامية تمنح هذه الحقوق لجماعات المعاهدين فما بالها لو انتقلت إلى جماعات المؤمنين .

قد لا تكون هذه السياسة حافزا مباشرا على الدخول فى الإسلام ويكفى أنها أسقطت الحواجز بين هذه الشعوب وبين الحكم العربى وأتاحت لها أن تدخل فى الإسلام دخولا شاملا .

وأصبح أهل السند بعد ظفرهم بهذه الحقوق أشد حرصاً على عدم التفريط فيها ، ولعل هـــذا يفسر بعض الثورات التى انتشرت فى الهند بعد وفاة سليمان ابن عبد الملك(٢) فقد كان غرضها الحفاظ على العهـــود والمواثيق ، وهى أشبه بالثورات التى انتشرت فى إيران فى عهد الحجاج بن يوسف . والحق أن الدولة العربية لم تتنكر لهذه السياسة أبداً طوال العصر الأموى العباسى حتى أدت رسالتها ونقلت غالبية أهل السند والملتان إلى الإسلام .

---

(١) البلاذرى ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣ ـ ارنولد : الدعوة الإسلامية ص ٣٠٦ .
(٢) البلاذرى ص ٤١٦ .

ومن هذه السياسة العربية ذات الأثر النفسى البعيد ما أشرنا إليه من المحافظة على النظم الإدارية القديمة واستخدام جماعات المعاهدين فى وظائف الدولة . وأعتقد أن الحكم العربى فى السند لم يخرج عن هذا التقليد وإن كانت المصادر العربية لاتشير إلى هذا من قريب أو بعيد(١). هل كانت دواوين الدولة تكتب بلغة الهند القديمة ؟ هـــل شمل التعريب دواوين الهند فى مرحلة معينة كما تم فى جميـع البلاد الإسلامية ؟ . . أغلب الظن أن هذا قد حدث وإن كانت الوثائق تعوزنا .

وأغلب الظن أيضاً أن الحكام العرب أبقوا على طبقات الموظفين كما هى دون تغيير . وقد تضمنت عقود الصلح التى أشار إليها البلاذرى تأمين بعض الحكام على ما بيدهم من سلطات إقليمية ، وأعتقد أن الطبقات البيروقراطية فى الهند قد استجابت للإسلام على نحو ما استجابت فى إيران وما وراء النهر ، وقـد أسلم بعضهم واتخذ ألقابا عربية كما فعل الإيرانيون تماما(٢) .

ونضيف إلى هذه السياسة العربية عمل الحكومة على تطبيق التشريع الإسلامى فى النواحى الاجتماعية والاقتصادية ، من قضاء على الطبقية التى تأصلت فى حياة الهند كما تأصلت فى حياة إيران ، وإن كنا نعتقد أن هذه الناحية أبلغ أثراً فى حياة أهل السند منها فى حياة أهل إيران لأن جماعات العمال المدنيين فى إيران لم تكن فى مثل هذا المستوى الاجتماعى والاقتصادى المنخفض الذى عانت منه جماعات المنبوذين .

وقد كان لهـذه الناحية من تقاليد العرب أثرها الكبير فى انحياز الكتل البشرية المضيعة فى حياة الهند إلى الحكم العربى انحيازا واضحا ، فقد تحرر المنبوذون اقتصاديا واجتماعيا ودينياً وازداد تحررهم بالدخول فى الاسلام وتحولهم إلى جماعات المؤمنين ، وفتحت أمامهم الحياة الاسلامية واسعة الأبواب .

وبالإضافة إلى هذه السياسة العربية فقد لعبت هجرات العرب إلى الهند فى أعقاب الفتح مباشرة الدور الذى لعبته فى الأمصار كلها من حيث أثرهم فى نشر العروبة والإسلام ، فقـد تدفقت الهجرات العربية إلى السند فى أعقاب الفتح

(١) البلاذرى ص ٤٤٧ .

(٢) البلاذرى : الفتوح ص ٤٤٧ .

مباشرة هاجرت نفس الجماعات التى عرفتها الهجرات العربية فى كل قطر ، فقد هاجر القحطانية والعدنانية على حد سواء وإن كانت القحطانية أكثر عـدداً وأوسع انتشاراً .

انتشر العرب فوق رقعة السندانتشاراً فسيح الرقعة، وصلت البطون المهاجرة شرقا إلى الملتان والقندهار،وأطلت على إمارة قنوج فى أقصى شرق الهند، ومضت جنوبا حتى حدود السند الجنوبية ، ولم تبق ناحية فى السند والملتـان إلا ودخلتها الهجرات .

وقد نهجت الحـكومة العربية نفس المنهج الذى سارت عليه فى كل الأمصار الاسلامية من بناء الحواضر واختطاط الخطط لتـكون أساسا أماكن لتجمع العنصر العربى المحارب والمستقر معا . بل كانت هذه السياسة أشد وضوحا فى السند منها فى إيران نفسها ، فخطط العرب فى إيران لم تتجاوز إقليم العراق ، ولم نسمع بخطة عربية فى بلاد ما وراء النهر، على حين أكثر العرب من هذه الخطط فى السنـد فى العصرين الأموى والعباسى على حد سواء ، فمحمد بن القاسم ما كاد يستولى على الديبل حتى أنزل بها أربعة آلاف من العرب فأصبحت ثغرا عربيا وتكاثر سكانها بمضى الوقت .

وكذلك نشأت مدينة المحفوظة التى بنيت فى عهد هشام بن عبد الملك لتـكون مأوى للعرب وقاعدة عسكرية فى إقليم السند(١) .

ثم بنيت المنصورة فى موضع بقرب من حيدر آباد الحالية لتؤدى نفس الدور. واستمرت سياسة الإسكان حتى عصر المعتصم العباسى ببناء مدينة البيضاء. ولم يقتصر نزول العنصر العربى على هـذه الخطط الجديدة إنما انتشروا فى المدن القديمة التى صالحت العرب .

والعرب إما فى مدنهم الجديدة أو مدنهم القديمة التى سكنوها كان لهم دورهم الواضح فى الحياة الاسلامية فى السند . ومن عجيب الأمر أن نرى دورهم أشد وضوحا فى السند منه فى إيران . فقد استمر العنصر العربى يباشر نشاطه فى السند زمنا أطول منه فى أى بلد آخر .

---

(١) البلاذرى ص ٤٤٩ .

لم تقتصر ثورات العرب ونزواتهم فى السند على العصر الأموى الذى شهد آثارا دامية للنزاع بين القحطانية والعدنانية ، بل استمرت حركات العرب فى السند أيام المهدى ، وهى تتمشى مع ثورات العرب فى كل مكان فى العالم الاسلامى، لفقدانهم نفوذهم فى الحكومة العربية ، وبلغت هذه الثورات أشدها فى عهـــد داود بن يزيد بن حكم المهلبى سنة ١٨٤هـ(١). وإذا بالقبائل العربية تطالب بتقسيم البلاد إلى ولايات ثلاث:قسم لقريش وثان لربيعة وثالث لقيس. ولم يتمكن الوالى العربى من كبح جماح هـذه القبائل إلا بعد أن استعان بعساكر الخليفة الذين قدموا من بغداد وحاصروا المنصورة عاصمة السند عشرين يوما(٢) .

وظهر التيار العربى قويا أيضا فى ولاية موسى بن يحيى البرمكى، واضطر إلى مصالحة زعماء العرب هناك ليضمن ولاءهم(٣) . وعاود العرب الظهور فى عهد خلافة المتوكل سنة ٢٤٠هـ حينما حاولت بطون من العرب أن تستقل ببعض جهات من السند (٤) .

على كل حال خضع العرب فى السند للظواهر الاجتماعية التى خضعوا لها فى جميع البلاد من أثر التوالد فيهم والاختلاط بالعناصر الوطنية ، ومن تأثرهم بالتقاليد السندية الصميمة . وقد اختفى العرب من الحياة السياسية فى السند بنفس الوسيلة التى اختفوا بها من الحياة الاسلامية كلها ، وإن كانت مقاومتهم فى السند قد طالت أكثر من مقاومتهم فى البلاد الأخرى ، فقد ظل العرب يفرضون وجودهم حتى مستهل القرن الرابع الهجرى(٥) . ثم فنيت دماؤهم فى دماء أهل السند وأدوا دورهم المرسوم فى انتشار الإسلام .

وفى إمكاننا أن نضع فى الاعتبار عاملا آخر من العوامل المؤثرة فى الحركة الإسلامية فى السند ، ونعنى به الهجرات الثقافية والفكرية . ذلك أن التوسع الإسلامى بمظاهره العسكرية والبشرية اقترن بتوسع ثقافى وبحركة تعليمية كبرى

---

(١) البلاذرى ص ٤٥٠ .

(٢) الساداتى جـ ١ ص ٧٣ .

(٣) البلاذرى ص ٤٥٠ .

(٤) الساداتى جـ ١ ص ٧٤ .

(٥) المسعودى : المروج جـ ١ ص ٣٧٦—٣٧٩ .

نابعة من الحرص على نشر الاسلام وهدفها التبصير بالعقيدة وفهم أسرار اللغة والفقه والحديث .

والمستقرات العربية التى أشرنا إليها ليست ذات وجه اجتماعى فحسب، فلم تكن مجرد أماكن للإسكان فقط ، إنما كانت جذوراً لمدارس عربية تؤدى دورها المرسوم . لهذا يجب أن نقدر الدور الذى أدته هذه المدارس العربية فى السند بدراسة النتائج التى تركتها وذلك بدراسة كتب الطبقات لمعرفته للمشتغلين بالعلم من الهنود .

وليس من شك فى أن انتشار الإسلام على نطاق واسع كان نتيجة لحركة علمية تبشيرية بعيدة الأثر تغلغلت فى حياة الناس . وكان من أثر ذلك ليس مجرد تعلم أهل السند اللغة العربية أو دخولهم فى الإسلام ، إنما اشتغالهم بالثقافة العربية على مستواها الرفيع ، أو بمعنى آخر توطن الثقافة العربية فى السند .

ونلمح فى كتب الطبقات(١) بوادر نبوغ بين المثقفين الهنود فى آفاق الثقافة العربية ، فقد ظهر علماء فى الحديث واللغة والآداب مثل أبى معشر نجيح السندى المحدث صاحب المغازى، وابن الأعرابى اللغوى أستاذ ثعلب وابن السكيت وأبى العطا السندى المخضرم الشاعر ، ثم أبو على السندى وأبو اليزيد طيفور بن عيسى البسطامى المتصوف .

أدت الثقافة العربية دورها المرسوم فى تاريخ السند فقد أعادت الاتصال الثقافى بين شبه القارة الهندية وبين الشرق الأدنى، بل أظلت وحدة فكرية عجيبة طوائف الناس من حدود الهند شرقا حتى المحيط الأطلسى غربا .

وانتقلت إلى بلاد السند باعتبارها مصراً إسلاميا الهجرات الفكرية، واقتصد نشاط الفرق الإسلامية والمذاهب الإسلامية، فقد دخلت إلى السند فى أعقاب الفتح الأموى دعوة الخوارج ، ولعب الثائر منصور بن جمهور دوراً كبيرا فى آخر العصر الأموى(٢) وظل على هذا النشاط حتى قضى العباسيون عليه ووضع لمذهب الخوارج فى السند الجذور الراسخة .

---

(١) ابن النديم ، الفهرست .

(٢) البلاذرى ، الفتـوح ص ٤٤٩ .

ودخلت الدعوة العلوية بلاد السند فى حكم الخليفة المنصور ، على يد عبد الله ابن محمد الأشتر العلوى[1] . وقد لقيت دعوة العلويين قبولا من أهل السند ، فدخلوا فيها جماعات ، وصبغت وجه الحركة الإسلامية فيها بصبغة واضحة ، كان من نتائجها قيام أمارة إسماعيلية ظلت تحكم البلاد حتى قدوم بن سبكتكين[2] .

كان انفعال الهند بالحياة الإسلامية بوجهها الثقافى والفكرى انفعالا إسلاميا خالصا ، لا يجعلها تختلف كثيراً عن غيرها من الأمصار الإسلامية الأخرى .

وفى ختام هذه العوامل يجب ألا نغفل دور الدولة العربية فى الدعوة إلى الإسلام بالحسنى ونشر العقيدة ، فهذا أخص واجبات الدولة فى الإسلام . ويبدو أن الدولة الإسلامية أدت دورها فى السند كما أدته فى البلدان الأخرى . وعهد عمر بن عبد العزيز عنوان لهذه الحركة التبشيرية ، فقد أرسل هذا الخليفة عمرو ابن مسلم الباهلى أخا قتيبة إلى السند ، وأوصاه بالرفق بأهلها والعمل على ترغيبهم فى الإسلام . وقد صادفه النجاح فيما ندب له ودخل كثيرون من أمراء السند فى الإسلام بعد دعوة عمر بن عبد العزيز المسالمة . ثم لف الغموض هذا الدور الحيوى من تاريخ الدولة العربية حتى عهد الخليفة المهدى العباسى ، وإذا به يتابع نفس سياسة عمر بن عبد العزيز ويعنى بنشر الإسلام بالسند عناية كبيرة . وظلت الدولة تؤدى دورها حتى اصطبغ إقليم السند والملتان بالصبغة الإسلامية الواضحة فى مستهل القرن الرابع الهجرى .

بل يستفاد من رواية المسعودى أن الإسلام تسرب إلى قنوج ، وعندما تحدث عن الهند فى مستهل القرن الرابع الهجرى أشار إلى انتشار الإسلام بين أهل قنوج وقال « وليس من ملوك السند والهند من يعز المسلمين فى ملكه مثل البلهرى (أمير قنوج) ، فالإسلام فى ملكه عزيز مصون وله مساجد مبنية وجوامع معمورة للصلوات الخمس ، ويملك الملك منهم الأربعين سنة والخمسين فصاعداً ، وأهل مملكته يزعمون أنه إنما طالت أعمار ملوكهم لسنة العدل وإكرام المسلمين[3] » .

---

(١) الساداتى ، جـ ١ ص ٧٠ .

(٢) الساداتى ، جـ ١ ص ٧٦ .

(٣) المسعودى ، مروج الذهب جـ ١ ص ٣٨٢ ، أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ص ٣٠٧ .

مظاهر الحركة الاسلامية :

هذا من العوامل التى ساعدت على نجاح الدعوة إلى الاسلام فى السند والملتان؛ أما مظاهر هذه الحركة الاسلامية وتطوراتها فإنها غامضة غموضها فى جميع الأمصار الاسلامية ، للافتقار إلى إحصاءات تسجل عمليات الدخول أو الحاجة إلى قوائم الجزية والخراج، وكيف كان الإعفاء منها مرتبطا بالحركة الإسلامية . وإذا كانت هذه الأمور فى تاريخ إيران غامضة فما بالنا بالسند ؟

ثم نلمح اشتداد الحركة الاسلامية فى ثورات السكان، ومطالبتهم بحقوقهم التى نصت عليها العهود والمواثيق التى عقدت مع الفاتحين العرب ، ذلك أن سكان البلاد أخذوا بدورهم يثورون فى وجه ولاتهم الذين حاولوا فى الغالب أن يحيدوا عما استنه محمد بن القاسم من الرفق بالرعية وإشاعة العدل والتسامح بينهم[1] . فهى أشبه بالثورات التى انتشرت فى إيران إبان الحكم الأموى . وكانت هذه الثورات تنتهى بالاستجابة من جانب الحكومة للتيار الإسلامى العظيم . وقد استجابت الدولة لهذه الثورات فى عهد عمرو بن محمد بن القاسم الذى نهج نهج أبيه فى العدل وأحيا سنته فى التسامح الدينى . وازدادت الحركة الاسلامية وضوحا فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، ومظهر ذلك دخول الملوك فى الاسلام[2] . ثم تزداد الصورة وضوحا فى انتشار حركات التشيع . وكان عمر بن حفص عامل المنصور نفسه علويا ، وفى عهده رحل إلى السند عبد الله بن محمد بن الاشتر العلوى مستخفيا فى زى التجار . كانت الحركة الشيعية راسخة القدم هناك بدليل حرص المنصور على القضاء على حركاتهم ، وسيكون هذا التشيع سبيلا إلى ظهور الإمارة الإسماعلية فى السند فى مستهل القرن الرابع الهجرى . هذا التأييد الشامل للشيعة يدل على أن هنالك جماهير إسلامية كبيرة ذات وزن وأثر .

وقد نظرنا إلى الحركات الاستقلالية التى ظهرت فى إيران وتركستان ليس على أنها أحداث سياسية ، أو انتهاز لجماعات من المغامرين المسلمين فرصة ضعف الخلافة العباسية ليمكنوا لأنفسهم من الحكم والسلطان ، وإنما نظرنا إليها على

---

(١) البلاذرى ص ٤٤٩ .

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ص ٤٤٦ — ٤٤٧ .

أنها تعبير عن شعور إسلامى محلى عميق ، وأنها تدل على أن المجتمع الإسلامى بلغ حداً من النضوج دفعه إلى أن يعبر عن نفسه هذا التعبير السياسى خلف زعامةمن أهل البلاد المسلمين ، سواء أكانوا عربا وافدين ثم استوطنوا الإقليم ، أو مسلمين من أهل البلاد .

وقد بدأت الحركة الاستقلالية فى السند آخر القرن الثالث ومستهل الرابع الهجرى متجاوبة مع الحركات الاسلامية التى انتشرت فى العـــالم الإسلامى كله إذ ذاك . ومن حسن الحظ أن المسعودى[١] رحل إلى الهند فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخها ، وألقى بعض الأضواء على الحركات الاستقلالية التى ظهرت بها ، ومن غريب الأمر أن لا تكون هذه الحركات بزعامات محلية من أهل البلاد الذين أسلموا إنما كانت خلف قيادات عربية ، وهذا يدل على أن العصبية العربية عاشت فى الهند أطول مما عاشته فى الأمصار الأخرى [٢].

وقد تحدث المسعودى عن إمارة الملتان الإسلامية وكيف أن أمراءها عرب خلص ، فهم من ولد أسامة بن لؤى بن غالب . وكان يتولى الإمارة فى فترة زيارة المسعودى أبو اللهاب المنبه بن أسد القرشى الأسامى ، كما تحدث عن اتساع الإمارة فذكر أنها ضمت مائة وعشرين ألف قرية[٣] ، كما أشار إلى لمحات من نظم الحكم فيها . وقد كانت متأثرة بالأسلوب الهندى إلى أبعد الحدود وكان هؤلاء الأمراء يفرضون الرسوم المرتفعة على الحجاج البوذيين الذين كانوا يحجون إلى بعض الأماكن المقدسة فى بلادهم [٤] .

ويلقى المسعودى[٥] أضواء على إمارة أخرى نشأت فى هذا العصر المضطرب وهى إمارة المنصورة ، ولها أمير عربى خالص ينتسب إلى هبار بن الأسود ، ويعرف

---

(١) مروج الذهب جـ ١ ص ٣٧٩ .

(٢) Lane-Poole : Mediaval India pp. 8.

(٣) المسعودى ، مروج الذهب جـ ١ ص ٣٧٥ .

(٤) المسعودى ، مروج الذهب جـ ١ ص ٣٧٦ ـ مادة سند ، دائرة المعارف الإسلامية .

(٥) المسعودى ، مروج الذهب جـ ١ ص ٣٧٩ ـ مادة سند ، دائرة المعارف الإسلامية .

أهله ببنى عمر بن عبد العزيز القرشى. وكان أميرها وقت مجىء المسعودى أبو المنذر عمر بن عبد الله . وكان له وزير يدعى رباح . وكانت له حكومة منظمة ، واتخذ الجيوش على النسق الهندى ،وللملك المنصورة فيلة حربية وهى ثمانون فيلا ورأيت لهم فيلين عظيمين كانا موضوعين عند ملوك السند والهند لما كان عليها من البأس والنجدة والإقدام على فل الجيوش » .

وما لبثت الحركة الاستقلالية أن تغيرت قيادتها فى وقت لا نستطيع تحديده على وجه اليقين . وكل ما نعرفه أن بلاد السند بدأت بحكم موقعها النائى تجتذب طائفة من دعاة الإسماعيلية منذ النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى . وكان أئمة الإسماعيلية يلجأون إلى نشر دعوتهم فى الخفاء وفى البلاد البعيدة من مراكز النفوذ العباسى . ويروى أن محمد بن إسماعيل نفسه فر إلى الرى، ومنها إلى دماوند واستقر بقرية سميت محمد آباد(١) نسبة إليه . وسار أبناؤه على منواله فاختفوا فى خراسان وفى إقليم قندهار والسند . وفى سنة ٢٧٠ هـ أرسل رستم بن الحسين ابن فرج بن حوشب الكوفى إلى بلاد اليمن ، وبعث الدعاة إلى اليمامة والبحرين والسند . فكأن الإسماعيلية كانت تفد إلى السند عن طريقين : الطريق البحرى من اليمن والبحرين ، والطريق البرى من خراسان وما وراء النهر وفرغانة .

ويبدو أن الشيعة بوجه عام والإسماعيلية بوجه خاص كانوا قد كسبوا جانباً كبيراً من تأييد جماعة المسلمين فى الوقت الذى زار فيه المسعودى بلاد الهند . فهو يذكر أنه رأى بالسند خلقا من ولد على بن أبى طالب ثم من ولد عمر ابن على وولده محمد بن على(٢). وقدم إلى السند أيضاً دعاة بعثهم عبيد الله المهدى بعد أن استقامت له الأمور فى بلاد المغرب وممن بعثه داعية يسمى الهيثم .

ثم توالى دعاة الإسماعيلية على البلاد حتى جاءها قائد قدير من قوادهم وداعية يدعى جلم بن شيبان ، فلما قدم الملتان أيده الشيعة والقرامطة الذين كانوا قد تسربوا إليها من البحرين وإيران . وما لبث أن استغل ما كان فى البلاد من فتن، وتمكن

---

(١) حسن إبراهيم ، الفاطميون ص ٣٩ .

(٢) المسعودى جـ ١ ص ٣٧٧ .

من تولى الحكم ، فنشأت أول إمارة شيعية إسماعيلية عرفتها الهند .

وتوارث الإسماعيلية الحكم بعد جلم ، فخلفه الشيخ حميد وكان معاصراً لمحمود الغزنوى . وتدخل محمود لإقصاء حميد ولكن خلفه أبو الفتوح داود ؛ وقضى عليه محمود الغزنوى أيضا رغم تظاهره بالولاء للخليفة العباسى(٢) .

(١) الساداتى ج ١ ص ٧٥ — ٧٦ .

Elliot ; The history of India as told by its own Historians Subugtigin p. 26.

الفصل الرابع

انتشار الإسلام فى شمال الهند كله

الغزنويون

كان الإسلام فى الهند فى النصف الأخير من القرن الرابع الهجرى فى مفترق الطرق ، وكانت مكاسب الإسلام التى تحققت منذ فتوح محمد بن القاسم مهددة بالضياع . فلم يكن الطريق الذى سلكه المد الإسلامى الأول لغزو الهند هو الطريق الصحيح (١) . كما أن ولاية السند كانت أقل ولايات الهند غنى واضألها استقراراً . ولم يكن من المعقول أن ينطلق المد الإسلامى من داخل إمارة السند وحدها اعتماداً على قدرتها وجهودها ، فلن تستطيع أن تواجه الإمارات الهندية القوية التى تحيط بها من كل جانب ، أو تواجه الأمراء الراجبوت المحاربين الأشداء .

وكانت إمارة السند وحدها من الضعف بحيث فقدت القدرة على الحركة . ولم يؤخر من مصيرها المحتوم إلا تفرق الهند وبعثرتها ، فقد تولاها أمراء ، منهم أبو الفتح داود .دانوا بالمذهب الإسماعيلى وفقدوا الصلة بالعالم الإسلامى المجاور . وانقطعت صلتهم بالعالم السنى ، ولم يكن الفاطميون فى مصر بالذين يستطيعون أن يمدوا لهم يد المعونة فى الساعات الحاسمة . بل كان هؤلاء الإسماعيليون كلما أحسوا بتهديد ينتقص من نفوذهم لا يأنفون من محالفة الأمراء الهنادكة المجاورين كما فعلوا أثناء فتوح الغزنوى . والخلافة العباسية لم تكن بقادرة على أن تنجد إمارة السند حتى لو طلبت هذه الإمارة النجدة من بغداد ، إذ كانت الخلافة آخر القرن الرابع قد عراها الضعف . وكان الخلفاء فى بغداد تحت وصاية بنى بويه . وكانت القوى الإيرانية تصطرع من أجل الرياسة النفوذ .

---

(١) Lane-Poole p. 9

لكن الذى كتب للإسلام فى السند البقاء فى تلك الأيام أمر واحد هو ظروف الهند الداخلية نفسها ، فقد انقسمت الهند فى النصف الأخير من القرن الرابع انقساما لم تشهده فى تاريخها ، كان الشمال الغربى منقسما بين أمراء كثيرين من الراجبوت معترفين لراجا دلهى بالغلبة والتفوق . وكان راجا قنوج يملك إمارة أودهه وإمارة وادى الكنج . وكان آل بال يملكون البنغال وبهار . وكان سلائل من آل كبتا يملكون مالوه . وكان جنوب الهند تسيطر عليه إمارات هندوسية ثلاث : جيرا — رجولا — بيندرا (١) . ولم تجتمع هذه الإمارات فى تكتل واحد يكفل القضاء على الإسلام فى السند . إنما كان يحارب بعضها بعضا وهى فى صراع دائب من أجل السلطة والنفوذ ، ولم تتنبه إلى الوقوف صفاً واحداً إلا والقوات الإسلامية تنحدر إليها من الشمال فى تيار جارف .

ويزيد المؤرخ بانيكار (٢) الصورة وضوحا فى تفسيره اسر استسلام شمال الهند فى وقت غارات الغزنويين ، فيقول إن الأمراء الهنود نسوا أمر التهديد الإسلامى منذ توقف زحف المسلمين بعد وفاة المعتصم . وأنهم عاشوا دهراً طويلا فى مأمن من الغزو . ولم يكن يخطر ببالهم أن يجيء التهديد من أية قوة إسلامية كانت . عاشوا فى طمأنينة كاذبة أفقدتهم الشعور بالخطر الذى يتجمع فى شمال إيران . بل عاشوا فى عزلة كاملة جعلتهم على غير علم بما كان يجرى على مقربة من حدود بلادهم من تطورات . وكانت الغزوات الإسلامية آخر القرن الرابع الدافقة من الشمال مفاجأة كاملة لهم (٣) .

وإذا كان ثمة قوة جديدة تحيل جمود الإسلام فى الهند إلى حركة ، وتدفع الحركة التاريخية الإسلامية دفعا قويا ، فلابد من أن تنبعث من أفغانستان وليس من غيرها من البلاد . ويحدد السردار بانيكار (٤) دور أفغانستان فى مصائر الهند فيذكر أنه كلما كانت أفغانستان ضعيفة مفككة الأوصال لم يكن هنالك

---

(١) لوبون ، حضارة الهند ص ٢١٧—٢١٨ ، Lane-Poole p. 14

(٢) A Survey of Indian Hist. p. 112.

(٣) Price, p. 103.

(٤) A Survey of Indian Hist. p. 122—113

خطر على الهند . وإذا شهدت بعثا قويا يوجد بين قبائلها ويعيد الحياة إلى تاريخها فإنها تهدد الحياة الهندية تهديداً خطيراً . تهدد البنجاب أولا ثم تؤثر فى مصائر الهند بعد ذلك . وقد حفل التاريخ الهندى بمثل هـذا التهديد فالإيرانيون فى عنفوان قوتهم استولوا على وادى كابل ولما استعاد الكوشانيون سلطانهم ، استعادوا السيطرة عن وادى كابل وإقليم البنجاب .

لهذا كان لابد للبعث الإسلامى الجديد ـ ليترك الأثر القوى فى حياة الهند ويفيد من انقساماتها السياسية والبشرية والمذهبية ـ أن ينطلق من أفغانستان فتكون نواته فى غزنة فتتحول من ولاية إسلامية نائية إلى إمارة ذات شأن ثم إلى دولة ذات قوة وسلطان .

وقد بدأت حياة جديدة تدب فى غزنة فى منتصف القرن الرابع الهجرى لتحدد لها دوراً هاما فى تاريخ الإسلام . فكانت غزنة مجرد ولاية نائية ليست بذات قيمة كبيرة تخضع للسامانيين فى خراسان وما وراء النهر . وتولى أمرها من قبل السامانيين مولى من مواليهم الأتراك الذين غلبوا على الجيش وتزايد نفوذهم فى العصر السامانى الأخير . كان هـذا المولى التركى يلى غزنة من قبل عبد الملك بن نوح السامانى . وقد برز من أبناء هذا المولى التركى البتكين الذى لمع نجمه فى حياة السامانيين الأواخر ، وأصبحت له منزلة عظيمة فى نفوسهم ومنزلة رفيعة فى بلاطهم ، فأسندوا إليه مناصب ذات شأن فى دولتهم فعينه عبد الملك بن نوح حاجبا فى بلاطه ثم ولاه على هراة سـنة ٣٤٤ هـ . فلما مات عبدالملك فقد البتكين ما كان قد وصل إليه من نفوذ . ثم رحل إلى غزنة وتولى أمورها بعد وفاة أبيه سـنة ٣٥٢ هـ (١) . واستقل عن السامانيين إذ خرج على منصور الأول بن نوح .

ولم يعش طويلا لينعم بثمرة هـذا الاستقلال ، فقد مات بعد ذلك بسنة وخلفه ولده إسحق، ثم مات اسحق بعد أبيه بسنوات قلائل وأصبحت السلطة فى يد مواليهم الأتراك الذين كانوا قد أكثروا منهم . ويبدو أن السلطة بعد إسحق قد آلت إلى بلكاتكين فضرب النقود باسمه فى غزنة سنة ٣٥٩ هـ ، ثم خلفه

---

(١) حسن إبراهيم ج ٣ ص ٨٥ .

مولى آخر اسمه بيرى ، ثم اختير سبكتكين أميراً على غزنة(١) سنة ٣٦٠ هـ (٩٧٦ م) .

وقدر لسبكتكين هذا ولأولاده من بعده أن يكونوا الأمراء الذين يقترن تاريخهم ببعث قوة غزنة والتحول بها من مجرد إمارة صغيرة إلى دولة واسعة السلطان .

كان سبكتكين من الضباط الأتراك الذين فتح أمامهم باب الظهور العسكرى والسياسى فى تلك الفترة المضطربة من تاريخ الإسلام . فقد كان تاريخ الشرق فى هذه الفترة مضطربا حافلا بتصارع على السلطة والنفوذ ، فالبويهيون كانوا يوطدون نفوذهم بالعراق ويناوشون السامانيين فيما وراء النهر ، ويفرضون سلطانهم على الخلافة ، والسامانيون كانوا يتعرضون لضغط القروخانيين الذين أسلموا وبدأوا يندفعون إلى الغرب طلبا للظهور السياسى . وكانت دولة السلاجقة فى طور التأسيس .

وكان على سبكتكين فى هذه الفترة العاصفة إما أن يقوى فيغالب الأحداث وإما أن يضعف وينتهى أمره فى متاهة النسيان(٢). ولم يكن سبكتكين بالذى يرضى الضعف مسلكا ، بل أفاد من أخطاء العصر وتياراته وانقساماته . فقد وحد القبائل الأفغانية ، وهى قبائل جبلية عاربة تعطى من تتحد خلفه قوة ووزنا(٣) . فأكثر من الجند على عادة الأمراء المعاصرين له وأكثر من الغلمان الأتراك أو الأفغانيين ودربهم وأحسن تدريبهم وجعلهم قوة ضاربة تعمل بإرادته فى حمية وعنف .

ولم يكن بالذى تقنع آماله بمنطقة غزنة الوعرة الفقيرة ، فبدأ بتوطيد نفوذه حول غزنة ذاتها ، بالاستيلاء على لغمان فى وادى كابل وأصبح على اتصال مباشر بالهند . كذلك ذكر بن الأثير(٤) إنه استولى على قصدار القريبة من غزنة وبسط

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٤٧ .

(٢) Price pp. 101—102.

(٣) Lane-Poole, p. 10

(٤) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٤٧ .

الواقعة بين سجستان وهراة . كما استولى على منطقة سجستان . ولما ظهر على هذه الصورة استنجد به نوح بن منصور الساماني ليدفع عنه خطر القروخانيين فبعث ولده محمود للسيطرة على خراسان، وولاه إياها نوح بن منصور سنة ٣٨٤ ﻫ مكافأة له على قمع القروخانيين(١).

ومات سبكتكين سنة ٣٨٧ ﻫ بعد أن أصبح من أبرز الزعماء الأتراك المعاصرين وأوفرهم قوة وأعظمهم نفوذاً، ووضع بعد حكم دام عشرين سنة أساس ملك الغزنويين، بفضل ما أحرزه من نصر فى فتوحه فى الشرق والغرب، وما اشتهر به من الصلابة وقوة الإرادة «كان سبكتكين عادلا خيراً كثير الجلد حسن الاعتقاد ذا مروءة ثابتة وحسن عهدة ووفاء»(٢). وأنشأ دولة ذات طاقة محاربة عظيمة ضمت خراسان وأجزاء من آسيا الوسطى وكونت مركز ثقل عظيم فى هذه المنطقة الحيوية المجاورة للهند .

وفى عهد سبكتكين وولده محمود الذى شاركه الكثير من أمجاده ، وضع مايسمى بالطابع الغزنوى أو التقاليد الغزنوية التى ستترك أثراً كبيراً فى تاريخ إيران ، وربما أثراً كبيراً فى تاريخ الهند . وهذه التقاليد تتمثل فى طابع العناصر التركية الفتية التى اعتنقت الإسلام فى القرن الرابع الهجرى ، وماعرفت به من التعصب الشديد للسنة ، والنظرة الضيقة جداً إلى الدين ، والولاء العميق لخليفة المسلمين . كما أن هذه الشعوب المحاربة لم تعرف سبيلا لنشر الإسلام إلا بالجهاد والفناء فيه مهما كانت التضحيات . ومن الغريب أن نجد مثل هذه الروح عند الشعوب البدوية الطارئة على الإسلام . فقد كان يوسف بن تاشفين يقود جموع المرابطين من صحارى المغرب الأقصى ليندفع بهم إلى المغرب ويخوض بهم معارك الجهاد فى الأندلس . كانت للمرابطين نفس النظرة إلى الإسلام ونفس الاندفاع فى الجهاد . وتمثلت هذه التقاليد أيضاً فى محاربة أية نحلة تعارض السنة ، أو تقف فى سبيلها . فكان الغزنويون حرباً على الباطنية ، صلبوا عدداً كبيراً منهم ونفى المعتزلة إلى خراسان ، وأحرقت كتب الفلاسفة والمعتزلة والنجوم(٣). وكانوا حربا

---

(١) حسن إبراهيم ج ٣ ص ٨٥ .
(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٨ .
(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ١٣٩ .

على الإسماعيلية والشيعة . ولما وجد الفاطميون أن الغزنويين ينكلون بأنصارهم من الإسماعيلية عملوا على استمالة محمود الغزنوى دون جدوى ، ونشر الغزنويون هذه الروح المتزمتة فى شرق إيران . ولعل هذا سر كرههم الشديد للبويهيين . واندفع السلاجقة بنفس النظرة والروح إلى آسيا الصغرى وبلاد الشام . ومن غريب الأمر أن نجد المرابطين فى المغرب الأقصى حربا على المعتزلة ، ونسب إليهم إحراق كتب الغزالى .

ثم كان اتجاه سبكتكين وأولاده من بعده إلى ميدان الهند . وهنا يحق لنا أن نسأل عن الأسباب التى انطلقت بسبكتكين وأولاده إلى هذا الميدان الجديد ؟ يذكر بعض المؤرخين أن هذا الاتجاه كان سببه رغبة سبكتكين فى توطيد نفوذه على وادى كابل وأن ذلك قادة إلى الاحتكاك بجيبال ومملكة البنجاب ، فلما خضعت البنجاب فتحت أبواب شمال الهند على مصاريعها(١) .

وأعتقد أن هناك أسباب أعمق من هذه بكثير تفسر هذا الاتجاه المتدافع إلى الهند ، فلا شك أن سبكتكين قد تجمعت له طاقة محاربة من الطراز الأول . وكان لها أن تنصرف إلى أى اتجاه فلا تبقى حبيسة منطقة غزنة . ولم تستطع هذه الطاقة أن تمعن فى انصرافها نحو الغرب حيث البويهيون والسلاجقة ، بل كان لابد لها أن تجد متنفسا لهـا ، يتفق مع طابع الدولة وطبيعة تركيبها . ولم يكن هذا المتنفس إلا عبر وادى كابل ثم إلى بلاد البنجاب والهند .

ولا ننسى أن الرغبة المضطرمة فى الجهاد كان لابد لها أن تظهر فى مكان ما !! الأتراك الشرقيون أسلموا ، وغلب الإسلام على آسيا الوسطى وأسلم الغور والخوارزمية وحورب الباطنية والإسماعيلية فى كل مكان ، فلم يبق إلا أن تنصرف هـذه الرغبة إلى الممالك الوثنية فى الهند إرضاء لهذه الروح العنيفة . وابن خلكان(٢) يلقى ضوءا على الحوافز الدينية العميقة التى كانت تدفع محمود بن سبكتكين إلى الهند فيذكر أنه كان يرمى من وراء هذه الحملات أن تكون كفارة لما كان من قتال المسلمين . ولذلك فرض على نفسه كل عام غزو الهند . نفس

---

(١) Lane-Poole p. 14—Panikar p, 113—Price p. 101

(٢) ابن خلكان ، الوفيات ج ٢ ص ٨٥ .

هذا التصور هو الذى كان يحرك المنصور بن أبى عامر فى الأندلس إلى أن يغزو الممالك المسيحية كل عام .

على كل حال بدأ الاندفاع الغزنوى إلى الهند فى عهد سبكتكين . ذلك أن استيلاءه على لغمان جعله على اتصال مباشر بالهند وبدأ يحتك بجيبال راجا بهاتندا الذى كان يحكم البنجاب . وكان ملكه الواسع يمتد من سرهند إلى لمغان أو من وادى الكنج إلى حدود أفغانستان ، وتطور هذا الاحتكاك إلى حرب بينهما ، والتقت قوات سبكتكين بجيش جيبال الهندى ، فلما رأى بأس هذا الجيش فى القتال عرض الصلح على أن يدفع جزية كبيرة[1]. ويعترف بسلطان الغزنويين . وقبل صاحب غزنة عرض الجزية . وكان ولده محمود متبرما بهذا الصلح ويحض أباه على أن يمضى إلى محاربة هؤلاء الوثنيين وألا يهادنهم . ويبدو أن الأمير الهندوكى نكث بالعهد وسجن فريقا من أهل غزنة الذين كانوا بصحبته لتنفيذ ما صولح عليه . وفى نفس الوقت جمع جيبال حلفا من الأمراء الأقوياء أصحاب آجمير ودهلى وكلنجر وقنوج ليقف فى وجه هذا الاندفاع الغزنوى ، فكانت هزيمة جيبال وحلفه والاستيلاء على بشاور وإخضاع البنجاب وتدفق هذا التيار الإسلامى الجديد إلى سهول الهند[2] .

ثم استطاع محمود الغزنوى أن يحتل مكان أبيه فى إمارة غزنة . وقد تجلت فى محمود التقاليد الغزنوية كأوضح ما تكون ، فقد ورث نفس قدرات أبيه العسكرية وقدراته الفائقة وأحلامه البعيدة . فقد وطد سلطان الغزنويين فى شرق إيران . وكان من أهم ما رمى إليه أن يرث ملك السامانيين فى خراسان . وكان قد ساءه انتزاع منصور بن نوح مدينة نيسابور وإقصائه من إمرة الجيوش فى خراسان وتوليتها بكتوزون . وقد اتخذ محمود بن سبكتكين من انحلال الدولة السامانية وتآمر بكتوزون الخاصة على منصور بن نوح وخلعه وتولية أخيه الصغير فرصة لتحقيق سياسته . وهزم الجيش السامانى بمرو سنة ٣٨٦ هـ . وارتد عبد الملك بن نوح إلى بلاد ما وراء النهر ، وخضعت له خراسان ، وأقام

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٤٩ .

(٢) Panibar p. 113,

أخاه نصرا نائبا عنه بخراسان ، فأقام فى نيسابور واتخذها مقرا له ونجح محمود فى تحقيق ما أخفق البويهيون فى تحقيقه من قبل(١).

ولم يقنع بخراسان فتصدى للبويهيين وانتزع منهم الرى وبلاد الجبل واستولى على قزوين(٢) كما تصدى الأتراك الشرقيين أصحاب أرسلان بن سلجوق ، وكانوا يقطنون صحارى إقليم بخارى كما قبض على زعيمهم أرسلان ببلاد ماوراء النهر .

ـ كان من الطبيعى بعد هذا أن يكتمل استقلاله فكان أول الغزنويين تلقبا بلقب سلطان . ونمت قواته المحاربة نموا عظيما بعدأن تدربت على الحرب فى جبال أفغانستان وصحارى خراسان(٣) .

ولم يكن محمود أقل من أبيه انفعالا بالنسبة وتعصبا لها . فتعقب الباطنية الاسماعيلية على النحو الذى بيناه(٤)، كما حرص على أن يكسب ولاء الخليفة ، وقد لقبه الخليفة القادر بالله بلقب يمين الدولة وأمين الملة . وذاعت شهرته فى المشرق الإسلامى كله ، وهرع إليه المطوعة من كل ناحية ليعملوا تحت لوائه إسهاما منهم فى حركة الجهاد . وقد انضم إليه من إقليم ما وراء النهر وحده نحو عشرين ألفاً من المحاربين الأشداء .

لكن الانفعال الصادق بالجهاد والتطبيق الصحيح للتقاليد الغزنوية ، والحمية الفائقة للدين تجلت فى أعظم ما حققه أمير معاصر وأعنى حملاته فى بلاد الهند ، تجلت فيها القدرات العسكرية الفائقة والإصرار والعنف على تحدى العقبات الطبيعية التى كادت أن تجعل من حياته أشبه أسطورة تروى . فقد قاد جيوشه فى بلاد الهند أكثر من سبعة عشر مرة . وظل يحارب فى الهند دون فتور نحوا من سبعة وعشرين سنة(٥).

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٥٤ .

(٢) حسن ابراهيم جـ ٣ ص ٨٩ .

(٣) حسن ابراهيم جـ ٣ ص ٨٨ .

(٤) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٣٩ .

(٥) Lane-Poole p 12, Panikar pp. 113—116 Rawlinson ; India a short Cultural hist. pp 210—212.

وحملته الأولى أريد بها أن يؤكد السيادة الغزنوية فى منطقة البنجاب وأن يتصدى لجيبال الذى عاود الخروج مرة أخرى، وحشد محمود نحواً من إثنى عشر ألف من الفرسان وثلاثين ألفاً من المشاة وثلاثمائة من الفيلة . وقد ضاعت آمال جيبال وتوطد سلطان الغزنويين فى البنجاب، وخرجت حملته الثانية عام ٣٩٥ هـ[1] (١٠٠٤ — ١٠٠٥ م) واتجه إلى بهيرة على جهلم أحد روافد السند فضمها إلى ملكه ، واتجه إلى الملتان ليخضع أميرها الإسماعيلى أبا الفتح داود واضطره إلى طلب الصلح ودفع الجزية .

ولم يستسلم الهنود لضياع إمارة البنجاب الغنية فهب آننجبالا ليأخذ بثأر أبيه وتحالف مع أمير الملتان الإسماعيلى ، وكون جبهة قوية لمقاومة الغزو ، تتألف من حكام دلهى وأجمير وقنوج وكالينجار . واستنهض لشد أزره همم الراجبوتيين[2] ، فخرج محمود إلى الهند لمواجهة هذا التحدى سنة ١٠٠٨ (٣٩٩ هـ) وهزم الحلف الجديد ، وانطلق السلطان إلى نسكركت الحصن الذى جمعت فيه كنوز الهندوس ، وكان يقع على تل فى منطقة السهول الغنية بسفوح الهملايا . وقد فتح هذا الحصن وغنم محمود الغزنوى ما به من ذخائر ، كما قضى فى الوقت نفسه على أبى الفتح دواد الإسماعيلى وخرب المنصورة عاصمته .

ثم عاد إلى الهند مرة أخرى سنة ١٠١٠ م (٤٠١ هـ)[3] وانطلق إلى نادين حيث جمع جيبال الثانى ـ حفيد جيبال الأول ـ حلفا آخر لمقاومته ، فهزم جيبال الثانى وانفض حلفه . وفى السنة التالية أراد محمود أن يوجه إلى الهندوكية ضربة قاصمة، وذلك بأن يهدم المعبد الكبير فى ثنيسر، وقد دخل هذه المدينة دون مقاومة. وفى الحملة التالية انطلق إلى قشمير بعد أن اجتمع له نحو من مائة ألف من الفرسان وتوغل بهم فى بلاد الهند إلى أعمق مما توغل من قبل ، فهاجم دلهى وعبر نهر جمنا وحاصر مدينة باران . ولم يستطع هارواتا حاكمها أن يقاوم فاستسلم للفتح . ثم زحف محمود إلى مثيرا المليئة بالمعابد ، فاستولى عليها ومنها انطلق إلى برندابان .

---

(١) Price p, 103

(٢) الساداتى ج ١ ص ٨٦ .

(٣) Price 104,

وفى سنة ١٠١٩ م (٤١٠ ﻫ) أراد محمود أن يضرب قلب الهند بالاستيلاء على مدينة قنوج الشهيرة ، والتى يقال أنها كانت تضم نحوا من عشرة آلاف من المعابد . ولم يستطع أميرها أن يقاوم ، فاقتحمت مدينته وتم الاستيلاء عليها . وفى سنة ١٠٢١ — ١٠٢٢ (٤١٢ — ٤١٣ ﻫ) قاد محمود الغزنوى حملة أخرى لإخضاع راجا جندله وفتح كالينجار .

ولكن الغزاة التى اعتبرت من أعظم أمجاده الحربية هى غزاة سمنات (٤١٦ — ٤١٧ ﻫ) ١٠٢٥ — ١٠٢٦ م ، وقد تقدم عن طريق الملتان وأجمير . فاستولى عليها ثم انطلق إلى المدينة المقدسة فاستولى عليها(١) .

ولكننا نريد أن نتبين الآثار التى تركتها حملات محمود الغزنوى فى تاريخ الإسلام فى الهند ، ولا ننكر أنها كانت انتصارات عسكرية حاسمة أروع مما أحرزه محمد بن القاسم وخلفاؤه . وكانت ضربات محمود الغزنوى أقوى من ضربات الجيل الأول من الفاتحين العرب . والذى يلاحظ أن هذه الفتوح أملتها حمية دينية طاغية خرجت بهذا الفتح التركى عن الطابع السمح الذى توفر لجيل الفاتحين العرب الأولين . فقد كانت حربا لارحمة فيها على الهندوكية وتراثها ومؤسساتها الدينية ، حتى لقب محمود بلقب « محطم الأوثان » ، ولم تتعرض الهندوكية لمثل ما تعرضت له على يد محمود الغزنوى وحروبه المتتابعة . وكانت صدمة لم تفق الهندوكية منها طويلا . فقد فتحت الطريق إلى أجيال أخرى من المجاهدين المسلمين تفيد مما تحقق فى عهد محمود بن سبكتكين . وبعض ممن أرخ للهند الإسلامية عزا هذه الفتوح المتتالية إلى رغبة جامحة فى النهب والسلب والاستيلاء على كنوز الهند التى حفلت بها معابدهم الشهيرة . وفى الحق أن ما أحدثه محمود الغزنوى خلال هذه الغزوات يمكن فهمه فى ضوء ما ذكرت عن « التقاليد الغزنوية » ، تقاليد الترك المتحمسين للدين تحمسا يرقى لدرجة التعصب . ولم يكن من المعقول أن يكون جيل القرن الرابع الهجرى من الترك فى سماحة الجيل الأول من العرب . ولا يشك فى أن حملات محمود كانت مسبوقة بطلب الدخول فى الإسلام ،

---

(١) Panikar pp. 113—114.

يقول السير توماس أرنولد[1] « وفى الحق أن الإسلام قد عرض فى الغالب على الكفار من الهندوس قبل أن يفاجئهم المسلمون » . وكان محمود الغزنوى يعتبر المدن التى تصدت له بالمقاومة فى حكم المدن التى تفتتح عنوة، فاعتبر كنوزها وثرواتها فيئاً وغنيمة للجند المسلمين المنتصرين[2] .

ولا يخفى أنه فى غزوات محمود بن سبكتكين تمثلت سطوة الإسلام كأقوى ما تكون، وأصبح الاسلام الكلمة العليا فى شمال الهند كلها . وأوغل محمود فى الهند بصورة لم تتوفر لفاتح مسلم من قبل . وقد نظر المؤرخون المسلمون إلى أعماله من هذه الزاوية، ورأوا فيها إعزازاً لكلمة الإسلام، فقد بلغ فى فتوحه .. « إلى حيث لم تبلغه فى الإسلام راية ولم تتل به قط سورة ولا آية فدحض عنها أجناس الشرك . . وأقام بدلا من بيوت الأصنام مساجد الإسلام ، وعن مشاهد البهتان معاهد التوحيد والإيمان ، فصارت الأطفال تهدد فى بطالتها بإقدامه وتفزع باقبال ألويته وأعلامه[3] .

ويكفى أن محموداً الغزنوى قد جعل البنجاب إمارة إسلامية تركزت فيها تقاليد الإسلام وحضارته وأصبحت قاعدة إسلامية للإغارة على بقية الإمارات الهندية[4] .

على كل حال كان اقتحام محمود للهند اقتحاما بطوليا فريداً يذكر باقتحام الهضبة الأيبرية على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير ، كما كانت حملته على سومنات شبيهة بحملة المنصور بن أبى عامر على قلعة شانت ياقب بغرب أيبريا . ورغم ما أصاب الهندوكية فى عهده فإن مؤرخ الهند السردار بانيكار يعتبره[5] « من أعظم شخصيات التاريخ الإسلامى ، وأنه كان حكيما عادلا محبا للعلوم والفنون ، ذاع صيته فى العالم الاسلامى كله كمدافع عن الدين .

---

(١) الدعوة إلى الاسلام ص ٢٨٨

(٢) Rawlimson p. 223

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٨٥

(٤) Panikar p. 114

(٥) Panikar p. 113

وقد مرت الهند بعد محمود الغزنوى بنفس الظروف التى مرت بها تركستان فى ظل السامانيين . وكما كان الحكم السامانى مضيا بالحركة الإسلامية إلى آفاق بعيدة فإنا نعتقد أن الغزنويين أدوا نفس هذا الدور . وكانت الدولة الغزنوية دولة هندية إسلامية إلى حد كبير . وكان شطرها الهندى أغنى ولاياتها وأوفرها قوة وأكثرها استقراراً .

ويمكننا أن نوضح الدور الذى قام به خلفاء محمود الغزنوى فى تاريخ الإسلام بالهند . وأول ما يمكن أن نتبينه أنه بعد وفاة السلطان محمود تزايد اهتمام خلفائه بالشطر الهندى من دولتهم، وذلك بسبب ضغط السلاجقة فى إيران، فما كاد مسعود يعود من حملته على الهند حتى وجد السلاجقة قد سيطروا على إيران وخراسان ، بل بدأ شطر كبير من أملاك الغزنويين فى إيران ينتقل إلى السيادة السلجوقية . وبدأت أملاك الغزنويين شمال الهملايا يلتهمها السلاجقة باستمرار . واضطر الغزنويون الأواخر إلى محالفة السلاجقة ، وارتبطوا بهم بروابط المصاهرة . بل غدت غزنة نفسها ولاية سلجوقية خاضعة لملكشاه . ودخل السلاجقة غزنة لنصرة بهرام ضد أخيه أرسلان شاه . فكان من الطبيعى أن تكون الهند الموئل الأخير للغزنويين . وكان من الطبيعى أن يشتد اهتمامهم بأمورها ، هذا بالإضافة إلى غنى البنجاب والمدن الهندية المجاورة لها، حتى أصبح القسم الهندى من أغنى أملاك الغزنويين على الإطلاق .

وكان لهذا الاهتمام آثاره فى تاريخ الإسلام فى الهند فقد اضطر الغزنويون بعد انتهاء موجة الفتوح الأولى إلى مزيد من الاهتمام بها والتدخل فى شئونها وتنظيم أمورها ليدوم سلطانهم فيها(١) ، فأنشأوا منصب نائب السلطان فى الهند وكان يقيم عادة فى لاهور(٢) . وكان أحيانا يختار من الأمراء الغزنويين أنفسهم ، فقدتولاه مجدود حينا ثم مودود بن مسعود حينا آخر سنة ٤٢٦ هـ(٣) . وكان هذا المنصب يعهـــد به أيضاً إلى بعض القواد المجربين الذين شاركوا

---

(١) Lane-Poole p. 28.

(٢) Legacy of Persia p. 93.

(٣) ابن الأثير جـ ٩ ص ١٧٠—١٧٢ ، ١٨١ .

محمودا الغزنوى فتوحاته وعرفوا أسراره ، فقد تولاه أرياروق حيناً ثم عهد به إلى أحمد بن ينالتكين ، وكان عامل الخراج زمن محمود الغزنوى وصحبه فى جميع غزواته . ثم تولى نيابة السلطنة بعض الهنود المسلمين ، تولاها تلك بن جاوسن(١) . ونائب السلطان هذا كانت له القيادة العسكرية فحسب ، أما الأمور الدينية والسياسية فقد كانت بيد قاض شيراز . وأقاموا عاملا للبريد ينقل إليهم أخبار الهند باستمرار ليكونوا على معرفة بما يستجد من تطورات . وأغلب الظن أنهم فتحوا الباب أمام المسلمين الهنود المشاركة فى الحكومة المحلية فى البلاد. كذلك أبقوا على الأمراء الذين أعلنوا إسلامهم ودخلوا فى طاعتهم وأتاحوا بذلك الفرصة للاندماج بين الترك والهنود .

وقد اتخذ الغزنويون فى الهند سياسة كانت بعيدة الأثر فى انتشار الاسلام وساعدت علـــى الاندماج بين الترك والهنود ، من ذلك إباحتهم للمسلمين من الهنود أن يتولوا المناصب الكبرى، فتلك الهندى كان مقربا من السلطان مسعود وكان يترجم بين الوزير الميمندى وبين الهنود ، كما كان يحسن الكتابة بالفارسية والهندية (٢) ، وقد تولى منصب نائب السلطنة وقيادة الجيش . كذلك استخدم الغزنويون الهنود فى الجيش وفرضوا لهم العطاء ووثقوا بهم وعاملوهم نفس المعاملة التى ظفر بها الجند الترك . وغدت القوات الهندية تؤلف نحواً من نصف جيش مسعود . وكانت تلك خطوة هامة فى طريق الالتحام بين الهنود وبين الإسلام(٣) . بل يبدو أن القواد الهنود استخدموا فى غير أرض الهند ، فكان القائد الهندى سيوا ندراى على رأس قوة كبيرة من الفرسان الهنود الذين أرسلوا لمحاربة بعض الأمراء الخارجين . ولما كان مسعود يتصدى للخطر السلجوقى وتعرضت جيوشه للهزائم فى مرو فقد أخذ يفكر فى أن ينقل مقر السلطنة إلى الهند ويتخذ الهند ملجأ لينطلق منها لمحاربة السلاجقه .

ولم تكف ولاية البنجاب فى العهد الغزنوى عن مواصلة التوسع حينا أو المحافظة على ما بيدها حينا آخر . وكانت تلك من أهم واجبات نائب السلطان

(١) Elliot p. 112—113, Price p. 107

(٢) Elliot p. 119.

(٣) Idem

فى الهند ، فأحمد ابن ينا لتكين هاجم بنارس ـ ولم يكن قد بلغها جيش إسلامى من قبل ـ وقام بنهبها ثم انسحب منها . كذلك رحل مسعود إلى الهند عن طريق كابل واستطاع أن يستولى على قلعة هانس[١] . وحاول محمود الغزنوى أن يفتحها من قبل فلم يوفق . وفى عهد مودود[٢] ثار ثلاثة من ملوك الهند وتحالفوا مع بعض راجاتها وحاصروا لاهور ، فأرسل مودود جيشا كبيرا حاربهم واضطرهم إلى الانسحاب . كما أن إبراهيم بن مسعود عقد الصلح مع السلاجقة وفتح فى الهند الكثير من القلاع التى كانت قد امتنعت على مسعود من قبل[٢] .

---

(١) حسن ابراهيم ج ٣ ص ٩٧ .

(٢) ابن الأثير ج ٩ ص ١٩٣ـ١٩٤

الفصل الخامس

الهنود والحضارة الإسلامية

والناحية التى تستحق مزيداً من الاهتمام هى موقف الهنود الذين اعتنقوا الإسلام من الحضارة الإسلامية . ماذا أضافوا إليها ؟ وإلى أى مدى أسهموا فى تكوينها كما أسهمت الشعوب الأخرى التى اعتنقت الإسلام . وكيف تأثروا بالفكر الإسلامى وأثروا فيه . وما موقف حضارة الهند الشامخة العريقة من الحضارة الإسلامية الوافدة ؟

وأعتقد أن موقف الهنود المسلمين من هذه النواحى جميعها مر بدورين متمايزين : الدور العربى وفيه اتصلوا بالثقافة العربية الخالصة وتأثروا فيها . وقد استمر هذا الدور منذ إتمام فتح السند فى عهد محمد بن القاسم الثقفى حتى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى، حين ضعفت الخلافة العباسية وخضعت لوصاية أتراك الجيل الأول ثم البويهيين، والفت أخبار السند الغموض وقامت بها الإمارة الإسماعيلية التى استمرت حتى آخر القرن الرابع .

والدور الثانى ويسمى بالدور الطورانى أو الأفغانى التركى . وفيه حمل الأتراك والأفغانيون المؤثرات الإسلامية إلى شمال الهند كلها ، وتدفق العنصر التركى إلى البلاد منطلقاً من إمارة البنجاب ، واتصلت الهند بآسيا الوسطى اتصالا وثيقاً . وتأثر الهنود بمثل الترك وتعصبهم للسنة وتبنيهم للثقافة الفارسية الجديدة فى عصر الإحياء ، وما عرفوا به من تنظيمات سياسية وعسكرية وتشجيع للحركات الصوفية . وطالت إقامة الأتراك والأفغانيين فى الهند ، وبدأوا يحتكون احتكاكا واسع المدى بصميم الحياة الهندية والفكر الهندى . وقد بدأ هذا الدور بفتوح محمود ابن سبكتكين واستمر حتى توطد الحكم المغولى فى البلاد فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى .

وسنحاول أن نحدد معالم التجاوب الهندى بالحضارة الإسلامية فى كل من هذين الدورين .

الدور العربى :

فى الدور الأول الذى أطلقنا عليه اسم الدور العربى كان احتكاك الهنود بالحضارة الإسلاميـــة وتأثرهم بها وأثرهم فيها يقع فى ميدانين : فى بيئة السند الخاصة ثم فى البيئة الإسلامية العامة، بحكم انتماء ولاية السند إلى عالم أوسع هو عالم الخلافة الإسلامية .

وأهم التطورات التى حدثت فى البيئة السندية ذاتها ما كان من هجرات القبائل العربية . وقد دخل المهاجرة العرب إقليم السند إما من جنوب إيران عبر إقليم مكران وإما ركوبا للبحر عبر الخليج العربى . ولهذا غلب العمانيون والحضارمة بوجه خاص والعرب الجنوبيون بوجه عام على الهجرات التى اندفعت إلى بلاد السند .

وأقام العرب أول الأمر فى مدن السند الكبرى ، مثل المحفوظة والمنصورة والبيضاء أو الديبل . وبدأوا يحتكون بأهل البلاد عن طريق التزاوج . ويبدو أن التزاوج بين العرب وأهل السند كان مقصوراً على الطبقات التى يعتبرها البراهمة طبقات منبوذة، لأن الطبقات الممتازة عاشت حياة اجتماعية وأباح لها الإسلام حرياتها الدينية ، فاستمسكت بها إلى أبعد الحدود . وعاشت منطوية على نفسها . وكان الاختلاط أغلبه بعناصر الجات . وقد أعجب العرب بحسن نساء الجات وجمالهن فأقبلوا على الزواج منهن ، حتى نسب إلى بعض الشعراء العرب رجزاً مشهورا مطلعه(١) .

علقت خودا من بنات الزط

وهذا الاندماج بين العناصر العربى الوافد والعناصر الهندية صاحبة البلاد لم يكن سريعا كما حدث فى البيئات الإسلامية الأخرى ، كمصر أو المغرب أو الأندلس. والدليل على هذا أن العصبية العربية كانت لا تزال على قوتها فى السند

---

(١) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٤١

حتى مستهل القرن الرابع ، فى حين كانت قد ذهبت ريحهـــا فى أغلب البلاد الإسلامية . لهذا لم يلعب الهنود دورا بارزا فى الحياة الإسلامية هناك ، على حين كان المولدون فى جميع الأمصار قد أصبح التاريخ الإسلامى تاريخهم منذ القرن الثالث الهجرى . واندفعوا وراء الحركات الاستقلالية يشجعونها . ولو كانت السند قد اكتسبت صبغة عربية واضحة وأسرع التوليد فيها كأسرع فى البلاد الأخرى لـكان لها شأن فى تاريخ الحضارة الإسلامية فى الهند .

والتطور الثانى الذى شهدته بيئة السند نفسها فى هذا الدور هو نشأة مدرسة السند الإسلامية ، شأنها شأن مدارس الأمصار التى نشأت فى أعقاب الفتوح العربية . وقد شهدت البلاد هجرة العلماء والفقهاء والمحدثين وإقامتهم بها ، كنواة أولى للمدرسة العربية . وكان بعض الفاتحين من العلماء كالربيع بن صبيح البصرى أشهر المحدثين وأولهم تدوينا للحديث ، وكان فى الجيش الذى سيره المهدى سنة ١٥٩ ﻫ إلى السند[1] . وقد ترجم الذهبى لبعض المحدثين فى السند فى كتابه تذكرة الحفاظ . وربما اشتدت هجرات العلماء العرب إلى السند فى عهد الرشيد وحكم البرامكة الذين اهتموا بالسند اهتماما خاصا .

كذلك اشتدرحيل العلماء فى عهد الترجمة من العلوم القديمة والبحث عن الـكنوز العلمية الدفينة . وكانت الرحلة لبث العلوم العربية والتماس علوم الهند . ويبدو أن مدرسة السند العربية لم يقدر لها الازدهار . ويرجع ذلك إلى بطء تقبل الهنود للحياة الإسلامية وما عرفوا به من محافظة على الموروث وتمسك به إلى أبعد الحدود . وكان بطء اختلاط العرب بأهل البلاد سبباً آخر انتشار اللغة العربية وقلل براعة الهنود فيها ، فلم يسهموا فى الإنتاج العربى بفيض غزير كما فعلت مدرسة الفسطاط أو القيروان أو قرطبة . ويضاف إلى ذلك أن السند لم تـكن من الخصوبة والرخاء والاستقرار بما يمكنها من جذب المهاجرة من العلماء . فكانت من أفقر الولايات الإسلامية وأ كثرها جدبا .

على كل حال دور الهند فى الثقافة العربية غير واضح وضوحا كافيا ، بل يكاد أن يكون غامضا إلى أبعد الحدود . والسبب فى هـذا انقطاع صلة السند بالخلافة

---

(١) أحمد أمين ، ضحى الاسلام جـ ١ ص ٢٤٦

العباسية بعد عهد الواثق ، وضعف صلاتها بالخلافة العباسية، ثم انقطاع هــذه الصلات تقريباً فى ظل التناحر العنصرى من ناحية والحكم الإسماعيلى من ناحية أخرى . وقد رحل المؤرخ المسعودى إلى السند فى مستهل القرن الرابع الهجرى. ولم يرد فى وصفه البلاد أية إشارة إلى حركة علمية مزدهرة أو إلى علماء ذوى فضل ونباهة ذكر(١) .

وامتد أثر الهنود خارج حدود بلادهم وأسهموا فى الحياة الإسلامية العامة . وقد اتخذ هـذا الإسهام مظاهر متعددة ، فالسبى الكثير من الهند الذى وقع فى أيدى العرب الذين لم يكفوا عن الغزو والتوسع حتى عهد المعتصم . لهذا انتشر السبايا فى البلاد الإسلامية كلها وأصبح الدم الهندى من الدماء الكثيرة التى أسهمت فى تكوين المجتمع الإسلامى وتكوين جيل من العرب المولدين أمهاتهم من السند . ولعل البارزين منهم كان يدفعهم هذا النسب الهندى إلى مزيد من الاهتمام بأمور تلك البلاد والوافدين منها .

أما الأسرى الكثيرون الذين جلبوا من السند بعد أن غنموا فى الحرب ووزعوا على الجند فقداعتنقوا الإسلام ، ونالوا العتق، وارتبطوا برابطة الولاء بالأسرات العربية ، ثم أقبلوا على الثقافة العربية فبرعوا فيها ، وجمعوا بين الخصلتين العربية والهندية . وقد نبغ من هؤلاء الموالى السنديين الشاعر أبو عطاء السندى الذى شهد الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية . وكان أبوه سنديا لا يعرف العربية ، أما أبو عطاء فضرب فى فن الشعر بسهم وافر رغم احتفاظه باللكنة الهندية فى النطق والحديث(٢) . وقد مدح المنصور، ولم يظفر بتشجيع العباسيين لأنه قال شعراً كثيراً فى مدح بنى أمية .

وبرع من هؤلاء الموالى المجلوبين من السند أيضا فى علوم اللغة ابن الأعرابى وكان أبوه زياد عبداً سنديا . وكان ابن الأعرابى من أعلام اللغة، ومن أغزر اللغويين إنتاجا حتى لقد قيل أن مؤلفاته كانت تحمل على إبل لكثرتها . ولم

(١) المسعودى ، مروج الذهب جـ ١ ص ٣٧٦-٣٧٩ .

(٢) انظر ترجمة فى الأغانى جـ ١٦ ص ٨١ وطبقات الشعراء لابن قتيبة .

يبق من كتبه إلا كتاب فى أسماء البشر وصفاتها وكتاب فى أسماء الخيل وأنسابها. كما ألف كتابا سماه كتاب الأنواء (١) . واشتهر فى علوم الحديث منهم أبومعشر نجيح السندي صاحب المغازى وقد سمع نافعا وتقرأ من التابعين .

وثمة فريق آخر من الهنود لم يذكر شيء عن أصلهم الأول وأغلب الظن أنهم من أهل السند المسلمين الذين شدوا الرحال إلى عاصمة الدولة للاستزادة من العلم أو للإفادة من الحركة الإسلامية الدافقة التى ظهرت فى العصر العباسى الأول.

وقد تخصص مترجمون منهم برعوا فى اللسانين العربى والسنسكريتى واشتغلوا بالترجمة من السنسكريتية إلى العربية ، ومن أشهرهم الفزارى الذى ترجم كتابا فى الفلك (٢) . وقد ترجمت معارف كثيرة عن الهندية على يد هؤلاء الهنود المتخصصين، ولابد أن أعدادهم قد تزايدت وحركتهم قد اشتدت فى عهد المأمون. وممن اشتهر بالطب من أهل السند ـ ولم يرد ما يدل على أنه كان من الموالى ـ صالح بن بهلة الهندى . وقد ورد أبوه بهلة على العراق وأقام بها ثم اعتنق الإسلام وأنشأ ابنه صالح عارفا بالطب خبيراً بلسان العرب (٣) .

وبدأ كثيرون من الهنود غير المسلمين يرحلون إلى بغداد عاصمة الخلافة إما حبا فى الرحلة وإما عرضا لما عندهم من علم أو بناء عن استدعاء من الخلفاء. وقد جاء وفد من الهند فى عهد المنصور سنة ١٥٤ ﻫ ، وبينهم رجل ماهر فى معرفة حركات الكواكب وحسابها وسائر أعمال الفلك على مذهب علماء الهند واسمه برهيكميت، وكلفه المنصور بإملاء مختصر لكتابه، وأمر بترجمته إلى اللغة العربية وعمل منه زيج استخدمه العرب حتى عهد المأمون (٤) .

كذلك وفد كثيرون من الأطباء ، اشتهر منهم فى عهد الرشيد صالح بن بهلة الهندى الذى أشرنا إليه. ويروى الجاحظ أن يحيى بن خالد البرمكى جلب أطباء من

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ١ ص ٢٤٤ .

(٢) ضحى الإسلام جـ ١ ص ٢٥٥ .

(٣) القفطى : أخبار الحكماء ص ٢١٥ .

(٤) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ١ ص ٢٥٠ .

الهند مثل (منكه) وبازكير وقليرقل وسندباذ (١) . وكان هؤلاء الأطباء يحملون معهم كتبا وصحفا فى مواضيع شتى . وكان العلماء يخالطونهم ويسألونهم فى مختلف المسائل (٢) .

ومن حسن الحظ أن الثقافة السندية التى عاصرت العباسيين وأفادوا منها بالصورة التى سنبينها كانت لاتزال تجتر الكثير من مظاهر النهضة التى وضحت منذ العصر الكبتى الثانى ومنذ حكم الملك هرشا . هـــذه النهضة التى جددت البرهمية القديمة ونشأت برهمية جديدة تتصدى للبوذية وتنافسها . وصحب ذلك حركة علمية عميقة الجذور، لم تغب عن أنظار الرحالة من أهل الصين الذين زاروا الهند ، إما فى عهد آل كبتا كما فعل فاهيان وإما فى عهد هرشا كما فعل هيوان تسنغ . والرحالة فاهيان استرعى نظره ما رآه بالهند من مدارس وجامعات (٣) خصوصاً جامعة تكسيلا فى مدرستها الطبية المشهورة . والحق أن الهند حفلت بالجامعات القديمة التى ذاع صيتها فى العالم كله مثل جامعة يوجين الفلكية وأجانتا الطبية وبنارس البرهمية ونالانده البوذية (٤) . كذلك أشار الرحالة هيوان إلى النهضة التعليمية العظيمة (٥) وإلى الجامعة البوذية الكبيرة التى أشرنا إليها حيث كان يتلقى العلم بها نحواً من عشرة آلاف طالب ، وكانت مفتوحة الأبواب أمام جميع الأجناس والديانات . وكانت هناك جامعة أخرى فى فلا بنهى . وقد برع بعض الملوك فى الأدب ، فكان هرشا نفسه أديبا مرموقا كتب فى الأجرومية السنسكريتية ونظم الشعر وألف القصص ، وقد بقيت ثلاث من مسرحياته . وقد انتعشت الثقافة الهندية انتعاشا عظيما فى عهد هرشا ، فقد كان عهده عهد سلام وطمأنينة ، وأصبحت السنسكريتية لغة الأدب . وفى العصر الكوبتى عاش شاعر الهند العظيم كاليداسا (٦) . ويقال إن قصيدته الشهيرة « ميغادوتا » قد ألفت فى

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ١ ص ٥٩ .

(٢) Price p. 75—76.

(٣) الساداتى جـ ١ ص ٤٤ .

(٤) Price p. 82,

(٥) Price p. 76.

(٦) Price p. 76.

عصر شندرا كوبتا الثانى ، كما نسبت إليه أعظم قصة فى الأدب الهندى القديم ؛ وحفل الأدب الهندى بالكثيرين من أمثاله .

وتطورت علوم الديانة والفلك وظهر أعظم الرياضيين فى أهاماهيرا . وكان الفلكيون الهنود قد سبقوا إلى إثبات دوران الأرض حول محورها ، وأعلنوا عن كرويتها ، وعللوا أسباب الكسوف والخسوف والانقلابين والاعتدالين فى الفصول الأربعة . كما قسم الفلكيون الهنود السنة إلى اثنى عشر شهراً(١) ، وكل شهر إلى ثلاثين يوما ، وحسبوا بدقة بالغة مواقع النجوم وقوانين الجاذبية ، كما ابتكروا فكرة السلبية فى الجبر وعالجوا الجذور وقواعد التبادل والتوافق . وأحاط الأطباء منهم بتشريح الجسم ووظائف الأعضاء والأنسجة ، كما استخدموا ضروبا من المخدر استعانوا بها على الجراحة(٢) . كذلك ظهر أعلام الفلسفة الهندية ونذكر منهم سانكارا ورامانوجا (٣) . وظهر العلماء الموسوعيون الذين برعوا فى الشعر والبلاغة والفلسفة والفلك والعمارة والطب والكيمياء والموسيقى والفنون .

وقد شرع العلماء المسلمون ـ بعد أن ترجمت المعرفة الهندية وأسهمت فى تكوين الفكر الإسلامى ـ فى وصف هذه الثقافة والحديث عن أصالتها والإشادة بفضلها على الفكر العربى ؛ فقال الجاحظ « اشتهر الهند بالحساب وعلوم النجوم وأسرار الطب والخراط والنجر والتصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة » (٤) . وذكر المسعودى أن الهند « كانت فى قديم الزمان الغرة التى فيها الصلاح والحكمة » وأدرك مكانتهم فى الإلهيات والرياضة فقال « والهند فى عقولهم وسياستهم وحكمهم وألوانهم وصفائهم وصحة أمزجتهم ومضاء أذهانهم ودقة نظرهم بخلاف سائر السودان(٥) » . وقال الأصفهانى فى محاضرات الأدباء « إن الهند لهم معرفة بالحساب والخط الهندى وأسرار الطب وعلاج فاحش الأدواء » وقال القفطى(٦)

(١) المسعودى : المروج ج ١ ص ١٤٩ .
(٢) الساداتى ج ١ ص ٤٥ .
(٣) Advanced Hist. of India p. 210.
(٤) رسائل الجاحظ ص ٧٣ .
(٥) انظر الباب السابع من كتاب مروج الذهب ج ١ ص ١٤٨ — ١٧٨ .
(٦) ص ٢٢٦ .

«والهند هم الأمة الأولى كثيرة العدد ضخمة الممالك ، قد اعترف لها بالحكمة وأقر بالتبريز — فى فنون المعرفة — كل الملل السابقة » . وقد وصف البيرونى ديانة الهند وصفاً دقيقا . وكان عالما بالسنسكريتية عاش فى الهند زمنا طويلا وخبر أحوال أهله ، وألف فى ذلك كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة » .

فما هو الأثر الذى تركته هذه الثقافة الهندية فى الثقافة العربية الاسلامية؟ كان تأثير الهند فى نواح أهمها : الرياضيات والحساب والنجوم والإلهيات والأدب والطب . ففى العلوم الرياضية والفلك والحساب أخذ المسلمون عن الهند قبل اتصالهم الوثيق بالفكر الإغريقى . ففى سنة ١٥٤ هـ قدم بغداد رجل هندى متضلع فى العلوم الرياضية ، ومعه رسالة فى الفلك تدعى « سدذانتا » واسمها « السند هند » فترجمها محمد بن إبراهيم الفزارى بأمر المنصور واتخذها العلماء مثالا يحتذونه (١) .

واطلاع العرب على السند هند كان بداية لتطور هام فى تاريخهم . وقد تعلم العرب الأرقام الهندية من ترجمتهم كتاب السند هند ، إذ يحتوى البابان الثالث عشر والعشرون منه على بسط وبيان تلك الأرقام المعروفة عند العرب «بالأرقام الهندية » وعند الإفرنج «بالأرقام العربية» ، لأنهم أخذوها من عرب الأندلس.

على كل حال استطاعت الهند أن تمد العرب بأفكار جديدة كما أمدها العرب بأفكار لم تكن موجودة عندهم . فقد اغتنم البيرونى فرصة إقامته الطويلة بين الهندوس فتبادل معهم معارف مدرسة بغداد وتقاليد الهند القديمة والحديثة .

كذلك ترجم العرب كتابين آخرين فى علم الهيئة هما « الأرجبهر » و « الأركند » نقل الأول أبو الحسن الأهوازى والثانى يعقوب بن طارق فى سنة ١٦٢ هـ (٢).

وقد أخذ العرب الاصطلاحات الرياضية من الهنود ، كلفظة « الجيب » فى

---

(١) حتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٤٥٦-٤٥٨ .
(٢) أحمد أمين ضحى الإسلام جـ٢ ص ٢٦٣ .

حساب المثلثات ، كما اقتبسوا كثيراً من نظريات الهند فى الحساب والهندسة . كذلك شرح أحمد النسوى فى كتاب « المقنع فى الحساب الهندى » قسمة الكسور واستخراج الجذور المربعة فى طريقة تقرب من الطريقة الحديثة . واعتمد فى ذلك على الأرقام الهندية .

ومن المبرزين فى الرياضة والفلك عند العرب ممن تأثروا بالثقافة الهندية محمد بن إبراهيم الفزارى ، وهو أول من عمل أسطرلابا فى الاسلام ، كما نقل «السند هند» إلى العربية ، ومحمد بن موسى الخوارزمى وهو أبرز شخصية فى تاريخ الرياضيات القديمة عند العرب . وقد وضع كتاب « حساب الجبر والمقابلة(١) » . وما من عالم بالفلك من علماء المسلمين أراد التوسع فى علم النجوم والرياضيات إلا وطالع الكتب الهندية . وأكثر المسلمين عناية فى ذلك وأكثرهم اطلاعا على آداب الهند وعلومهم محمد بن أحمد البيرونى الذى طوف بالهند واطلع على علومهم وآدابهم ونقد كتبهم ، فقال فى كتابه تحقيق ما للهند من مقوله «إنى ما أشبه ما فى كتبهم من الحساب ونوع التعاليم إلا بصدف مخلوط بخزف أو بدر ممزوج ببعر أو بمهى معطوب بحصى ، والجنسان عندهم سيان ، إذ لامثال لهم لمعارج البرهان » . وقد ألف البيرونى كتبا كثيرة منها « الآثار الباقية » و«جوامع الموجود فى خواطر الهنود فى حساب التنجيم » وكتاب فى المدارين المتحدين والمتساويين ويسمى « خيال الكسوفية عند الهند » وعمل تذكرة فى الحساب والعد بأرقام السند والهند فى ثلاثين ورقة ، كما هذب زيج الأركند(٢) .

ومن العلوم التى نقلها العرب عن الهند الإلهيات أو المقالات الدينية أو الفلسفة الدينية . وكان للهند فلسفة تختلف عن الفلسفة اليونانية ، فالأولى امتزجت امتزاجا تاما بالدين ولم تتدرج من المحسوس إلى المعقول ، ولم تنهج النهج العلمى الذى يتطلب التعبير بالحقائق إلا بالمجاز ، بخلاف الأخرى فإنها حاولت جهد طاقتها أن تعبر التعبير العلمى . الأولى حددت الغرض من الفلسفة بأنه خدمة

---

(١) حتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٤٦٣ .

(٢) حتى : تاريخ العرب ج ٢ ص ٤٦٠ .

الإنسان ، أما الثانية فكانت تطلب المعرفة المعرفة(١) .

وقد أطال البيرونى فى وصف الفلسفة الدينية للهند ، من الاعتقاد بالله والموجودات العقلية والحسية ، وتعلق النفس بالمادة والأرواح وتناسخها ، ومواضع الجزاء من الجنة والنار وكيفية الخلاص من الدنيا ، ومنبع السنن والنواميس والرسل ونسخ الشرائع . وقارن فى كثير من المواضع بين عقائد الهند والإسلام والصوفية والنصرانية والفلسفة اليونانية والأفلاطونية الحديثة(٢) .

ومن خواص الهند التى تركت أثراً كبيراً فى المسلمين مسألة «تناسخ الأرواح» . قال البيرونى «كما أن الشهادة بكلمة الإخلاص شعار إيمان المسلمين والتثليث علامة النصرانية والإسبات علامة اليهودية ، كذلك التناسخ علامة النحلة الهندية ، فمن لم ينتحله لم يك منها ولم يعد من جملتها(٣)» . وقد لعبت نظرية التناسخ دوراً هاما فى الفلسفة اليونانية وفى الديانات المانوية وفى التصوف والنصرانية . كما أن كثيراً من عقائدهم فى الحلول ووحدة الوجود دخلت فى التصوف الإسلامى . وقال صاحب الفخرى عن الراوندية أنهم قوم من أهل خراسان كانوا يقولون بتناسخ الأرواح ويزعمون أن روح آدم انتقلت إلى رجل من كبارهم .

ومن مذاهب الهند القائلة بالتناسخ مذهب السمنية نسبة إلى «سومنات» وهو اسم صنم . وقد عرف علماء المسلمين السمنية وناقشوهم طويلا فى كتب التوحيد أو علم الكلام ، وأكثر مناقشتهم كانت حول نظرية المعرفة(٤) .

وقد لخص صاحب كشاف مصطلحات الفنون مذهبهم هذا بقوله «إنهم يقولون بأنه لا يفيد العلم إلا الحس» وبهذا يكونون قد سبقوا لوك ومن تبعه ، إذ يقولون «إن أداة المعرفة الصحيحة هى الإدراك بالحس ، وكل الأفكار الجليلة الراقية التى تفوق السحاب رفعة وتعلو علو السماء إنما أصلها الحواس . يسبح العقل مسافات بعيدة ويفكر ويتأمل تأملات رفيعة وهو فى كل هذا لا يخرج

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٤٦-٢٤٧ .
(٢) ضحى الإسلام ج ١ ص ١٤٩ .
(٣) البيرونى ص ٢٤ .
(٤) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٥٤ .

قيد شعرة عما أمدته به الحواس أو التأمل(١) . وهم يعارضون فى ذلك نظرية الذهنيين أو العقليين الذين يرون أن بعض المدركات ليس سببها الحواس إنما سببها الإدراك العقلى المحض، كما فى الرياضيات أو الإلهيات . وقد أثر أن السمنية كانوا يقولون « إن العلم أو المعرفة لا تحصل إلا من باب الحواس فكل علم ليس أساسه الحس لا يكون علما صحيحا ، أما النظر المجرد غير المؤسس على الحس فلا يفيد علما سواء كان ذلك فى الإلهيات أو غيرها » . وللبيرونى فى المعتقدات الدينية الغريبة وخاصة فى الأديان الهندية آراء ، فقد أدرك أن المعتقدات الدينية مردودة لأسباب واحدة فى كل مكان . وكان يهتم بالفرق بين دين الخواص ودين العوام ولا يعترض ولا ينقد حينما يشرح العقائد الدينية، بل يحافظ ما أمكن على العبارات التى يستعملها معتنقو كل دين ، وإذا قارن دينا بدين آخر فإنما يقارنهما مقارنة علمية محضة .

ومن العلوم التى ازدهرت فى بغداد الطب ، فقد كان فيها أطباء هنود يمثلون الطب الهندى بجانب الطب اليونانى . وكان قصب السبق فى هذا الميدان ليحيى ابن خالد الذى نشأ فى بلاد قشمير وتعلم هناك « النجوم والطب» وأنواع الحكمة. وهو الذى جلب من الهند علماء وأدباء أمثال بهلة ومنكة وسندباد الذين أقاموا ببغداد، وربما أسلم بعض أولادهم مثل صالح بن بهلة ، وهم الذين عرفوا العرب الطب والبلاغة .

على أن أهم ما ينسب إلى يحيى بن خالد أنه بعث رجلا إلى الهند ليأتيه بعقاقير موجودة فى بلادهم وأن يكتب له فى أديانهم . والتقرير الذى وضعه هـذا المبعوث ظل المرجع الذى اعتمد عليه العرب طيلة قرنين حتى ظهور أبى الريحان البيرونى . وقد أشار ابن النديم إلى ذلك بقوله « الذى عنى بأمر الهند فى دولة العرب يحيى بن خالد وجماعة البرامكة ، واهتمامهم بأمر الهند وإحضارهم علماء طبها وحكمائها . . هو مبعث هذه النزعة إلى الهند وعلومها فى نفوس البرامكة » وقال ابن النديم أيضا « إن بلخ من إقليم خراسان وما وراء

---

(١) ضحى الإسلام جـ ١ ص ٢٥٤ .

النهر ، كان أكبر ما وراء النهر قبل الإسلام على هذا المذهب أي البوذية(١) » .
كذلك ذكر ابن النديم أن يحي أمر بتفسير كتاب (سمرد منكه) الهندى فى البيمارستان . ولم يقتصر فضله على الطب ، إنما امتد إلى مختلف فروع النهضة الثقافية . ومن أشهر أطباء الهند فى عهد الرشيد صالح بن بهلة الهندى(٢) . قال جعفر بن يحي البرمكى لهارون الرشيد وقد مرض ابن عمه ابراهيم بن صالح ، فرآه جبريل بن بختيشوع وأخبر الرشيد بأنه لا أمل فى شفائه وسيموت فى المساء : يا أمير المؤمنين جبريل طبه رومى وصالح ابن بهلة الهندى فى العلم بطريقة أهل الهند فى الطب مثل جبريل فى العلم بمقالات الروم . فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بإحضاره ويوجهه إلى إبراهيم بن صالح يفهمنا عنه فعل(٣) » .
وقد شفى إبراهيم بن صالح على يد صالح بن بهلة الهندى ومنحه الرشيد جائزة سنية وقربه إليه(٤) .

ومن أشهرهم أيضا منكه الذى قدم إلى بغداد ونجح فى علاج الخليفة وحظى عنده وبقى يشرف على نقل الكتب من اللغة السنسكريتية إلى العربية . ومنهم أيضا صنجهيل وباكهر وغيرهما وقد نقلت كثير من مؤلفاتهم فى النجوم والطب إلى اللغة العربية رأسا أو نقلت إلى الفارسية ومنها إلى العربية ، مثال ذلك كتاب سيرك الهندى، فقد نقله من الفارسية إلى العربية عبد الله بن على وكتاب آخر فى علامات الأدواء ومعرفة علاجها أمر يحي بن خالد البرمكى بترجمته . وكتاب آخر فيما اختلف فيه الروم والهند فى الحار والبارد ، وقوى الأدوية ، وكتب أخرى فى الطب .

ومن مشاهير الهنود شاناق، وله كتاب فى السموم من خمس مقالات نقله من السنسكريتية إلى الفارسية منكه الهندى ، وأوعز يحي بن خالد إلى رجل يعرف بأبي حاتم البلخى بنقله إلى العربية . ولجودر الحكيم كتاب فى المواليد نقل إلى العربية أيضا .

---

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام جـ١ ص٢٥٤ .
(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام جـ ١ ص ٢٥٤ ؛ القفطى ، أخبار الحكماء ص ٢١٥ .
(٣) أحمد أمين: ضحى الإسلام جـ ١ ص٢٥٤ .
(٤) أحمد أمين: ضحى الإسلام جـ١ ص٢٥٨ .

ومن العلوم التى تأثرت بالثقافة الهندية الأدب ، فقد كان عند الهنود نحو وصرف وشعر . وكان للهنود ولع بالشعر والنظم، حتى شكا البيرونى من نظمهم لقواعد الرياضة والفلك ، لأن ذلك يخرجهم أحيانا عن ضبط القواعد وما يستلزم ذلك من دقة فى التعبير لا يتسنى فى النظم . ووضعوا للشعر بحوراً وأوزانا عكف البيرونى على دراستها وبينها فى كتابه ثم قال « ومن الممكن أن يكون الخليل بن أحمد سمع أن للهند موازين فى الأشعار كما ظن به بعض الناس(١) » .

وقد استفاد الأدب العربى من الهند أموراً منها : إن ألفاظا هندية عربت، وقد كان ذلك أيام العرب الذين تاجروا مع الهند ونقلوا سلعا هندية وحملوا مع هذه السلع أسماءها. وهناك ألفاظ هندية عربت ووردت فى القرآن ، مثل زنجبيل وكافور والأبنوس والببغاء والخيزران والفلفل والأهليلج ، وغير ذلك من أسماء النباتات والحيوانات الهندية(٢) .

يضاف إلى ذلك آراء فى الأدب والبلاغة نقلت عنهم ، فالذين أتوا بغداد من الأطباء الهنود جلبوا معهم كتبا فى موضوعات غير طبية . وكان العلماء يخالطونهم ويسألونهم فى جميع المسائل . وكان هناك تراجمة يترجمون من السنسكريتية إلى العربية . وكان عند العرب شغف لمعرفة ما عند كل أمة من جديد فى العلم . وقد اقتبس البلاغيون من الهنود ما أسموه « بمقتضى الحال(٣) » . وقارن التنوخى(٤) بين بلاغة الهند وبلاغة العرب فقال بأن الأولى مطنبة مسهبة والثانية مختصرة موجزة .

وتأثر العرب بالقصص الهندى وأولعوا به. وكان كليلة ودمنة هندى الأصل نقل إلى الفارسية ثم نقل من الفارسية إلى العربية مع زيادات على الأصل الهندى . وعندما نظم إبان بن عبد الحميد اللاحق كليلة ودمنة افتتحه بقوله :

هذا كتاب أدب ومحنة ⁂ وهو الذى يدعى كليلة ودمنة

---

(١) البيرونى ص ١٨ .
(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ١ ص ٢٥٨ .
(٣) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ١ ص ٢٦٩ .
(٤) نشوار المحاضرة جـ ١ ص ٥٢٧ .

فيه احتيالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند

وقصة السندباد هندية الأصل نقلت إلى العربية . وذكر ابن النديم فى الفهرست كتباً كثيرة للهند فى الخرافات والأسفار والأحاديث ، منها كليلة ودمنة والسندباد الكبير والسندباد الصغير ، وكتاب هابل فى الحكمة ، وكتاب الهند فى قصة هبوط آدم ، وكتاب حدود منطق الهند ، وكتاب ملك الهند القتال والسياح ، وكتاب شاناق فى التدبير . وكتاب بيدبا فى الحكمة(١) .

كما أن فى كتاب ألف ليلة وليلة قصصا دل البحث على أن أصلها هندى ، هذا إلى قصص صغيرة تناثرت فى الكتب العربية وأغلبها نقل عن الهنود(٢) .

وقد أخذ العرب عن الهنود الكثير من الحكم وهو فن يتفق والذوق العربى ، لكنه أشبه بالأمثال العربية ، وجملها القصيرة ذوات المعانى الغزيرة التى أحبها العرب ، فهى حصيلة تجارب كثيرة ركزت فى جملة بليغة ، والعقل يميل إليها قبل أن يميل إلى مثل الفلسفة اليونانية المنظمة فى أبواب وفصول وموضوعات ، فالبحث العميق المفصل المتسلسل لا يصل إليه العقل إلا بعد أن يمر بطور يعجب فيه بالنظرات المنشورة والحكم المأثورة(٣) ، وقد شاعت هذه الحكم الهندية فى مؤلفات العصر . وصاحب كتاب سراج الملوك فعلا فى حكم شاناق الهندى يتضمن نصحا للملوك والولاة بالعدل فى الرعية مع ضرب الأمثال ، وقال « إن هذا الفصل مأخوذ من كتاب لشاناق اسمه منتحل الجواهر(٤) » .

وتأثر الأدب العربى بأقوال الهنود فى علم الطبائع ، فقال أبو نواس :

سخنت من شدة البرودة حتى جرت عندى كأنك النار
لا يعجب السامعون من صفتى كذلك الثلج بارد حار

قال ابن قتيبة ، وهذا الشعر يدل على نظرة فى علم الطبائع ، لأن الهنود يزعمون

---

(١) الفهرست ص ٣٠٥ .
(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٦١ .
(٣) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٦١-٢٦٢ .
(٤) سراج الملوك ص ٢٣١ .

أن الشيء إذا فرط فى البرد عاد حارا مؤذيا(١)، كما تأثر الشعراء بأقوال الهنود فى الفلك ، فقال أبو نواس فى الخمر :

تخيرت والنجوم وقف   لم يتمكن بها المدار

ولا يفوتنا أن نذكر أن الهنود هم واضعو الشطرنج ومنهم انتشر فى العالم ومنهم أخذه المسلمون . وانتشرت هذه اللعبة عند المسلمين . وقد أهدى هارون الرشيد شطرنجا إلى شارلمان إمبراطور الفرنجة ، واشتهر قوم بلعبه حتى نسبوا إليه، مثل الصولى الشطرنجى وأبى حفص الشطرنجى . وتكون حوله أدب فارسى وأدب عربى والفردوسى نظم فيه صفحات فى شعر جميل ، ونظم العرب فيه الشعر الجيل ، ونظم ابن الرومى قصيدة فى أبى القاسم التوزرى الشطرنجى(٢) .

الدور الطوراني :

كانت فتوح محمود الغزنوى المتتابعة فى الهند فيصلا فى تاريخ الحضارة الإسلامية فى تلك البلاد ، فقد كانت إنهاء للدور العربى القديم وبداية للدور الجديد، هو الدور الطورانى أو التركى الأفغانى . ونشأت مقومات جديدة ساعدت على هذا التغير وخلقت مجتمعاً إسلامياً جديداً قد يختلف فى كثير عن مقومات المجتمع الهندى فى الدور السابق .

من هذه المقومات ما يتعلق بالعنصر الجديد الذى حمل الإسلام إلى الهند ، فقد حمله العنصر التركى الذى أسلم حديثاً وتحمس للإسـلام وانفعل به ذلك الانفعال غزير النبع الذى أشرنا إليه . كذلك حمل هذا العنصر المتحمس الإسلام عامة والمتمسك بأهداب السنة خاصة معه التقاليد الإسلامية التى هى أميل إلى التزمت منها إلى السماحة العربية القديمة . ولم تعد لغة التعبير الإسلامى هى عربية الأمس ، إنما أصبحت الفارسية الجديدة التى ظهرت فى حجر الدولة الغزنوية . وقد فتح هؤلاء الأتراك الأفغانيون السبيل إلى تدفق المتصوفة الفرس والترك . وكان العنصر التركى من ذلك الجيل قد أشرب الإسلام مع النزعة الصوفية . ولعل فتح هذا الباب قد مكن للإسلام فى نفوس الهنود الذين تميل قلوبهم إلى

(١) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٦١ .

(٢) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ج ١ ص ٢٦١

مثل هذه النزعات الصوفية . وسرعان ما غدت الهند ـ بعد أن استقرت أحوالها، وهدأت ريح الفتنة فيها ـ موئلا لأهل العلم من المشرق الإسلامى الذين لم يطب لهم المقام فى إيران أو تركستان بسبب ما سادها من اضطرابات سياسية . وعاشوا فى الهند فى رحاب الأمراء والسلاطين بمنأى عن الفتن والاضطرابات فكانوا من عوامل إذكاء الثقافة الإسلامية فى الهند .

ولم تعد هندوكية تلك الأيام هندوكية الأمس العتيدة التى قاومت الإسلام فى عنف وحصرته فى إقليم السند الفقير وأفادت من سماحة الإسلام وإتاحته الحرية الدينية لها لتزيد انطواء على نفسها وبعداً عن التيار الإسلامى الوافد . لكن هندوكية اليوم كانت قد اختارت سبيل المقاومة العنيدة التى لا تعرف اللين ، فاصابتها الهزائم التى ذكرت وأصيبت الحياة الهندية فى الصميم ، واهتز نفوذ البراهمة . وضاعت أغلب المعابد التى كانت قد انتشرت فى شمال الهند ، وبدأت تضيع معها بعض معالم الهندوكية القديمة . فلم يكن من الطبيعى أن تقف هذه الهندوكية الجريحة فى وجه الإسلام الدافق المستند إلى حماسة الترك وروحهم المحاربة .

وفقد الفكر الهندى ذلك الينبوع القديم الذى طالما بهر أنظار العرب فى العصر العباسى الأول ، وأفادوا منه الكثير . بل اضمحل الفكر الهندى وفقد الأدب أصالته القديمة واهتزت القيم الروحية للهند ؛ وفقدت تلك البلاد إشعاعها القديم .

هذا ؛ والفتح التركى الجديد لم يقنع بإقليم السند بعد أن طردوا منه أمراءه الإسماعيلية وأخضع شمال الهند كله ، وأبقى على من أطاع من أمراء الهند . وانتشر المهاجرون الترك وأقاموا فى أغلب المدن . واحتلوا أمنع الحصون ، فكأنهم هذه المرة قد اقتحموا صميم الحياة الهندية . ولم يترك هـــذا النفوذ الإسلامى فى الهند نهباً للعزلة والضياع ، كما كان شأن السند ، إنما كانت الصلة وثيقة جداً بين أفغانستان وبلاد البنجاب والشمال الهندى . ولم يفقد السلاطين اهتمامهم بالهند رغم إقامتهم خارج حدودها فى بعض الأحيان ، فكان لهم نوابهم

الحريصون على تنفيذ سياستهم ، كما قامت سلطنات إسلامية فى حواضر هندية ، مكتسبة الكثير من مقومات الحياة الهندية .

ولم يعد للهند الإسلامية دور تؤديه خارج حدودها شبيها بالدور الذى لعبه أهل السند فى تاريخ الإسلام فى الدور السابق ، إنما أصبحت عملية الامتزاج الحضارى بين المقومات الوافدة والمقومات القديمة فى أرض الهند ذاتها .

ثم بدت فى هذا الدور ظروف أو أسباب جعلت الهند تطرح بالتدريج سياسة العزلة القديمة : وبدأت مقومات الاختلاط بين الثقافة الإسلامية الوافدة مع الترك والمقومات الهندية الأصيلة تمهيداً لظهور ما يمكن أن نسميه بالحضارة الهندية الإسلامية (١) .

من هذه الأسباب أن الإسلام ــ منتهزاً فرصة انهزام الهندوكية وضعفها وتداعى نفوذها فى شمال الهند ــ بدأ ينتشر انتشاراً على نطاق واسع . ولم يعد غزوه قاصراً على الطبقات المنبوذة وحدها ، إنما بدأ يغزو الطبقات الممتازة نفسها(٢) . واشتد ظهور جماعات المولدين التى كانت من أهم عوامل الاندماج بين التقاليد الهندية والإسلامية . وكان يشد من أزر هذا الانتشار أن انجابت هزة الجيل الأول من الغزاة الترك ، وبدأ السلاطين يظهرون مزيداً من التسامح مع شعب لم ينعم بحرية العبادة كاملة فى بلده(٣) .

ومن الأسباب الأخرى التى شدت من أزر هذا التقارب استخدام الهنود على نطاق واسع فى وظائف الدولة . لا شك فى أن الترك احتكروا المناصب الكبرى كمنصب السلطنة مثلا ، لكن سرعان ما وصل الهنود إلى أرفع المراتب فى الدولة ، فتولوا مناصب الوزارة والكتابة والقيادة . كذلك اعتمدت الحكومة فى السلم الوظيفى على أغلبية هندية واضحة ، حتى أصبحت الحكومات تركية الرئاسة فقط ، هندية فى الواقع(٤) .

---

(١) لوبون ، حضارة الهند ص ٤١٧

(٢) Advanced Hist. of India p. 201.

(٣) Rawlinson p. 200. الساداتى جـ ١ ص ٢٥٢ .

(٤) Bawlinson p. 244. Advanced Hist. p. 390

وأهم هذه الأسباب أن الهندوكية لم تستطع أن تبتلع الحضارة الإسلامية وتذيبها فى بوتقتها الهائلة ، كما أذابت الإغريق والساكا والهون من قبل . فاضطرت الهندوكية بعد استعصاء التقاليد الإسلامية على الذوبان أن تأخذ وأن تعطى(١) . وقد تأثرت الهندوكية فى الحقيقة بناحيتين نتيجة احتكاكها بالإسلام . فقد أثارت روح الإسلام التبشيرية نوعا من التزمت بين زعماء الهنادكة ، وبدأوا مرة أخرى يطورون شرائعهم لتقاوم هذا الخطر الشديد ، كما طوروها بالأمس لتتصدى للبوذية وتنتصر عليها . كذلك بدأت بعض المبادىء الديموقراطية الإسلامية تتسرب إلى الحياة الاجتماعية الدينية عند الهنود ، وظهرت حركات تحررية . وظهر كثيرون من المصلحين الذين دعوا إلى المساواة بين الأديان ووحدة العقيدة وأن قدر المرء ليس بنسبه إنما بعمله . وهاجموا الطقوس البرهمية الجافية(٢) .

ومن أمثال هؤلاء نامديو كبير ونانك ، اللذين أنكروا عبادة الأصنام والقول بتعدد الآلهة وتحريم زواج الأيامى ، وممارسة عادة الساتى والطبقية الجامدة ، وقالوا بأن الله هو رب الناس جميعهم(٣) .

وكان من أثر ذلك كله ـ مضافا إليه أن الحضارتين عاشتا جنبا لجنب القرون الطويلة كان لابد أن يوجد نوع من التقارب وأن يؤثر كل منهما فى الآخر(٤) . وقد كان كل منهما يحترم تراث الآخر وثقافته منـــذ دخول العرب الهند المرة الأولى . وبدأ الهندوس يحترمون أولياء المسلمين ـ خاصة المتصوفة منهم ـ ويحتفلون بالأعياد الإسلامية . كما بدأ المسلمون يحترمون رهبان الهند وحكماءها . كذلك أقبل المسلمون على دراسة الفلسفة الهندية بفهم جديد خاصة اليوجا والفدانتا . واستعار الفلكيون الهنود الكثير من المصطلحات الإسلامية التى نقلها عرب الجيل الأول . ونشأت اللغة الأردية التى هى خليط من الهندية والعربية والفارسية والتركية . المهم أن كلا الغالب والمغلوب تأثر بالآخر ، وتم ما يمكن أن نسميه

---

(١) Rawlinson p. 242. Advanced Hist. p. 401.

(٢) Advanced Hist. of India p. 401.

(٣) الساداتى جـ ١ ص ٢٦٣ .

(٤) Advanced Hist. p. 401.

توطن الحضارة الإسلامية فى الهند واكتسبت طابعاً هنديا مع الاحتفاظ بروحها وجوهرها .

ويمكننا أن نبين فى إيجاز معالم الحضارة الإسلامية التى ظهرت فى هذا الدور وماذا أفاد الهنود منها وإلى أى حد أسهموا فى بنائها . ومما يلاحظ مثلا أن المجتمع الهندى قد تأثر بعمق بعادات الأتراك القادمين وتقاليدهم ، فشاعت الأزياء الإسلامية واحتفل الناس بأعياد المسلمين ومواسمهم(١) ، وانتشر الحجاب بين الطبقات العليا من الهنود الذين بقوا على دينهم . كذلك أفاد المجتمع الهندى من الحرب الطبقية التى أعلنها الأتراك المسلمون على الطبقية الجامدة . وتحرر الكثيرون من أفراد الطبقة المنبوذة . وفتحت أمامهم آفاق العمل السياسى والاقتصادى . واختلطت دماؤهم بدماء المسلمين الوافدين . ولعب المولدون دورا بارزا فى الحياة الاجتماعية ، وإن كانوا قد احتفظوا ببقية من تقاليد الهند القديمة . وقد ظل كثيرون منهم يأنفون من أكل لحوم البقر أو الزواج من الأيامى(٢) . واستطاع الإسلام أن يخفف من غلواء الكثير من الانحرافات الاجتماعية التى شاعت فى بيئة الهند وذلك بابطال بدعة عدم الزواج من الأرامل وتحريمه بدعة الساتى .

وجلب الوافدون معهم التقاليد الإسلامية الموروثة فى نظم الحكم . وكانت السلطنات التى نشأت فى الهند تقليداً للسلطنات الأخرى التى عرفتها الحياة الإسلامية ، فحافظوا على نفس التقاليد فى الولاية على البلدان والتنظيم الإدارى . فكانت الأقاليم الكبرى يعهد بها إلى نواب السلطان . وكانت الولاية تقسم إلى أقسام أصغر يتولاها المقطع أو العامل ثم الشقدار . وكانت لنائب السلطان نفس السلطات الإدارية التى كانت للسلطان . كذلك حافظوا على نفس التقاليد التى عرفها المجتمع الإسلامى عن النظم المالية ، فطبقت السلطنات فقه أبى حنيفة فى الأموال . وكانت أهم الإيرادات من الخراج وخمس الغنائم والجزية على غير المسلمين والعشور والصدقات . ونظم ديوان الخراج على مألوف التقاليد الإسلامية . فكان هنالك

(١) Rawlinson p. 244.

(٢) Rawlinson p. 244

عامل الخراج الذى يسمى مستوفى ممالك ، ويشرف على مستحقات الدولة وخازن بيت المال . وعرفت الحكومات الإسلامية منصب صاحب ديوان الجند وأمير البحر . واعتمد التنظيم العسكرى على الإقطاعية العسكرية التى عرفها أتراك القرن الرابع الهجرى . وكان الجيش الإسلامى فى الهند يتألف من حرس السلطان وجيش الحضرة والفرق والهندية ، ثم جيوش المقطعين التى يجندونها كلما حدث اشتباك مسلح .

ولم تختلف النظم القضائية كثيراً عما عرفته الحياة الإسلامية . فكان هنالك قاضى القضاة يساعده بعض القضاة الأصاغر ويسمون بالمفتين ، ثم المحتسب وصاحب الشرطة ــ ويسمى الكتوال ــ وصاحب البريد . هذا النموذج من الحكومة ذات السلطات السياسية والدينية وذات الطابع العسكرى الإقطاعى أصبح النموذج المثالى فى نظام الحكم الذى يحقق الإدارة الناجحة والحكومة المستقرة ويرضى جماهير الناس ، فكان فى نظر الهنود من المسلمين وغيرهم النموذج الصالح فى الحكم . وقد قلدته الإمارة الهندوكية خاصة إمارات الراجبوت(١).

وقد شهدت الحياة الاسلامية فى الهند نشاطاً خصباً للأدب الفارسى ، بدأ بفاتح الهند محمود الغزنوى الذى امتلأ بلاطه بالشعراء والمؤرخين ، منهم البيهقى والعتبى وأبى الريحان البيرونى والفارابى ؛ ونهج خلفاؤه على منــــواله . وأصبحت اللغة الفارسية لغة البلاط فى سلطنات الهندية الإسلامية . شهدت الهند ظهور مدرسة قوية للأدب الفارسى هى مدرسة دلهى التى عملت على تشجيع الأدب الفارسى وإذاعته بين الناس ، وأصبحت دلهى فى مستوى بخارى وسمرقند . وشجع الملوك أدباء الفرس الذين رحلوا إلى الهند . كما أنشأ الملوك المدارس والمكتبات(٢).

هذا ، وكانت لغة التأليف والكتابة هى الفارسية ، وألف خسرو الدهلوى مؤلفاته بالفارسية مثل إعجاز خسروى وخزانة الفتوح . وعاصر الدهلوى بدر الدين المعروف ببدر شاخ والقاضى عبد المقتدر الشانهى . واشتهر من كتاب النثر مولانا خواججى وأحمد تنيسرى وعين الملك الملتانى . ومن المؤرخين أبو عمر عثمان منهاج السراج صاحب طبقات ناصرى ، وضياء الدين بارنى صاحب

---

(١) Advanced Hist. of India p. 396

(٢) Ibid p. 409

تاريخ فيروز شاه . واشتغل كثيرون بالحكمة والفلسفة والفقه ، مثل القاضى شهاب الدين الدولتابادى ، والفقيه إله داد والفيلسوف مغيث حسنوى(١) . وبذلك نافست مدرسة داهى القاهرة وبغداد(٢).

ويبدو أن النهضة الفارسية لم تشمل المسلمين فحسب ، بل كانت من العمق والقوة بحيث شملت الهنود أنفسهم ، وبدأ بعض الكتاب الهنود يكتبون بالفارسية كما فعل بانامال(٣).

وقد نشأت اللغة الأردية من أثر ذلك الاختلاط بين المؤثرات الفارسية والهندية، فهى من لهجات غرب الهند المختلطة بمفردات عربية وفارسية وتركية(٤)، ثم انتقلت إليها النهضة الأدبية فكتب المسلمون بالأردية عن تقاليد الهند وحياتها كما فعل ملك محمد جياشى(٤) . كذلك نظم الهنود الشعر بها(٥).

واشتدت العناية بالأدب السنسكريتى . ومن أجل التفاهم المشترك بين المسلمين والهنود بدأ الأدب السنسكريتى يلخص ويدرس فى بلاط الملوك. ونظم المسلمون الشعر بالسنسكريتية كما فعل خسرو الدهلوى « غريد الهند » ، فألف ديوانا بهذه اللغة وكان يترجم للشيخ نظام الدين أوليا . وبدأت حركة الترجمة من السنسكريتية إلى الفارسية . وكان المسلمون فى الهند هم الذين قاموا بها ، فلما ظفر فيروز تغلق بمكتبة سنسكريتية فى حصن نكركت عهد إلى عز الدين خالد خانى بأن ينقل إلى الفارسية كتب الفلسفة والفلك . وتعرف هذه المجموعة باسم دلائل فيروز شاه ، كما نقلت كتب طبية سنسكريتية إلى الفارسية، وكذلك أقسام من المهابهارتا ، وغيرها من الكتب الدينية والتاريخية القديمة(٦).

وقد جلب الترك معهم تأثيرات جديدة فى الفن والعمارة ، كالعقود والقباب والمآذن. واختلطت هذه التأثيرات بالفن الهندى، فقد استعان السلاطين بالفنانين

---

(١) الساداتى ج ١ ص ٢٦١ — ٢٦٢ .

(٢) Advanced Hist. of India p. 409

(٣) Ibid p. 402

(٤) Rawlinson p. 144

(٥) Advanced Hist. of India p. 402

(٦) Advanced Hist. of India p. 412

الهنود الذين استخدموا نفس الأساليب التي شاعت فى بلادهم . وكانت بعض المساجد تنشأ من بقايا المعابد الهندوكية والجينية ، كما كانت بعض المعابد تحول إلى مساجد(١) .

ولعل مما أحدث هذا التقارب بين الفنين ما بينهما من تشابه كبير . فالمعابد الهندوكية والمساجد الإسلامية تتفق فى أن كلا منها به صحن كبير تحيط به بوائك الأعمدة(٢) . وثمة حقيقة أخرى هى أن الفن الإسلامى والهندى فنون زخرفية ، الزخرفة حيوية لها(٣) .

على كل حال كان الفن الهندى الإسلامى خليطاً من الطرز الهندية والإسلامية . يقول السير جون مارشال « إن الفن الهندي الاسلامى ليس صورة محلية من الفن الإسلامى، وليس صورة معدلة من الفن الهندى ، إنما هو خلية منهما معاً وإن لم يكن هذا المزج قد تم بدرجة متساوية . .(٤) » .

وأقدم الآثار الإسلامية مسجد قوة الإسلام الذى بناه قطب الدين أيبك تخليداً لذكرى سقوط دهلى سنة ١١٩٣ م ، وقد تجلت فيه التأثيرات الإسلامية الهندية .

---

(١) Ibid p. 413

(٢) Idem

(٣) Ibid p. 414

(٤) Ibid p. 410

المراجع

اولا : المراجع العربية

١ ــ ابن الأثير : على بن أحمد بن أبى الكرم .
الكامل فى التاريخ ــ ١٢ جزءاً ــ بولاق ١٢٧٤ هـ
٢ ــ أحمد أمين : ضحى الإسلام . ج ١ القاهرة ١٩٣٨
٣ ــ أحمد محمود الساداتى : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم .
جزءان .
٤ ــ آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى . جزءان
القاهرة ١٩٤٧
٥ ــ أرنولد (سير توماس) : الدعوة إلى الإسلام . القاهرة ١٩٥٧
٦ ــ أسد رستم : الروم فى سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم
بالعرب ، ج ١ بيروت ١٩٢٥
٧ ــ الأشعرى : مقالات الإسلاميين واختلاف المسلمين ــ اسطنبول ١٩٢٩
٨ ــ ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . جزءان .
القاهرة ١٣٠٠ هـ
٩ ــ الأصفهانى : أبو الفرج
كتاب الأغانى ٢١ جزءاً . القاهرة ١٢٨٥
١٠ ــ بارتولد : الحضارة الإسلامية (تعريب حمزة طاهر) القاهرة ١٩٤٢
١١ ــ بدر الدين حى الصينى : العلاقات بين العرب والصين . القاهرة ١٩٥٠
١٢ ــ براون : تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى .
القاهرة ١٩٥٤
١٣ ــ برنارد لويس : العرب فى التاريخ
١٤ ــ البغدادى : الفرق بين الفرق ــ القاهرة ١٩١٠
١٥ ــ البلاذرى : أحمد بن يحى بن جابر
كتاب فتوح البلدان ــ القاهرة ١٩٠٠
١٦ ــ البندارى : تاريخ آل سلجوق

١٧ — البيرونى : أبو الريحان محمد بن أحمد
الآثار الباقية عن القرون الخالية — طبعة سخاو ١٨٧٩
١٨ — الثعالبى : أبو منصور عبد الملك
اليتيمة — أربعة أجزاء . القاهرة ١٩٣٤
١٩ — الجاحظ : البيان والتبيين . ٤ أجزاء — القاهرة ١٩٢٨
٢٠ — جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ٥ أجزاء ، القاهرة ١٩٠٢-١٩٠٦
٢١ — الجهشيارى : أبو عبد الله محمد بن عبدوس
كتاب الوزراء والكتاب — القاهرة ١٩٣٨
٢٢ — ابن الجوزى : مناقب عمر بن عبد العزيز
٢٣ — حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى ج ٢ ، ٣ - القاهرة ١٩٦٠
٢٤ — حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية - القاهرة ١٩٥٨
٢٥ — ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله
كتاب المسالك والممالك . ليدن ١٨٨٩
١٦ — الخضرى : تاريخ الدولة العباسية - القاهرة ١٩١٦
٢٧ — ابن خلدون : المقدمة ، بيروت ١٨٨٦
٢٨ — ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جزءان - بولاق ١٢٨٣ هـ
٢٩ — ابن الخياط : أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد بن عثمان المعتزلى
كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد . القاهرة ١٩٢٥
٣٠ — الدينورى : أحمد بن داود أبو حنيفة
الأخبار الطوال . جزءان - ليدن ١٨٨٨
٣١ — زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى - جزءان القاهرة ١٩٥٢ ، ١٩٥٣
٣٢ — زكى محمد حسن : الفنون الإسلامية فى العصر الاسلامى - القاهرة ١٩٤٠
٣٣ — السيوطى : عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين
تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله - القاهرة ١٣٥١

٣٤ — شكرى فيصل : حركة الفتح الاسلامى فى القرن الأول الهجرى .
٣٥ — الشهرستانى : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم
الملل والنحل ـ القاهرة ١٣١٧
٣٦ — الصولى : أبو بكر محمد بن يحيى
الأوراق ـ القاهرة ١٩٣٤
٣٧ — الصولى : أخبار الراضى بالله والمستقى لله ـ القاهرة ١٩٣٥
٣٨ — ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية ـ القاهرة ١٩٢٣
٣٩ — الطبرى : محمد بن جرير
تاريخ الأمم والملوك ـ القاهرة ١٣٢٦ هـ
٤٠ — الطوسى : محمد بن الحسن
فهرست كتب الشيعة ـ كلكتا ١٨٥٠
٤١ — ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز
٤٢ — ابن عبد ربه : شهاب الدين أحمد
العقد الفريد ـ ٣ أجزاء ـ القاهرة ١٩٢٨
٤٣ — العتبى : أبو نصر محمد بن عبد الجبار
تاريخ اليمينى ـ القاهرة ١٢٨٦ هـ
٤٤ — ابن العميد : الشيخ المكين
تاريخ المسلمين ـ ١٩٢٥
٤٥ — الغزالى : فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ـ القاهرة ١٩٠١
٤٦ — الغزالى : المنقذ من الضلال ـ دمشق ١٩٢٣
٤٧ — فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ـ القاهرة ١٩٥٨
٤٨ — فليب حتى : تاريخ العرب ج ٢ ـ الطبعة الثالثة ١٩٦١
٤٩ — ابن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم
المعارف ـ ١٩٣٤
٥٠ — ابن قتيبة : عيون الأخبار ـ ٤ أجزاء ـ القاهرة ١٣٤٨ هـ
٥١ — القفطى : جمال الدين على بن يوسف
أخبار العلماء بأخبار الحكماء ١٩٠٢

٥٢ — كريستنسن (آرثر) : إيران فى عهد الساسانيين ـ القاهرة ١٩٥٧
٥٣ — لوبون (جوستاف) : حضارة الهند ـ القاهرة ١٩٤٨
٥٤ — محمد حميد الله الحيدرأبادى : مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى
والخلافة الراشدة ـ القاهرة ١٩٥٦
٥٥ — محمد نبيه حجاب : مظاهر الشعوبية فى الأدب حتى نهاية القرن الثالث
الهجرى ـ القاهرة ١٩٦١
٥٦ — المسعودى : مروج الذهب
(Barbier de Meynard, Paris)
٥٧ — المقدسى . أبو عبد الله محمد الشافعى المعروف بالبشارى
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ـ ليدن ١٨٧٧
٥٨ — مسكويه : تجارب الأمم
(Amedroz - Vols I,II Oxford 1920
٥٩ — النوبختى : فرق الشيعة ـ استامبول ١٩٣١
٦٠ — ابن النديم : الفهرست ـ القاهرة ١٣٤٨ هـ
٦١ — هلال الصابى : أبو الحسين بن أبى إسحق إبراهيم الكاتب
تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ـ بيروت ١٩٠٤
٦٢ — اليعقوبى : أحمد يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح
تاريخ اليعقوبى ـ جزءان
٦٣ — اليعقوبى : كتاب البلدان ـ ليدن ١٨٩٢

ثانيا: المراجع الأوروبية

1 — Arberry : The Legacy of Persia, Oxford 1953

2 — Barthold : Turkestan down to the Mongol Invasion

3 — Barthold : Four studies on the History of Central Asia; 2 Vols. Leiden 1962

4 — Barthold : Histoire des Turcs d'Asia Centrale, Paris 1945

5 — Browne : A Literary History of Persia Vol. I, 1902

6 — Bouen (H) ; The Last Buwayhids J. R. A. S. 1929

7 — Elliot (H. M.) : The History of India as told by its own historians. The Muhammadan Period, Gaznivide, Ghor, and slave dynasties, London 1953, Sububtigin, London 1953

8 — Gibb (E. J. W.) : A history of Ottoman Poetry, Vol. I London 1958

9 — Goets : Persia and India after the conquest of Mahmoud; Legacy of Persia

10 — Heyd (W) ; Histoire du commerce du Levant au moyen age, 2 Vols. Leipzig 1925

11 — Ivanov (W) : Studies in early Persian Ismailism; London 1948

12 — Kremer (Alfred von) : The Orient under the Caliphs, 2 Vols 1920

13 — Lane-Poole ; Medieval India under Muhammedan rule, Vol, I, London 1951

14 — Le Strange ; Baghdad during the Abbasid Caliphate, Oxford 1924

15 — Lewis (Bernard) : The Origins of Ismailim, Cambridge, 1940

16 — Majurmbar (R. C.) and others ; An advanced history of India, London 1951

17 — Noldke (Th.) : Sketches from Eastern History, London 1892

18 — Osman (S. A. Ismail) : Mutasim and the Turks B.S.O London 1965

19 — Palmer : Haroun al-Rashid, London 1861

20 — Panikar (K. M.) ; A Survey of Indian history, Bombay 1954

21 — Powell-Price (J. C.) : A history of India, New York 1955

22 — Rowlinson (H. T) : India, a Short Cultural history, London 1941

فهرس الأعلام

(د)

(ر)

(ن)

الأمكنة والبقاع

(ب)

(ت)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(ن)

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

الباب الثالث :

مؤلفات
الدكتور حسن أحمد محمود
أستاذ التاريخ الإسلامي
كلية الآداب - جامعة القاهرة

١. قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى
٢. العالم الإسلامي في العصر العباسي بالاشتراك مع د. أحمد إبراهيم الشريف
٣. حضارة مصر الإسلامية في العصر الطولوني
٤. الإسلام وانتشار الثقافة العربية في إفريقيا
٥. تاريخ الشرق القديم
٦. الكندي المؤرخ
٧. الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى
بين الفتحين العربي والتركي ٢١ - ٤٤٧ هـ

دار الفكر العربي

الإدارة :
١١ ش جواد حسني - القاهرة
ص.ب ١٣٠ ت ٣٩٢٥٥٢٣

تطلب جميع منشوراتنا من فروعنا

الفرع الرئيسي :
٢٦ ش جواد حسني - القاهرة
ت ٣٩٣٠١٦٧

فرع مدينة نصر :
٩٤ ش عباس العقاد / المنطقة
السادسة - ت ٢٦١٩٠٤٩

فرع الدقي :
٢٧ ش عبد العظيم راشد / متفرع
من ش الدكتور شاهين - العجوزة
ت ٧١٧٤٩٨

مؤسسة
دار الكتاب الحديث
للطبع والنشر والتوزيع
الكويت
ص.ب ٦٠٥٦ / السالمية 22071
٥٧١٨٥٧١ ، ٥٧٤٨١٦٥

رقم الايداع	
الترقيم الدولي	